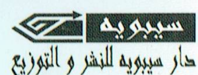
عبد الوهاب بوزقرّو

روسبينا الملاحم



دار سيبويه للنشر و التوزيع

روسيا الملاحم

(ألفية الْمنستير)

شعر عبد الوهاب بوزڤرو



بِسْمِ الإِلَهِ أَقُولُ: الْحَمْدُ مُبْتَدِءًا	لِلّهِ مُبْتَدِئِ الأَكْوَانِ بِالنُّورِ
مُسْتَمْطِرًا رَحْمَةً مِنْ عَفْوِهِ وَرِضًا	ثُمَّ صَلاَةً عَلَى الْمُخْتَارِ لِلْخيرِ
يَاصَاحِ! دَعْنِي أُجِيزُ الْحَرْفَ يَسْبِقُنِي	كَيْ يَنْشُرَ الْوَرْدَ فِي دَرْبِ التَّعَاطِيرِ
فِي رَدِّ بَعْضِ جَمِيلٍ لَسْتُ أُنْكِرُهُ	مَهْمَا تَقَلَّبْتُ فِي صَرْفِ الْمَقَادِيرِ

الإهداء

إِلَى الَّتِي بَقِــــيَتْ عَبْرَ الْعُصُــورِ مَنَا   رًا لِلْهُدَى، وَ بِهَا قَدْ هَـــامَ تَفْكِيرِي

أُهْدِي الْقَرِيضَ وَهَلْ يُجْدِي الْقَرِيضُ إِذَا   مَا سِيقَ فِي بَلَدٍ مِثْلَ الْمُـــــــنَسْتِيرِ

لَكِنَّنِي عَاجِــــــزٌ، وَالْعُدْمُ أَقْعَدَنِي   أَنْشَدْتُ بِالرَّغْمِ مِنْ عَجْزِي وَتَقْصِيرِي

عبد الوهاب بوزقرو

المصادر والمراجع

1	الدباغ، معالم الإيـــمان ــ (طبع المطبعة العربية التونسية 1320هـــ.)
2	ابن أبي دينار، كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ــ (الطبعة الأولى 1286 هــ بتونس.)
3	مُحمد بوزقرو، رباطات المنستير في خضمّ صراعات المسلمين (مَخطوط)
4	مُحمد الطاهر عـــقير، المنستير عبر مواقع التجذير والتحرير (مطبعة بريمو 1989)
5	مُحمدالطاهرعـــقير،هذه هوية المنستيرـــ(منشورات اللجنة الثقافية المحلية بالمنستير.1992)
6	عبد الله الزناد، المنستير عبر العصور (مطبعة لابراس 1987)
7	حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس (الدار التونسية للنشر)
8	مُحمدصالح الصيادي،المنستير،دراسةللتاريخ الإجتماعي في القرن التاسع عشر(تونس 1979)
9	مُحمد الهادي العامري، الشيخ الأكبر أبو عبد الله مُحمد زيتونة المنستيري، مقال منشور بمجلة مرآة الساحل عدد 22 السنة 6: جويلية 1971.
10	وثيقة حبس الحاج أحْمد بوزقرو.
11	Excursions en Tunisie (SOUSSE, Monastir, Mahdia, Enfidaville,El-Djem Kairouan)1904-1905.
12	Hichem JAIT et autres , Histoire de la Tunisie ; S.T.D.
13	Herbert W. ARMSTRONG , Les Anglo-Saxons selon la prophétie; edit EMBASSADOR COLLEGE. Pasadena,Californie, U.S.A
14	L'Indicateur Tunisien 1901.
15	ALPHA Encyclopédie universelle, Grange Batelière, France
16	Petit LAROUSSE 1976.
17	Dictionnaire LATIN- FRANCAIS, edit HATIER
18	مُحمدالشادلي النيفر،المازري الفقيه المتكلم وكتابه المعلم(اللجنةالثقافيةالجهوية بالمنستير).
19	كتاب التاريخ السنة الثالثة ثانوي، للمدارس التونسية(طبعة العراق الشقيق).سنة 1980
20	أرشيف بلدية المنستير.
21	Léopold-Sédar SENGHOR et autres, L'Afrique africaine,imp.Suisse
22	Dr. DEYROLLE, Haouanet de l'île de la quarantaine (Monastir)

*في الإحالات بالهامش نَجد بين قوسين رقما بعدحرف الميم (م.3) هو رقم المرجع بالقائمة أعلاه.



مقدمة

هَلْ لِلصَّـــبَابَةِ حَدٌّ فِي الْمَقَادِيــرِ أَمْ تِلْكَ شَنْشَنَةٌ أَجْلَتْ سَمَادِيرِي[1]

لله مِنْ دَنِفٍ، قَــدْ شَـفَّهُ كَـمَدٌ وَالْقَلْبُ مُشْـتَعِلٌ جَمْرًا بِتَـنُّورِ

مَا بَالُ حُرْقَتِهِ لاَ تَنْــــطَفِي أَبَدًا كَالْغَيْظِ مِنْ تِرَةٍ فِي صَدْرِ مَـوْتُورِ

مَـــا زَالَ دَاعِــيَةُ الأَحْزَانِ يَأْخُذُهُ إِلَى غَلِيــــلٍ مِـــنَ الآلاَمِ مَسْعُورِ

فِي حُبِّهَا ذَهَبَتْ أَيَّامُهُ هَـــــدَرًا وَ الْفِكْرُ مُنْــذَهِلٌ فِي شِبْهِ مَخْمُورِ

لاَ يُرْتَجَى أَبَدًا فَتْحٌ لِمُغْلَــــقِهِ ضَاعَتْ مَفَاتِحُهُ فِي جَوْفِ عُصْفُورِ

إِنَّ الصَّــبَابَةَ دَاءُ النَّفْسِ مُذْخُلِقَتْ هَلْ مِنْ دَوَاءٍ؟وَقَدْحُمَّتْ مَقَادِيرِي!؟

مَنْ لِي بِجَارِيَةٍ، أَعْكَـانُهَا[2] خُلُجٌ تَخْتَالُ مِنْ غَـيَـدٍ فِي رِقَّةِ الْحُورِ

لاَ الأُفْقُ يَسْحَرُهَا،لاَ الْبَحْرُ يَغْمُرُهَا لاَ الْفَجْرُ يَبْهَرُهَا مِنْ بَعْـدِ دَيْجُورِ

وَالْحُسْنُ فِي مِقَةٍ[3] يَرْجُو تَعَطُّفَهَا لَمْ يَلْتَفِتْ وَلَهًا ، يَهْذِي كَمَسْحُورِ

جَاؤُوا يَلُومُــونَهُ فِي حُبِّهَا فَرَأَوْا مِنْ عِشْقِهَا نُطَفًا فِي عَيْنِ مَبْــهُورِ

كَفُّواالْعِتَابَ وَقَالُوا:لَسْتَ فِي خَطَإٍ مِنْ حُبِّــهَا، وَلَقَـــدْ أُبْنَا بِتَنْوِيرِ

إِنَّا عَشِقْنَا وَ هَذَا الْقَلْبُ قَدْ مَلأَتْ أَرْكَـانَهُ شُـعَــلٌ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ

مِنْ فَاتِرِ اللَّحْظِ قَدْ بَانَتْ لَنَا سِمَةٌ لَمْ نُلْـفِهَا أَبَدًا فِي النُّزْلِ وَالدُّورِ

جَلَّتْ مَحَاسِنُهَا عَنْ وَصْفِ وَاصِفِهَا كَالْمَـاسِ فِي حُقِّهِ بِالْعِزِّ مَخْفُورِ

---

(1) «الشنشنة» هي الإدعاء والزعم و«السمادير» هي تَخيلات وهواجس السكران (2) «الأعكان» جَمع عكن وهي طيات اللحم من جهة البطن دلالة على النعمة والرواء ، و«خُلُجٌ» جَمع خَلِجٌ أي يَختلجُ(يترجرج) وهي أيضا أحد جُموع «خَليج» (3) «الْمقة » شدّة الْحب والوله.

يَرْعَاهُ صَاحِبُهُ حِفْظًا وَ تَكْرِمَةً ... مِنْ حِرْصِه قَدْ غَدَتْ عَيْنَاهُ كَالْعُورِ

لَمْ يَلْمَسِ الْحُسْنَ فِيمَا قَدْحَوَتْ يَدُهُ ... كَالْمِسْكِ يَحْمِلُهُ رَاعِي الْخَنَازِيرِ

وَالْحُسْنُ إنْ ظَهَرَتْ أَسْرَارُهُ سَمُجَتْ ... وَالنَّفْسُ هِمَّتُهَا فِي كَشْفِ مَسْتُورِ

وَالْكَشْفُ قَدْ زَادَنَا فِي فِتْنَةٍ كَلَفًا ... لَمْ نَسْتَطِعْ مَعَهَا ضَبْطَ الْمَعَايِيرِ

وَإِنَّمَا امْتَلأَتْ خَمْرًا جَوَانِحُهَا ... وَمَا رَوَتْ خَمْرَةٌ غِلاًّ لِمَخْرُورِ

قُلْنَا، وَلَمْ نَقُلِ الأَشْعَارَ عَنْ طَمَعٍ ... فِيَّ وَصْلِ مَنْ خَلَطَتْ مِسْكًا بِكَافُورِ

مَا دُرَّةٌ فِي حِقَاقِ الْعَاجِ أَمْلَحُ مِنْ ... أَلْمَاسَةٍ ظَهَرَتْ مِنْ جَانِبِ السُّورِ

لَمْ أَدْرِ!..هَلْ غَادَةٌ إِنْسِيَّةٌ بَرَزَتْ ... أَمْ إِنَّهَا شَادِنٌ مِنْ تِلْكُمُ الْفُورِ[4]

جَاءَتْ إِلَى شَاطِئٍ قَدْ نَامَ هَائِجُهُ ... لَمْ تَلْقَ مِنْ مَائِرٍ فِيهِ وَلاَ مُورِ

فِي رَقْصَةِالْمَوْجِ غَاصَتْ وَهْيَ فِي حُلُمٍ ... بِالْقَدِّ فِي أَلَقٍ بِالْمَاءِ مَغْمُورِ

تَنْسَابُ سَابِحَةً فِي عُمْقِ أَعْصُرِهَا ... وَ تَنْسِجُ الْحُلْمَ مِنْ جَوِّ الأَسَاطِيرِ

فَالْفُلْكُ فِي رِقَّةِ الأَنْسَامِ جَارِيَةٌ ... وَالْحُورُ سَابِحَةٌ فِي لُجِّ «بُومْنِيرِ»[5]

وَالسَّعْدُ[6]فِي غَارِهِ قَدْ قَامَ مُبْتَسِمًا ... كَيْ يَشْهَدَالْحَفْلَ فِي مَقَامِ«مَنْصُورِ»[7]

---

(4) «شادن» غزال، و«الفور» الغزلان. (5) «بومنير» أحد الْمغاور البحرية بـــ«سطح جابر» من الْجهة القبلية لمدينة «الْمنستير»وبه مائدة حجرية في ارتفاع مترين تقريبا نَحتتها الأمواج في الصخرة من أبدع النقوش الطبيعية،وقع تغطيتها الآن بالحجارة في عملية حماية الساحل الصخري . (6) إشارة إلى «غار السعود» وهو أحد الْمغاور في مدخل ميناء «الكحلية » الآن، يأتي تحت مقام «سيدي منصور». (7) إشارة إلى مقام الشيخ «منصور بيزيد» الْموجود على قمّة «غار السعود» وبه تقام الوعائد وبعض الْحفلات العائلية ومنها (وعدة إقامة سعد البنت التي لَم تتزوج). وهو «منصور بيزيد الْمرابط » في أواخر القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر وقد كان برّا رحيما وكان صديقا للشيخ الصوفي عامر المزوغي صاحب زاوية «سيدي عامر»، وتُحكى عنه بعض الكرامات وما زال نسله إلى الآن وله مقام جليل على حافة البحر على «غار السعود» في مدخل ميناء« الكحلية» الآن.

«كَحْلِيَّةٌ»[8] بِغَوَانِي الْحَــيِّ مَائِجَةٌ يَبْغِينَ مُبْـــتَرَدًا مِنْ حَرِّ «بَاحُورِ»[9]
زَغْرَدْنَ حَتَّى أَتَتْ أَسْـــمَاكُهَا شُرُعًا تَرْعَى السَّـــوِيقَ وَلاَ تَخْشَى مِنَ الضِّيرِ
كَيْفَ السُّلُوُّ،إِذَنْ، وَالْقَلْبُ فِي كَلَفٍ مِنْ عِـــشْقِ غَانِيَـــةِ الْغُرِّ الْمَبَاكِيرِ[10]
لاَ الشَّيْبُ يَرْدَعُـــنِي عَنْ حُبِّهَا أَبَدًا مَا سِتْرُ مَوْجِدَتِي فِي مَشْرِقِ الـــنُّورِ؟
يَا نَفْسُ! فِي حُـــبِّهَا جِدِّي وَلاَتَهِنِي فِي نَشْرِ أَمْجَادِهَا، فِي عِشْقِهَا سِيرِي
لاَ خَيْرَفِي الْحُبِّ إِنْ كَانَتْ نِهَايَــتُهُ فِي مَطْلَعِ الشَّيْبِ، أَوْ إِحْدَاثِ تَطْوِيرِ

(8) «الكحلية» هي نَفَقٌ تحت الأرض منحوت في الصخر في الضفّة الأخرى لِجون «سيدي منصور» ويعتقد أنها كانت حَمّاما بَحريا لوجهاء القوم، ثم أصبحت عمومية وكانت النساء يأتينها في الصباح الباكر للسباحة ويرمين بماء البحر «البسيسة» وهي السّويق ملتوتا بالزيت فتأتي الأسْماك تلتقطه وهي آمنة لا يصطادها أحد وهناك تقوم زغاريد النسوة متهللة فرحا بقبول الْهدية (9) «الباحور» هي شدّة الْحرارة في الصيف بين أواخر تَمّوز وأوائل آب ويسمى عندنا «أوسّو».(10) مَبَاكِير (جمع مبكار)وهو المنتج والغزير الإنتاج.

العهد البربري

قُمْ صَاحِ وَانْشُدْ مَعِي فَخْرَ «الْمُنَسْتِيرِ» «رَأْسِ الْمَغَاوِرِ»[1] بَلْ غَارِالْمَـغَاوِيرِ

فَخْرًا بِــهِ طَرِبَ الآنَــامُ مُذْ ظَهَرَتْ آثَارُهُ تَـبَــعًا فِي شِعْــبِ «تَنِّيرِ»[2]

تُــثْرِي رَصِيــدًا كَـــانَ مِنْ زَمَــنٍ شُغْلَ الأَسَــاتِيــذِ فِي فَهْمِ الأَحَافِيرِ

حَـــارَ الأُولَى دَرَسُوا تَارِيخَهَا مَاالَّذِي تُخْــفِيهِ آثَــارُهَا مِنْ دَارِسِ الدُّورِ

وَالْكُلُّ يُــدْلِي بِقَــوْلٍ غَيْرِ مُنْحَسِمٍ وَالرَّسْــمُ كَاللُّــغْزِ بَاقٍ دُونَ تَغْيِيرِ

هَلْ «بَرْبَرٌ»حَفَرُوا فِي صَخْرِهَا غُرَفًا أَمْ عُمْرُهَا أَزَلٌ فِي عُمْرِ «أُحْفُورِ»[3]

أَمْ كَانَ سَاكِنُهَا مُسْــتَعْــمِلاً حَجَرًا فِي كُلِّ أَغْرَاضِهِ لاَ قِطْرَ تَصْهِــيرِ[4]

هَلْ كَانَ مِنْ بِيضِهَا؟أَمْ زِنْجِهَا؟ وَلَقَدْ جَاءَتْ بَرَابِــــرُهَا مِنْ بَعْدِ تَعْمِيرِ[5]

فَالْكُلُّ مُحْتَمَلٌ فِي فَحْصِ مَا تَرَكُوا وَالْكُلُّ تَعْضُدُهُ أَشْــــغَالُ تَحْفِيرِ

(**1**)«رأس الْمغاور» هي الترجَمة لكلمة «روسبينا» (Rush Penna) (روش = رأس؛ وبينا = مغاور) وهي عبارة عبرية وفعلا فـ«الْمنستير» رأس كثرت به الْمغاور والْمحاريب في ساحله الصخري منه والرملي، فهو ليس بالشاطئ الممتد في استواء واحد. أو لعلّه بسبب الْمغارات التي كانت بِجزيرة «الوسطانية» وهي ما يعبّر عنها بـ«الْحوانيط» فالبعض يرى أنّهَا مدافن أو أماكن تُحنّط فيها الْجنائز بغمسها في البحر لتتشرّب الْملح ثمّ يقع حشوها بالْحنوط ووضعها في النواويس؛ وقد تكون بعض النواويس الْمحفورة في جزيرة الغدامسي منها، وهي عبارة عن صناديق منقوشة في الصخر بِها مكان للرأس على قدره والبقية للجسد على شكل الصناديق المحمولة من النواويس الحجرية. ولا يستبعد أن تكون طريقة فينيقية أتوا بِها معهم من بقايا الْحضارة الآشورية، (م.22، Dr. DEYROLLE Haouanet de l'île de la quarantaine(Monastir)) واستعملت بعد ذلك معزلا للزمنى عند الأوبئة. (**2**) «التنير» هو الشعب الذي عثر به على آثار رومانية سنة 1980 وجعل ذلك منعرجا حاسما في أذهان مؤرخي «الْمنستير». (**3**) بعض الأحافير دلّت على عمر الأرض بـ«الْمنستير» وهو العهد الْجيولوجي الثالث. من ذلك ماوجد في تربة منطقة الشعبة (آثار رخويات متحجرة لَم تظهر إلا في العهد الْجيولوجي الثالث)، أما الْجزء القبلي فمن الواضح أنه من العهد الرابع. (**4**) إشارة إلى اكتشاف بعض الآلات الْحجرية، والقطر هو البرنز (م. 8).(**5**) كلها احتمالات (م.21)

وَ«الأَفْرُ»(6) إنْ سَكَنُوا «إفْرِينَةً»(7) فَلَقَدْ   أَغْرَتْهُمُ قِـــــدَمًا بِالتَّجْرِ وَالْمِيرِ
سَارَتْ قَوَافِلُهُمْ بِالْبِيـــدِ يَحْـــرُسُهَا   أُسْدٌ قَسَـــاوِرَةٌ مِنْ كُـــلِّ مَحْذُورِ
هُمُ الطَّـــوَارِقُ لاَ مِطْـــرَاقَ غَيْرُهُمُ   إنْ شَدَّ رَائِدُهُمْ فِي وَخْدَةِ السَّيْرِ(8)

(6) «الأفر» هم «اللوبيون» أوالسكان الأصليون ومعنى (الأفر) حسب بعض الروايات (سكان الْمغاور). (7) «إفرينة» الإسم الفينيقي لِمكان اسْمه إلى الآن هكذا، وهو النسبة من (أفر)=أفرين= أفرينا) وهذه الصيغة في النسبة معروفة في لغات الشرق القديم السامية منها بالخصوص وما زالت بقاياها بالعربية كإسكندراني نسبة إلى الإسكندرية، ومعنى أفرينا (بلاد الْمغاور)، وتكون ترجَمتها إلى اللاطينية «أفْرِيكَا» وهكذا ينطبق الإسم الفينيقي على الإسمّ العبري وهما من أصل لغوي واحد.(8) الطوارق جمع (طارقي): وهم قوم من برابرة الصحراء الملثمين، وطارق الليل هو الغازي أو السارق. المطراق (مفرد المطاريق): قوافل الإبل الجادة في السَّير ، وَخدة السَّيْر : شدّته وسرعته.

العهد الفينيقي

يَاسَاحلاً هَدَأَتْ خُلْجَـــانُهُ وَهَدَتْ إِلَيْكَ قَدْ لَجَـــؤُوا خَـــوْفَ الأَعَاصِير
بَحَّارَةٌ رَحَلُوا يَحْـــــــدُوهُمْ أَمَلٌ هَـــذَا غِـــنَاؤُهُمْ آتِـــيكَ مِنْ«صُور»(1)
مِنْ«صُور»قَدْ خَــرَجُوا يَبْغُونَ مُتَّجَرًا يَبْغُونَ مُنْتَـــجَـــعًا لِلْفُـــلْك وَالْعِير
مِنْ «أَفْرِ إِفْرِينَة» قَــدْ جَـاءَهُمْ مَدَدٌ يَبْنُونَ مَرْفَـأَهُمْ فِي حِجْرِ مَحْـــجُور
مِنْ عَهْدِ«إِفْرِينَةَ»«الْفِينِيقُ»(2)قَدْسَكَنُوا «قُرْطِيلَ»(3)عَنْ صُورَةٍ مِنْ أُخْتِهَا«تِير»(1)
«تَانِيتُ»(4)تُرْضِعُهَاوَ«بَعْلُ»(5) يَحْرُسُهَا لَكِنَّ مَرْجِعَـــهَا لِـــ«ـــيَهْوَه الطُّور»(6)
مَا كَانَ أَجْدَرَهَا بِالْقُدْسِ إِذْ وَهَــبَتْ مِنْ وُلْدِهَا رَصَـــدًا لِلْـــعِلْمِ وَالـــنُّور
بِالدِّينِ عِزَّتُهَا ، بِالْعِلْمِ رِفْعَـــــتُهَا شُمٌّ أَشَـــــاوِسُهَا فِي نَـــصْرٍ مَوْتُور

(1) «صور أو تير » هي مدينة «صور» الفينيقية أو اللبنانية. (2) «الفينيق» (إله يوناني للطرب) والمقصود هم الفينيقيون، ولعلهم سُمّوا هكذا لتطورفن الغناء عندهم، وهم يعتبرون أنفسهم من الكنعانيين. وهٰذه إشارة إلى حضارتهم بالْمكان. (3) «قرطيل» بقايا مدينة فسيحة قديمة باسم (القرطيل: قرط = مدينة؛ وإيل = اللّه) وهو ما يفسّر الْحضور العبراني ومعنى(روسبينا)، وهي الآن جزء من غابة «الْمنستير» وبها مسجد يسمى بهذا الإسم، وقد حرفه العامة فقالوا «قرطين»، ويظهر أن القلعة الرومانية الْمكتشفة بـــ«التنّير»جزء منها. (م.10، وتفسير الدكتور مُحمد حسين فنطر). (4) «تانيت» الإلَهة الْمرضعة في حضارة الفينيقيين.(5) كبير الآلِهة «بعل» (وهو إله قديم من عهد ما بين النهرين وانتقلت عبادته عن طريق التجار إلى فينيقيا) وذكره القرآن {وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلاَ تَتَّقُونَ (124) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ(125) الصافات}. (6) «يهوه» (Jahvé) وهو (اللّه) ونسبته إلى الـــطّور (طور سيناء)كون هذه الديانة هي اليهودية.

الدور الإغريقي

لَكِنَّ قَرْطَــاجَ لَمْ تَهْــنَأْ بِقُــوَّتِهَا رَغْمَ التَّـــوَسُّعِ حَتَّى بَحْـــرِ بَلْيِير
بَلْ قَامَ يُونَـــانُ يَغْـــزُوهَا مُــنَافَسَةً حَتَّى إِذِ انْهَزَمَتْ فِي حَرْبِ هِيمِيرِ[1]
قَامَ الأَغَارِيقُ فِي عُجْـــبٍ بِدِينِــهِمِ يَبْغُـــونَ نَشْـــرَهُ فِي قَلْبِ الْجَمَاهِيرِ
وَالنَّاسُ فِي دِينِهِمْ أَتْبَاعُ غَالِـــبِهِمْ فَصَارَ مُعْـــتَــنَقًا دِينُ الأَسَـــاطِيرِ[2]
طَابَتْ لَهُ أَنْفُـــسٌ حَتَّى اسْتَــقَلَّ بِهَا فَهَـــانَ مِنْ أَجْـــلِه كُـــلُّ الْمَحَاذِيرِ
فَهْوَ الْحَقِيـــقَةُ فِي الأَلْـــبَابِ لاَ كَذِبًا وَهْوَ الْوَفَــــــاءُ بِلاَ مَيْنٍ وَلاَ زُورِ
«زِيُّوسُ»[3] إِذْبَطِشَتْ«هِيرَا»[4] بِخِلْفَتِه فَالنَّـــاسُ مِنْ حُبِّهِمْ فِي كُلِّ مَعْمُورِ
يُـــهْدُونَ أَوْلاَدَهُ، زُلْفَى وَ تَضْــحِيَةً مَـــا عَزَّ مِنْ وَلَدٍ، فِيـــهِمْ وَمِنْ دُورِ
أَهْدَوْالـــ«بَاخُوسَ»[5]«رُوسْبِينَا»وَغَابَتَـــهَا، وَالْكَرْمُ قَدْ أَثْمَرَتْ أَنَامِـــلَ النُّورِ
مِنْ خَمْرِهَا شَرِبُواحَتَّى ارْتَوَوْا وَأَتَوْا أَعْــيَـــادَهُ أَمَـــلاً فِي الْيُمْنِ وَالْخَيرِ
كُهَّانُـــهُمْ عَزَفُوا أَلْحَانَهُمْ ، وَ عَلاَ صَوْتٌ لِقَائِـــلِـــهِمْ مَعْ عَزْفِ طُنْبُورِ
تَرْوِي أَسَاطِيرُهُمْ حَرْبَ الْغُيُوبِ بِهَا مَأْسَـــاةُ أَبْطَـــالِهِمْ فِي حَرْبِ مَقْدُورِ

---

(1)إشارة إلى الحرب التي خسرتها قرطاج ضد الإغريق سنة 480 قبل المسيح قرب هيمير بسواحل صيقلية (2)دين الأساطير المقصود به دين اليونان المبني على الأساطير ككل الأديان ولكن العنجهية اليونانية تقدّمه على أنه الحضارة والحقيقة وما سواه البربرية والجهل.(3)«زيوس» «Zeus»كبير الآلهة في «أولَمب» وهو أب «ديونيسوس» .(م.16). (4) «هيرا» عدوة «زيوس» وقد كادته في زوجته و ابنه «ديونيسوس».(م.15). (5) «باخوس»إشارة إلى رواية تقول بأن «روسبينا » مهداة إلى إله الْخمر «باخوس» الذي هو « ديونيسوس». ويروي التاريخ أن عبادته شاعت في جَميع الْممالك الرومانية وقد قامت «روما» بِمحاربة أتباعه منذ 186 قبل الْميلاد.(م.11و 15).

«أَخيلُ»[6] لَمْ يَسْتَطِعْ تَحْقِيقَ رَغْبَته رَغْمَ انْتِصَارَاته فِي حَرْب«هكْتُور»[7]
«أُوليسُ»[8] لَوْ زَارَهَا وَعَادَ مُنْتَصِرًا مَقْـــدُورُهُ،هَكَذَا فِي شعْرِ«هُومير»[9]
مَا كَانَ تَحْقِيـــقُهُ إلاَّ مُـــنَـــاسَبَةً لِدَوْرَةِ الـــرِّيحِ فِي فَصْلِ الأَعَاصِيرِ
وَالنَّاسُ إنْ لَعِبُوا مَلْـــهَـــاتَهُمْ فَلَقَدْ أَغْـــرَاهُمُ رَغَـــدٌ فِي سُكْـــرِ تَخْمِيرِ
لَكِنَّ«يُونَانَ» قَدْ شَاخَتْ حَضَارَتُهَا وَبَـــاتَ مُرْتَـــقَـــبًا إحْـــدَاثُ تَغْيِيرِ

---

(6)«أخيل» هو البطل الرئيسي في«الإلياذة» (7)«هكتور» هو سيد **«طروادة» أو طروادة** (8) «أُوليسُ» أو «أودسيوس»هوأحد أبطال الإلياذة وصاحب فكرة«الحصان» و بطل **الأوديسة، و ذكر في الأوديسية** وصف لِمكان حبس فيه «أوليس» ينطبق على«روسبينا» انطباقا كبيرا وذلك من بنات **الخيال طبعا، (9) «هُومِير»** هو الشاعر اليوناني الشهير «هوميروس» صاحب الإلياذة والأوديسية الذي قال في **مدح شعره الشاعر الفرنسي «فيكتور** هيقو»: «وُلد العالَم وغنّى هوميروس إنّه كروان هذا السّحر».

تراجع قرطاج

رُومَا الْوَرِيثَـــــةُ لِلْيُـــونَانِ،عَنْ حَرَدٍ   قَادَتْ جُيُوشَ الغَزْوِوَالتَّخْرِيبِ وَالْجُورِ

لَمْ تَدَّخِرْ حِيلَةً فِي السَّـــطْوِ تَحْبُكُهَا   ضِـــدَّ الَّذِينَ رَأَوْا عَـــرْفًا مِـــنَ النُّورِ

صَبْرًا أَيَا«حَنَّبَعْلُ» اصْمُدْ فَمَا وَهَنَ الْـــــمَغْزُوُّ مِنْ ضِـــعَـــةٍ أَوْ خَوْفِ تَقْصِيرِ

لاَ!«حَنَّبَعْلُ»[1] ! فَمَا بِالْجُنْدِ مِنْ طَمَعٍ   فَـــالنُّـــبْلُ يَرْدَعُهُمْ عَنْ سَلْبِ مَقْهُورِ

وَالْفُلْكُ قَدْمَخَرَتْ فِي اللُّجِّ وَافْتَخَرَتْ   بِالْقُوتِ قَـــدْ وُقِـــرَتْ كُـــلُّ الْعَنَابِيرِ

«قَرْطَاجُ»قُومِي فَـــ«رُوسْبِينَا»[2] تَمُدُّ   كِ بِالْأَبْطَالِ وَالْعَوْنِ وَ الأَقْوَاتِ وَالْمِيرِ[3]

لاَ تَرْكَعِي لِصُـــرُوفِ الدَّهْرِ عَاجِزَةً   وَاسْتَجْمِعِي مَـــدَدًا مِنْ حُسْنِ تَدْبِيرِ

«دَلَنْدَ قَرْطَاجُ»صَوْتُ الْغَدْرِ جَاشَ بِهِ   صَدْرُ الْبُـــغَـــاةِ عَلَى جَمْرٍ بِتَـــنُّورِ[4]

«سِيبِيُونُ» بِالْغَدْرِ قَادَ الْجَيْشَ مُنْتَهِزًا   فِي غَيْبَةِ الْبَـــطَــــلِ الْمِغْوَارِ بِالْغُورِ

«قَرْطَاجُ»لاَتَهِنِي فَالْحَرْبُ فِي شَرَفٍ   خَيْرٌ مِنَ الْعَيْـــشَ تَحْتَ الْقَهْرِوَالْجُورِ

خُوضِي غِـــمَارَ الْوَغَى فِي عِزَّةٍ وَإِبًا   لاَ خَيْرَ فِي دِعَـــةٍ أَوْ عَيْشٍ مَقْـــصُورِ

يَا صَدْرَ بَعْلَ إِذَا ضَاقَ الْفَضَاءُ بِمَنْ   يَرْمُونَ قَـــــرْطَاجَ فِي أُتُّونِ تَدْمِيرِ

لاَ تَرْكَعَنْ لِطُغَاةِ الرُّومِ عَنْ رَمَـــقٍ   لاَ عِزَّ بَعْـــدَ إِبًا فِي قَيْـــدِ مَأْسُـــورِ

---

(1)إشارة إلى حروب «حنّبعل» مع روما، ومدّ «روسبينا» إياه بالرجال والعتاد. (2) «روسبينا» الإسم الروماني للمدينة وتظهر فيه التركيبة العبرية.(يظهرأن كلمة (روس) الرومانية هي الغابة وليس هنالك معنى واضح لــ«بينا» وهكذا فهي ليست تسمية رومانية وإن لَم تظهر إلاّ في العهد الروماني). (3) إشارة إلى العون الّذي أخذه «حنبعل» من «روسبينا» في حروبه ضد «روما». (4) «دلندا كرطاقو» الكلمة التي قالها في غيظ الملك الروماني لغزوة «سيبيون» بعد الهزيمة أمام «حنبعل»

«ديدُونُ»[5] لَوْ رَكَعَتْ مَاكَانَ يَحْسُدُهَا   الرُّومَانُ فِي وَرَقٍ مِنْ أَرْضِ «إِيبِيرِ»[6]
لَكِنَّهَا فَضَّلَتْ كَأْسَ الْحِمَامِ عَلَى   أَسْرٍ تَذِلُّ بِهِ رَغْمَ الْمَعَاذِيرِ
وَتِلْكَ مِنْ شِيَمِ الأَحْرَارِ إِنْ غُلِبُوا   فَالْمَوْتُ عِنْدَهُمُ خَيْرٌ مِنَ النِّيرِ

(5)«ديدون» هي «عليسة» مؤسسة «قرطاج» والكلام من باب المجاز.فالتي انتحرت هي زوجة صدربعل الذي فشل في ردّ هجمات الروم فانتحرت مرتمية في النار بعد أن تخلّصت من أولادها حتّى لا يبقوا رهينة في أيدي الرومان.
(6) «إيبير» هي «إسبانيا» وقد كانت لـ«قرطاج» مناجم الفضّة بها.

العهد الروماني

الأَمْرُ للهِ! فَــ«الرُّومَانُ» قَدْ مَــلَكُوا — مِنْ بَعْدِ «قَرْطَاجَ»عَاجُوا «لِلْمُنَسْتِيرِ»
مِنْهَا«شَقَاقِصُهُمْ»[1] جِسْرًا بِهَاوَجَدُوا — مِنْ عَهْدِ«إِسْكَنْدَرِ»قَبْلَ بِنَا«السُّورِ»[2]
عَاشُوا بِهَا زَمَــنًا مِنْ خِصْبِهَا غَرَفُوا — مِنْ عِطْــرِهَا خَلَطُوا مِسْكًا بِكَافُورِ
إِنْ حَــارَبُوا دِينَ «بَاخُوسَ» فَإِنَّهُمُ — مِنْ كَرْمِــهَا قَدْ رَوَوْاحَتَّى الْمَنَاخِيرِ[3]
حَتَّى أَتَى«قِنْيُوسُ»[4] الشَّهْمُ مُنْتَصِرًا — وَاحْــتَازَ فِي شَرَفٍ إِسْمَ «انْبرَاطُورِ»
قَامَتْ تُنَاكِــدُهُ فِي حُكْــمِهِ فِــئَةٌ — مِنْ بَعْدِ أُلْفَتِهِمْ فِي مُنْتَدَى «الْفِيرِ»[5]
فَكَرَّ يَطْلُبُهُمْ فِي كُــلِّ نَــاحِيَةٍ — حَتَّى غَدَا حَرِدًا وَالْقَــلْبُ فِي ضِيرِ
«يُولْيُوسُ!»[6] أَقْبِلْ! فَــ«رُوسْبِينَا»بِهَا مَدَدٌ
لاَ! لاَ تَخَــفْ حَــرَجًا مِنْ قِــلَّةِ الْمِيرِ
«بُومْبُوسُ!»لاَتَقِفَنْ فِي وَجْهِهَا أَبَدًا! — لاَ يَصْدُقَنْ دَائِمًا نَصْرُ «السَّنَاتِيرِ»[7]
وَاغْنِــمْ مُــؤَازَرَةً فِي غَيْرِ مَفْخَرَةٍ — وَ لاَ يَغُــرَّنْكَ تَأْلِيــفُ الْعَــسَاكِيرِ

---

(1)«شقاقص» هي الكلمة اللاطينية لــ«سقانص» ومن معانيها: الْممتد، والدرب الْمستقيم، والسلس «Séquax» وكذلك «شقانص» «Sequens» ومعناها التابع والّذي يأتي بعد، فهي، إذن، ضاحية تابعة لــ«روسبينا» وأقدم الآثار بها رومانية.(م.17). (2) أي قبل بناء سد «يأجوج ومأجوج» بناه «الإسكندر» حسب روايات والْمقصود الإشارة إلى القدَم فقط (يقال في كلامنا الدارج «من عهد سيدنا إسكندر» أي قديــم جدا) .(م.1). (3)المناخير(جمع منْخُور)وهو أعلى الصّدر(4) «قِنيُوس» هو «بومبوس» واسْمه الكامل « قنيووس بومبيوس مغنوس» وحكم «روما» قبل أن يثور عليه «يوليوس قيصر».(م.16). (5) «الفير» هو مَجلس نظر تكوّن من «بومبوس» و «كراسّيوس» و«يوليوس قيصر » ويسمى «التريَمفيرا» (Triumvirat).(م.12). (6) إشارة إلى لُجوء «يوليوس قيصر» إلى «روسبينا» وتقوّيه برجالها وانتصاره على خصمه «بومبوس» وإعلان نفسه إمبراطورا لــ«روما».(م.12).(7) «السناتير» جَمع بالصيغة العربية لكلمة «سيناتور» وهم الشيوخ الّذين يؤلّفون مَجلس الشيوخ في النظام الرومَاني (Sénat).(م.12).

إِنَّ الْعِدَاءَ لـــ«رُوسْبِينَا »شَقَاوَةُ مَنْ قَدْ فَـــاتَهُ الْحَـــزْمُ مِنْ رَأْيٍ وَ تَدْبِيرِ

«يُولْيُوسُ قَيْـــصَرُ» إِذْ يَنْـــجُو بِمُعْـــجِزَةٍ

مِنْ كَفِّ«بُومْبُوسَ»مِنْ خَلْفِ«الْقَنَاطِيرِ»[8]

فَقَدْ حَمَاهُ بِـــ«رُوسْبِينَا» أَشَاوِسُهَا حَتَّى غَدَا أَسَـــدًا يَسْـــطُو بِأُظْفُورِ

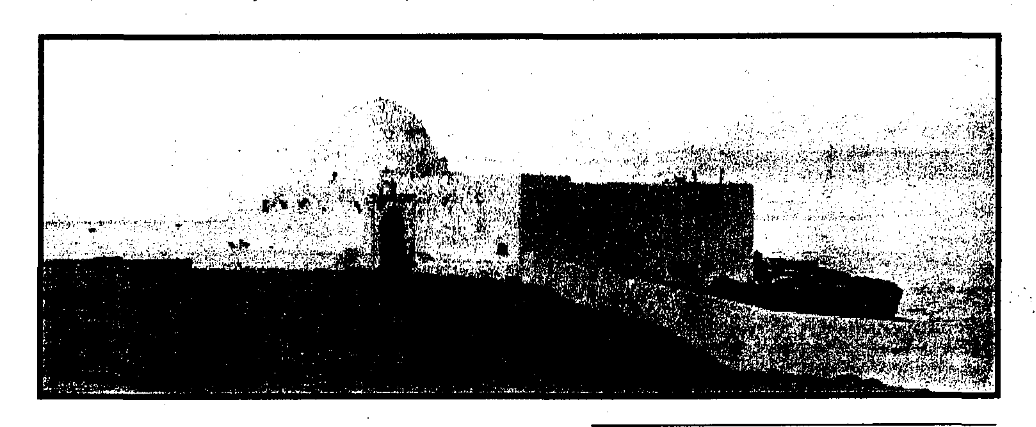
«قَاطُـــونَ أُوتِيكَةَ»[9] انْصَرِفْ وَكُنْ حَذِرًا

«تَبْسُوسُ»[10]إِنْ دُحِرَتْ، تَشْقَى بِمَحْذُورِ

«بُومْبُوسُ»لَمْ يَنْتَحِرْ،بَلْ فَرَّ مُنْهَزِمًا هَلْ تِلْكَ مِنْ شِيمَةِ الْغُرِّ النَّحَارِيرِ!؟

أَنْتَ الرِّوَاقِيُّ! لاَ! لَمْ تَنْخَزِلْ أَبَدًا فَلْتَنْـــتَحِرْ شَمَمًا مِنْ دُونِ تَأْخِـــيرِ!

فَالْمَوْتُ فِي عِزَّةٍ لِلنَّفْسِ أَهْوَنُ مِنْ عَيْشٍ لِمُنْكَـــسِرٍ فِي الْقَيْدِ مَأْسُورِ



(8) «القناطير» إشارة إلى القناطير القديـــمة المشار إليها في كتب المؤرخين.وقد تكون آثارها إلى الآن بالمطار الدولي بسقانص على ما يذكره البعض من سكان المنطقة ؛ ولعلها بعض القناطير التي كانت على الوادي المالح قبل تحويل مَجراه في أشغال تهيئة المطار الدولي(م.1). (9) «قاطون أوتيكة» هو «Caton d'Utique» كان واليا على «أوتيكة» وهو من أنصار «بومبوس» على «قيصر» وحاربه بواقعة «تبسوس» فلما انهزم «بومبوس» اتكأ «قاطون» على سيفه حتى مات منتحرا على طريقة الرواقيين «Les Stoïciens» في رباطة الجأش.(م.16 و 12). (10) «تبسوس» هي «رأس ديماس» بـــ«البقالطة» حيث ضرب «يوليوس قيصر» أعداءه الضربة القاضية. (م.12).

روسبينا القيصرية

يَا أَيُّهَا الرُّومُ «رُوسْبِينَا» مَـــدِينَـــتُكُمْ ... إنْ عَـــزَّهَا «قَيْصَرٌ» مَجْدُ الْقَيَاصِـــيرِ

فَقَدْ أَقَـــامَتْ لَكُمْ فَـــخْـــرًا بِنُصْرَتِهَا ... إِذْ أَلْبَـــسَتْ «قَيْصَرًا» تَاجَ الأَبَـــاطِيرِ

«يُولْيُوسُ» لَمْ يَكُـــنِ الأَوْلَى بِنُصْرَتِهَا ... لَوْ لَمْ تَكُنْ وَثِقَتْ بِالنَّـــصْرِ وَالْخِيرِ

وَكَانَ يُمْكِنُهَا نَصْرُ الْخُصُـــومِ، فَقَدْ ... عَـــزَّتْ بِمَوْقِـــعِـــهَا عَلَى الْمَغَاوِيرِ[1]

لَكِـــنَّـــهَا فَضَّلَتْ «يُولْيُوسَ» تَنْصُرُهُ ... لِطِيبِ عُنْـــصُـــرِهِ ، وَ حُـــسْنِ تَدْبِيرِ

وَالآنَ قَدْ أَصْبَحَتْ مِنْ بَعْضِ مَوْطِنِكُمْ ... فِي حِفْظِهَا حِفْظُكُمْ مِنْ كُلِّ مَحْذُورِ

فَارْعَـــوْا لَهَا حَقَّـــهَا فِي كُلِّ مَفْخَرَةٍ ... لاَ يَبْـــخَسُ الْـــشَّهْمُ مَا عِنْدَ النَّحَارِيرِ

فَالعِـــزُّ عِزَّتُكُمْ ، وَالذُّلُّ ذِلَّـــتُـــكُمْ ... وَالْكُلُّ مُحْـــتَسَبٌ طَيَّ الدَّفَاتِـــيرِ[2]

فَشَيِّدُوا وَ بَـــنَـــوْا مَا كَـــانَ عِزَّتَهَا ... فِيمَا أَتَى بَعْـــــدَهُمْ مِنَ الأَعَاصِيرِ[3]

(1) «الْمغاوير» جَمع مِغوار (مِفعال)وهو كثير الإغارة ، يقال بطل مغوار وأبطال مغاوير. (2) «الْدفاتير» الْمقصود بها التاريخ الْمسجّل.(3) «الأعاصير» جَمع «أعصُر» الذي هو نفسه جَمع قلّة لـــ«عَصْر» أي الفترة من الزمن.وجُموع القلّة تُجمع على صيغة منتهى الْجموع. وسيعترضنا هذا الْجمع في عدّة مواضع أخرى.

تنازع الرومان

اَلْمَوْتُ حَقٌّ وَ لَكِنَّا نُبَاعِدُهُ   تَدُورُأَيَّامُنَا دَوْرَ النَّوَاعِيرِ

حَتَّى إِذَا مَا أَتَى أَلْفَيْتَ سَائِرَنَا   مَا بَيْنَ مُنْقَطِعِ الْقَلْبِ وَمَذْعُورِ

وَإِنَّهُ قَدَرٌ لاَ يَنْثَنِي أَبَدًا   عَنْ سَيْرِهِ بِحِجًى أَوْ طُولِ تَفْكِيرِ

«يُولْيُوسُ»مَاتَ فَسَادَالْخُلْفُ فِي خَلَفٍ   بَيْنَ الْحَفِيدِ وَ أَصْحَابِ «التِّرَنْفِيرِ»

مَاكَادَ«أُكْتَافُ»[1]يُنْهِي جَمْعَ فُرْقَتِهَا   حَتَّى انْبَرَى قُدُمًا يَسْعَى لِتَطْوِيرِ

لَكِنَّ بَرْبَرَهَا لَنْ يَرْضَخُوا فَلَقَدْ   ذَاقُوا الأَذَى زَمَنًا مِنْ ذَلِكَ النِّيرِ

هُمُ «الأَمَازِيغُ»[2]مِنْ صَحْرَائِهَا رَضَعُوا   دَرَّالشَّهَامَةِ مِنْ شُمٍّ النَّحَارِيرِ

لاَيَصْبِرُونَ عَلَى ضَيْمٍ أَصَابَهُمُ   وَيَصْبِرُونَ عَلَى جُوعِ الْبَوَاقِيرِ[3]

لاَ يَرْكَعُونَ لِمَنْ يَرْجُو مَذَلَّتَهُمْ   حَتَّى وَلَوْ سَقَطُوا فِي شَرِّ تَخْسِيرِ

يَهُونُ عِنْدَهُمُ الْغَالِي إِذَا غَضِبُوا   وَيَصْبِرُونَ لِمَا فِي الْحَرْبِ مِنْ ضِيرِ

---

(1) إشارة إلى الْخلف الذي وقع بين الترمفيرات الثلاثة ومنهم «أوكتاف» حفيد «يوليوس قيصر».(م.12). (2) «الأَمَازِيغُ» هم البربر على حد تعبيرهم ومعناه الأسياد الأحرار وبعضهم يرجعهم إلى العرب العاربة من اليمن.(3) البواقير جمع باقور وهو جماعة البقر وجوع البواقير هو الجوع الشّديد.

حروب العصابات

«فرْيُوسُ»[1]إنْ يَنْتَصِرْ فِي جَوْلَة فَلَدَى «تكْفَارنَاسَ»[2] أَفَانِينُ الْمَخَاطِيرِ

حَرْبُ الْعِصَابَات لاَ يَسْتَطِيعُهَا أَبدًا جَيْشُ النِّظَامِ، وَلاَ جَيْشُ انبرَاطُور

وَالذُّعْرُ يُفْنِي جُيُوشًا مَا لَهَا عَددٌ وَالرُّعْبُ عُدَّةُ مَنْ لَيْس بِمَقْهُورِ

فِي الْبِيدِ غَازِيَةٌ...فِي الْبَحْرِ قَرْصَنَةٌ أَيْنَ الأَمَانُ أَيَا«رُومَا»الأَسَاطِيرِ؟

وَالنَّاسُ قَدْ ضَجَرُوا مِنْ دَفْعِ مُهْجَتِهِمْ لِلْمَوْتِ وَالأَسْرِ مِنْ رُومٍ وَمِنْ مُورِ[3]

(1) «فريوس» هو القائد (Furius Camillus) الّذي تغلّب في الْمواجهة على «تكفاريناس» (2) «تكفاريناس» البربري الثائر الذي لَجأ إثر الْهزيمة أمام «فريوس» إلى «حرب العصابات» (م.12). (3) «الْمور» (Maures)هم جيل من الناس سكن «شَمال إفريقيا» قد يكونون من «الأمازيغ» أو فرقة منهم، والنسبة إليهم «موريسك» «Maurisque» وبِهم تسمّت « موريطانيا». وما زالت تنسب إلى هذا الإسم بعض الأشياء كالْحمَّام Bain maure لأن الأوروبيين عرفوه عن طريق «شَمال إفريقيا»، والْمقهى التركي Café maure. والكلمة في مقصدها لا تَختلف كثيرا عما يدرسونه اليوم مِمّا يسمونه بالفن الْموريسكي.

ظهور الْمسيحية

«عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ» نَادَى: (اللَّهُ رَبُّكُمُ) لاَ تَرْكَنُوا أَبَـــدًا لِلإِفْــكِ وَالــزُّورِ
هَـــــذَا خَلاَصُــكُمُ قَدْ بَاتَ مُرْتَقبًا هَيَّا اقْدمُوا وَاسْمَعُوا أَحْلَى التَّبَاشِيرِ
وَاتْــلُــوا صَلاَتَكُمُ وَانْسُوا شَقَاوَتَكُمْ هَيَّا انْشدُوا مَعَهُ سِــفْرَ الْمَزَامِــيرِ
مَنْ يَزْرَعِ الشَّوْكَ لاَيَحْصدْسوَى حَسَكٍ وَ يُكْشَفُ السِّرُّ فِي دَرْسِ الْبَيَادِيرِ
رُدُّواالْحُــقُوقَ إِلَى أَصْحَابِهَا وَذَرُوا مَنْ جَارَ يَحْصدُ مَا يَأْتِي مِنَ الْجُورِ
لاَ تَرْكَــعُوا أَبَــدًا إِلاَّ لِخَــالِــقِكُمْ مَا كَانَ ظَالِمُكُمْ يَوْمًا بِمَــبْــرُورِ
وَالْمَوْتُ أَهْوَنُ مِنْ عَيْشٍ عَلَى مَضَضٍ فِي ظِــلِّ طَاغِيَةٍ فِي شَكْلِ «أَمْبِيرِ»
وَ«الْجَاذِلِيقُ»[1]إِذَا لَمْ يَسْتَــقِمْ فَلَكُمْ «دُونَا»[2] يُعَلِّمُكُمْ سِرَّ الْمَقَاصِــيرِ

(1) «الْجاذليق» أو «الكاثوليك» هي الكنيسة الرومانية التي تعطي الْحقّ للإمبراطور في التصرّف اللامَحدود «اعطوا لِلّه ما لِلّهِ ، واعطوا لقيصر ما لقيصر» ومنها قسموا الْجاه والسلطة: السلطة الدينية والسلطة الزمنية ،فجعلوا السلطان شريكا لِلّه فِي ملكه أو أنّ اللّه لا يَملك الدنيا تعالى عن ذلك علوّاكبيرا. (2) «دونا» هو أسقف «قرطاج» وقد ثار ضدّ الكنيسة الرومانية وابتدع مذهب الدوناتية الذي لايقرّ بأن ما لقيصر لقيصر بل الكل لِلّهِ وحده. لذلك حاربته الكنيسة الكاثوليكية ، ووجد صدى في الأوساط الشعبية بــ«إفريقية التونسية».(م.12و16).

ظهور الزيغ

اَلْحُكْمُ لِلَّــه لاَ«أَمْــبِيرُ» يَجْـهَــلُهُ أَوْ مَنْ سَطَا بَطَرًا منْ«آل سيــفير»[1]
وَ«سِبْرِيَانُسُ»[2] قَدْ ضَــحَّى بِثَــرْوَته فِي عفَّة وَنَقَاوَة وَ تَطْــهِــير
لِعَــوْنِ مُــضْــطَهَد في دينه وَمَرِيــض قَدْ نَــسُــوهُ لِطَاعُون وَكُولــير
منْ بَعْد مَاحَادَت الأَفْكَارُ وَارْتَكَسَتْ فِي غَفْــلَــة سَدَرَتْ منْ دُون تَفْكير
وَالنَّاسُ قَدْ خَرَجُوا عَنْ دينهمْ وَ غَوَوْا وَ بَالَغُوا فِي زَخَاريف وَتَــعْطــير
فِي عِرْضِ رُهْبَانِهِمْ بِالْقَوْلِ قَدْ وَقَعُوا رَمْيًا بِإِفْــك وَتَنْــجِيــس وَتَعْــهِير
مَا كَانَ بُهْــتَــانُهُمْ تَلْفِيــقَ مُنْــتَقد وَالطَّقُّ فِي الْبَيْضِ مِنْ شَقٍّ وَتَكْسِير[3]
فَالْقَوْمُ لَمْ يَنْجَحُوافِي كَبْتِ أَنْفُــسهِمْ عَنْ رَغْــبَة خُلقَتْ منْ أَجْلِ تَــعْمير
أَوْ مِنْ دَنَانِيرَ بِالأَلْــبَــاب كَمْ لَعبَتْ لَمْ يَنْــجُ منْ سحْرِهَا أَعْتَى الْجَبَابِير
وَدَاسَ«دَاسُ»[4]الْوَرَى فِي دِينِهِمْ وَسَطَا يَسُومُــهُمْ فِي الأَذَى كَيْلَ الْقَــنَاطِير
وَضَايَقَ الْقُسَّ فِي أَعْــمَاله ، وَنَأَى ذَاكَ الشَّــرِيفُ بِتَغْرِيب وَ تَهْجِــيــر
وَارْتَدَّ مَنْ ضَعُــفَتْ فيه عَــقيــدَتُهُ وَقَامَ «نُوفَا»[5] بِتَــسْهِــيلِ التَّكَافِــير
أَغْرَى الأَنَامَ بِفِعْــلِ الإِثْمِ مُرْتَــمِيًا فِي مَهْــمَه الْخُــلْف منْ جَبْرٍ وَتَخْيِير
أَفْــتَى لَــهُمْ بِجَــوَازٍ أَنْ يُبَارِكَهُمْ مُدَنَّسُ الذَّيْلِ مِنْ إِثْــمٍ وَمِــنْ زُورِ

---

(1) «آل سيفير» هم أسرة الأباطرة الذين حكموا البلاد في القرن الثالث للميلاد Sévères.(م.12). (2) «سبريانس» هو القديس Cyprien أسقف «قرطاج» سنة 249 م.(م.12). (3) إشارة إلى مثلنا الشعبي «العظمة ما تقول طق إلاّ ما فيها شق». (4)«داس» هو الإمبراطور «داس Dèce» الذي تفنّن في التعذيب والإضطهاد.(م.12). (5) «نوفا» هو القس Novat الذي أسس بدعة أن الْمدنس يُمكنه أن يُحافظ على مركزه الديني ولو دون توبة لأن التبريك للمسيح ولا يهم من يقوم به ، وكذلك يرى أن الذّنوب تكفّر دون حاجة لتوبة ويكفي شراء شهادة في التضحية (م.16و 12).

لأَنَّ تَبْرِيكَــهُمْ فِي الْحَقِّ لَيْــسَ لَــهُ بَلْ لِلْمَسِيحِ جَرَى عَلَى يَــدِ الْغيرِ
فِي الدِّينِ لَمْ يَرْضَ«سِبْرِينٌ»[2] بِهَرْطَقَةٍ تَلاَعُــبًا بِمَصَالِحِ الْجَمَاهِــيرِ
لَكِنْ «كَــنِيسَةُ»رُومَا لَــيْسَ يُعْجِبُهَا رَأْيُ الأَفَــارِقِ فِي تِلْــكَ التَّدَابِيرِ
مَا اسْتَــنْكَفَتْ مِنْ مَكِيدَاتٍ تُدَبِّرُهَا وَاغْتَالَتِ الْــقُسَّ سِرًّا دُونَ تَشْــهِيرِ

موقف روسبينا

مَا هَــكَذَا قَالَ «عِيسَى» فِي بَشَائِرِه ... مَاذَا جَرَى يَا تُــرَى،فِي تِلْكُمُ الدُّورِ؟
اَلْحُكْمُ لِلَّه ، لاَ لِلْــقُــسِّ يَصْــرِفُهُ ... فَاسْتَعْجِمِي الأَمْرَ تَــوًّا دُونَ تَأْخِــيرِ
هَــذَا الْخَرِيفُ أَتَى وَالرِّيحُ عَاوِيَــةٌ ... تَنْعَى عَـــزِيزًا عَلَى بَوَّابَةِ الـــدِّيــرِ
«سِبْرِينُ»مَاتَ بِأَيْدِي الْغَدْرِ فَارْتَقِبِي ... نَكْــثًا لِمَا غَزَلُوا،يَا شَـــرَّ تَــدْبِيرِ!
لَيْــسَتْ دِمَــاؤُهُ قُــرْبَانًا يُخَلِّصُهُمْ ... مِنْ إِثْمِهِمْ بَلْ رَدًى فِي قَعْرِ سَاعُورِ[1]
سَوْفَ يُبَكِّــتُهُمْ رَبُّ السَّمَاءِ عَلَى ... دَيْنُــونَةٍ وَعَــلَى قَــتْلِ الْمَــغَادِيــرِ
«رُومَا» الشَّقِيَّةُ خَانَتْ فِي مَوَدَّتِهَــا ... وَالرَّأْيُ، يَا بَــلَــدِي ! نَصْرُ الْبَــرَابِيرِ
مُحَاوَلاَتُ«دِيُكْلِيسَانَ»[2] لَوْنَجَحَتْ ... لَكَانَ هَــذَا «الْمُزَاقُ»[3]غَــيْرَ مَعْبُورِ
لَكِنَّهُمْ عَبَرُوا فِي غَيْــرِ مُعْــضِــلَةٍ ... وَانْتَــهَــبُوا مُــدُنًا مِنْ غَيْــرِ تَنْــفِيرِ

(1) سَاعُور هي النّار (والبيت كلّه تذكير بعقيدة نصرانية من أن دم المسيح المسفوح بُذل لخلاص الناس من الخطيئة)
(2)«ديكليسان» Dioclétien هو امبراطور القرن الثالث الذي حاول بعض الإصلاحات.(م.12). (3) «الْمُزاق » Byzacène وهي منطقة الوسط التونسي (الساحل والوسط الغربي).(م.12).

السلاح الأخضر

«جِلْدُونُ»[1] ثَارَ عَلَى الطُّغْيَانِ مُمْتَشِقًا أَقْوَى سِلاَحٍ.. سِلاَحِ الْجُوعِ وَالْمِيرِ

لَوْ أَمْسَكَ الْقَمْحَ عَنْ رُومَا وَ جَوَّعَهَا؟ وَجَوِّعِ الْكَلْبَ يَتْبَعْكَ عَلَى الضَّيْرِ[2]

أَيَأْكُلُ الْقَمْحَ أَسْيَادٌ ، وَ زَارِعُهُ جُوعًا يَمُوتُ وَحَتْفًا غَيْرَ مَشْكُورِ؟

الْقِنُّ أَوْلَى، فَدَعْ «رُومَا» يُنَازِعُهَا الْجُوعُ ، وَ هَاتِ الْقُمُوحَ لِلْجَمَاهِيرِ

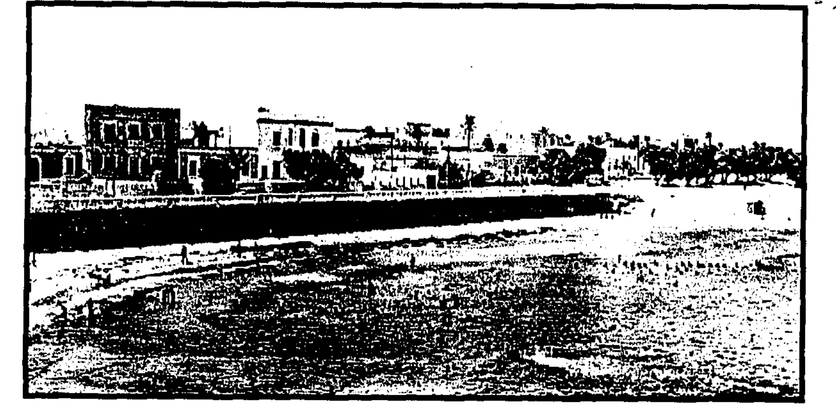
وَدَعْ مُجَوِّعَهَا يَشْقَى بِغُصَّتِهِ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَرْتَدِي جِلْبَابَ مَقْهُورِ

فِي الْقَيْدِ يَرْسُفُ، لاَ تُنْجِيهِ مَرْتَبَةٌ قَدْ حَازَهَا آنِفًا بِالْمَكْرِ وَالزُّورِ

«قُسْطَنْطِينِيَّةُ»[3] مَاذَا تَأْمُلِينَ وَقَدْ كَفَاكِ«جِلْدُونُ» فِي«رُومَا»الأَبَاطِيرِ

وَالْبُرُّ مِنْ«مِصْرَ» تَأْتِيكِ سَفَائِنُهُ وَجُوعُ«رُومَا» أَتَى أَحْلَى التَّقَادِيرِ

وَالْمُلْكُ فِي الشَّرْقِ أَرْكَانٌ لَهُ رَسَخَتْ وَالْغَرْبُ قَدْ هَزَّهُ «جِرْمَانُ بَافْيِير»[4]



(1) «جلدون» Gildon القائد البربري الثائر في القرن الرابع.(م.12). (2) إشارة إلى المثل العربي (جوّع كلبك يتبعك). (3) إشارة إلى قيام الدولة البيزنطية ومنافستها لــ«روما». (4) «بافيير» هو إقليم «بافاريا» Bavière هي المقاطعة الأوروبية التي خرج منها الجرمان على «روما» ومن غريب الصدف أنه نفس المكان الذي انعزل فيه «أدولف هتلر» للتخطيط لهجوماته على أوروبافي الحرب العالمية الثانية.(م.16).

نهاية الرومان

مَا مَاتَ«جِلْـدُونُ»حَتَّى قَامَ يَحْكُمُهَا «هِرَقْلِيَانُ»[1] وَيَعْـصِي أَمْرَ«آلِيرِ»[2]

«هِرَقْلِـيَـانُ!» أَلَمْ تَسْمَعْ حَدِيثَهُمُ أَوْ تَرْتَجِي مِـنْهُمُ بَعْضَ الْمَنَاصِيرِ؟

«هُونُورِيُوسُ»[3]ضَعِيفٌ كَيْفَ تَنْصُرُهُ؟ مَا تَرْتَجِي مِنْ مَلِيكٍ جِدِّ مَقْـهُورِ؟

فَاخْـرُجْ إِلَيْهِ وَلَكِنْ لَسْتَ مُنْتَصِرًا!؟ «آلِيرُ» مَـاتَ، وَبُـؤْتُمَا بِتَخْـسِيرِ

يَا«بُونِفَاسُ»[4] تَهَـيَّـأْ وَاحْتَمِلْ ثِقَلاً وَنْدَالُـهُمْ وَصَلُوا مِنْ أَرْضِ «إِيبِيرِ»

وَ«جِنْسَرِيقُ»[5]يَقُودُ الْجَيْشَ فِي عَجَلٍ لَمْ يَنْتَظِرْ آمِرًا لِلْحَثِّ بِـ«الْكُورِ»[6]

(1) «هرقليان» هو Héraclien le comte d'Afrique والي الرومان على «إفريقية» .(م.12). (2) «آلير» هو Alaric قائد الغجر الذين زحفوا على «روما» سنة 410 م.(م.12). (3) «هونريوس» Honorius آخر أباطرة «روما» قبل الغزو الوندالي. (م.12). (4) «بونفاس» Boniface آخر كومت روماني بـ«قرطاج». (م.12). (5) «جنسريق» «Genséric» ملك الوندال الذي وصل إلى «إفريقية».(م.12). (6) «الكور» هو الْجواد السريع .

روسبينا في عهد الرومان

عِيشِي بِزَيْتِك «رُوسْبِينَا!» فَمَرْهَمُهُ سِحْرٌ، وَمَصْـرِفُهُ لِلأَكْلِ وَالـنُّورِ
مِينَاؤُكِ الزَّاهِرُ الْمَـوْقُورُ أَمْـتِـعَةً هَذِي سَفَـائِنُهُ تَخْـتَـالُ كَالْحُورِ
فِي حَمْلِهَا فَائِضُ الأَقْوَاتِ يَجْعَلُهَا تَكْفِيـكَ شَرًّا وَ فِعْلاً غَيْرَ مَـبْرُورِ
وَالصُّـوفُ يُنْسَجُ أَثْوَابًا مُزَرْكَشَةً بِالأُرْجُـوَانِ صِبَاغًا غَيْرَ مَـوْفُورِ
وَالْمَـالُ فِي دَوْرَةِ الأَرْزَاقِ مُنْتَقِلٌ بَيْنَ الشُّـرَاةِ وَ مَا بَيْنَ السَّمَاسِـيرِ
وَالنَّاسُ يَسْعَوْنَ فِي حَزْمٍ وَفِي مَرَحٍ مِنْ أَمْنِهِمْ رَكِـبُوا أَبْـهَى الْمَيَاثِيرِ[1]
دِيمَاسُهَا[2] لِعُضَالِ الدَّاءِ قَدْ وَصَفُوا مِـنْ قَبْـلُ ، جَاءَ بِآثَارِ الْبَـيَاطِيرِ
وَالطِّفْلُ يَلْـقَى بِدِيرِ الْخَيْـرِ تَرْبِيَةً عِلْـمًا يُلَقِّنُهُ مِـنْ «لِتِّـرَاتُـورِ»[3]
خَطًّا، حِسَابًا ، وَتَارِيخًا، وَتَهْجِـئَةً حَتَّى يَصِيرَ فَـتًى مِنَ الـشَّوَاطِـيرِ
فَيَرْتَقِي لِـدُرُوسِ النَّـحْوِمِنْ أَدَبٍ لَدَى «النُّـحَاةِ»[4] وَتَصْرِيفٍ وَتَعْبِيرِ
«فِرْجِيلُ»فِي الشِّعْرِمَطْلُوبٌ دِرَاسَتُهُ وَ«شِيشَرُونُ»وَ«أَنْيُوسٌ» بِلاَ مُورِ[5]
إِنْ أَنْتَ لَمْ تَرْقَ فِي التَّعْلِيمِ مُجْتَهِدًا لاَ تَعْجَبَنْ إِنْ أُهِنْتَ دُونَ تَـقْدِيرِ
رِيَاضِيَاتٌ لِـ«ـفِيثَاغُورَ» تَذْكُرُهَا وَهَنْـدَسَـاتُ الأَسَاتِيذِ النَّحَارِيرِ
تِلْكَ السَّمَاءُ، بِهَا أَفْلاَكُهَا بُـرُجٌ[6] هَـلاَّ عَـرَفْتَ بِهَا نَجْمَ النَّوَاظِيرِ؟

(1) «الْمياثير» جمع مياثر وهي السروج الوثيرة (2) «الديـماس» هو الْحمّام الساخن Bain maure. (3) «لتّراتور » Litterator وهو معلّم الأطفال أو إن أردنا معلّم الْحروف. (م.12). (4) «النحاة » Les grammairiens وهم أساتذة الدرجة الثانية.(م.12). (5) «الْمَوْرُ» هنا من المراوغة والدوران أي بدون لعب أو خداع وهو كناية عن جدّيّة الأمر. (6) «بُرُجٌ» ظاهرة بارزة من بَرَجَ يَبْرُجُ بُرُوجًا← (البرج والبروج والأبراج) .

وَالْفَلْسَــفَاتُ أَلَمْ تَــدْرُسْ بِهَا فِكَرًا مِنْ فَيْضِ«أَفْلُوطِنِ»أَوْ«أَكْسِمَنْدِير»؟

وَالشِّعْرُ قَدْ بَاتَ فِي الأَسْمَاعِ مُتَّــزِنًا فَانْــسِجْ عَلَيْه، وَقُلْ فِي غَيْرِ تَقْصِيرِ

«إِسْكَنْدَرِيًّا» وَ«تَثْمِينًا» وَ «تَعْشِرَةً»[7] وَاجْعَــلْ غِنَاءَكَ مَــزْمُورَ الْحَنَاجِيرِ

عَنِ«الْبَلِــيغِ»[8] فَخُذْ بَلاَغَةً وَحِجًى حَتَّى تَــفُــوزَ بِأَلْقَابِ الْمَشَاهِــيرِ

وَكُنْ خَطِيبًا بَلِيــغًا، مِصْقَــعًا، أَلِــقًا تَفُزْ بِمَا تَشْتَــهِي عِنْدَ الْجَمَــاهِيرِ

هَذِي الْمَسَارِحُ قَدْ قَــامَتْ بِهَا نُخَبٌ تُمَارِسُ الْفَنَّ فِي أَجْلَى التَّــعَابِيرِ

أَعْمَالُ«تِيرَنْــسَ»[9] لاَ تُنْسَى مَقَالِبُهَا فِي مَسْرَحِ الْهَزْلِ لَيْسَتْ بِالْمَهَازِيرِ[10]

وَنُخْبَــةٌ نَذَرَتْ لِلْحَــقِّ أَنْفُــسَهَا وَلِلتَّــصَوُّفِ خُصَّتْ بِالْمَقَاصِيرِ[11]

رَاجَتْ لَهُمْ طُرُقٌ فِي الأُفْقِ قَدْ نُشِرَتْ مَا زَالَ أَتْبَــاعُــهَا فِي كُلِّ مَعْمُورِ

وَالْمَكْــتَــبَاتُ بِهَا فِي كُــلِّ نَاحِيَةٍ حَوَتْ نَفَــائِسَ مِنْ أَعْلَى التَّــحَارِيرِ

وَهَكَذَا كُنْتِ «رُوسْبِــينَا!» مِهَادَ عُلُو مٍ دَائِمًا مُنْــذُ أَقْــدَمِ الأَعَاصِــيرِ

«قَامَانَةً»[12] كُنْتِ فِي دُنْيَا الْفُنُونِ وَفِي «تُوجٍ»[13] رَقِيتِ إِلَى أَعْلَى الْمَــنَابِيرِ

قُدِّسْتَ يَا بَــــلَدِي فِي كُلِّ مَنْــزِلَةٍ عِنْدَ الْعَوَامِّ وَ أَهْــلِ الْعِلْــمِ وَالنُّورِ.

---

(7)«الإِسْكَنْدَرِي»(Alexandrain)هُوالوزن الكامل الذي يبلغ شطره اثنتي عشرة رجلاً،وَ«التَّثمين» (Octosyllabe) هو صياغة البيت من ثمانية أرجل فقط مثل بعض أناشيد فرجيل ،وَ«التَعْشرَة» (Décasyllabe)هي صياغة البيت من عشر أرجل. (8) «البلغاء» Les rhéteurs وهم أساتذة الدرجة العليا.(م.12). (9) «تيرنس»الكاتب المسرحي الإفريقي القرطاجي عاش بين190و159 قبل الميلاد وعرضت مسرحياته بين 166 و160 قبل الميلاد. (10)المهازير (جمع مهزور) : المغبون. (11) «الْمقاصير» هي الغرف الْمنقورة بالْجزر (الْحوانيط) وقد استعملت للإنقطاع والرهبنة (وهو التصوّف على الأفلاطونية الْحديثة). بعد أن كانت في الأصل لطقوس جنائزية . (12) «قامانة» Camène وهي الْجنية الْموحية بالفن والإبداع وهي التي سُمّيت فيما بعد (Muse).(م.16). (13) «التوج» Toge الكساء الفضفاض الذي يلبسه الأساتيذ الْمبرزون.(م.12).

عهد الوندال

يَا«جنْسَريقُ!» تَرَفّـَقْ! هَـذِه بَلَـدٌ قَدْ شَادَت الْمَجْدَ بالْـغُرِّ الْمَغَاوِير
لَمْ يَـقْضِ تَرْوِيمُهَا[1]عَلَى حَضَـارَتِهَا بَلْ زَادَهَا أَلَقًا ،كَـالْكُحْلِ لِلْحُورِ
لَيْسَتْ «لِرُومَا»!وَلَكِنْ لَسْتَ تَقْهَرُهَا. فَانْزِلْ عَلَى سعَة وَاظْـفرْ بِتَبْـشِيرِ
تَحْمِيكَ مِنْ«غَجَر»[2]قَدْذُقْتَ بَأْسَهُمُ وَلْتَفْتَـتِحْ صُحُفًا فِي غَيْرِ تَـغْرِيرِ
هَذِي الْجَزِيرَةُ[3] خُذْهَا مَحْرَسًا وَ بِهَا رَكِّـزْ طَـلائِعَ مِنْ غُـرٍّمَخَـاتِيرِ
وَاجْعَلْ بِهَا حَرَسًا يَحْمِيكَ مِنْ لُجَجٍ لَمْ تَنْحَصِرْ أَبَدًا فِي أَيِّ تَـقْـدِيرِ
إِنَّ الْبَرَاعَـةَ قَـدْ تَخُونُ صَاحِـبَهَا إِنْ لَمْ تَكُنْ صَدَرَتْ عَنْ حُسْنِ تَدْبِيرِ
فَالرُّومُ فِي الشَّرْق لَمْ يَسْنَحْ لَهُمْ عَمَلٌ لِيَهْزِمُـوكَ، وَلَكِنْ لَـسْتَ فِي خَيرِ
تَثْلِيـثُـهُمْ خَطَأٌ، لَكنَّـهُمْ بَرِعُوا فِي كَـرْزِهِمْ جَـعَلُوا شَتَّى الْمَعَاذِيرِ
وَ«الْجَاذلِيقُ»يَسُوقُ النَّاسَ يَحْشُدُهُمْ لِـيَبْـغَـضُـوكَ بِتَجْهِيلٍ وَ تَكْفِيرِ
لَكِنَّ مَسْأَلَةَ «الأَرْيُوسِ»[4] مَا نَفَعَتْ وَ قَدْ عَزَوْهَا لِتَخْرِيبِ وَتَـدْمِـيرِ
فَاحْذَرْ إِثَـارَةَ مَنْ لَمْ يَرْهَبُوا أَبَـدًا مِنْ جَيْشِ حَامِـيَةٍ أَوْ حُكْمِ «أَمْبِيرِ»
أَوْ تَخْسَرِ الْكُلَّ فِي غَارَاتِهِمْ ، وَلَقَدْ خَبَـرْتَ بَأْسَهُمُ فِي غَيْـرِ تَكْوِيـرِ
لَوْكَوَّرُوا جَمْعَهُمْ فَالْمَوْتُ خَادِمُهُمْ لَمْ يَرْهَبُوا أَبَـدًا خَوْضَ الْمَخَاطِـرِ

(1) «الترويم » أو«الرومنة»هي لفظة مستحدثة مثل«تعريب»و «تونسة» و«وأوربة» و«عولَمة» و«أمركة» وهي صبغة كلّ شيء بالطابع الرومي أو الروماني الغالب. (2) «الغجر» هم «الفيزيقوت» Wisigoths الذين كانوا ينافسون الوندال بإسبانيا ويقلقون استقرارهم لأنهم رحّل. (م.12).(3) هي «جزيرة الغدامسي»وبها قبور «الوندال» إلى الآن.(م.حفريات قصر ابن الْجعد). (4) «الآريوس» هو Arius وهو مؤسس الْمذهب القائل بعدم التثليث وعدم ألوهيّة الْمسيح، وأتباعه هم الأريسيون les ariens. (م.16).

وَالْغَزْوُ لاَ يَنْـفَعُ الأَبْطَالَ إِنْ فَقَدُوا شَعْبًا يُـؤَازِرُهُمْ حَتَّى بِتَـوْقِـيرِ
لَكِنَّمَا الْجَـشَـعُ الْمَمْقُوتُ يَغْلِبُنَا يَرْمِي بِنَا صَـلَـفًا فِي قَعْرِ مَطْمُورِ
فَابْحَثْ لَكَ الآنَ عَنْ حِصْنٍ يَرُدُّهُمُ إِذْ لَمْ تُحَاذِرْ مَضَـاغِينَ الْبَـرَابِيرِ
وَالْغَـزْوُ يَـزْرَعُ أَحْقَادًا وَمَوْجِدَةً لَنْ تَمَّحِي أَبَدًا مِنْ ذِهْنِ «كُلْتُورِ»[5]
لَنْ تُفْلِحَ الْيَوْمَ فِي تَخْضِيدِ شَوْكَتِهِمْ وَلاَ بَنُوكَ يَـرَوْا غَيْرَ الْفَـوَاقِـيرِ
مَاذَا وَرِثْتَ «هُنَيْرِيقُ»[6] بِلاَ حَسَـدٍ مُلْكًا مُقَامًا عَلَى قَـتْلٍ وَ تَـدْمِيرِ
وَ«هِلْدَرِيـقُ»[7] يَرَى بَنِي عُمُومَتِهِ مَا بَيْنَ مَنْ غُدِرُوا أَوْفِي الْمَـنَاحِيرِ
إِنْ مُتَّ مِنْ كَمَدٍ فَالْمُلْكُ يَأْخُـذُهُ لِـ«ـجُنْدَمَنْدَ»[8] تَقَالِيدُ الْبَوَاكِيرِ
وَ«جُنْدَمَنْدُ» ضَعِيـفُ الرَّأْيِ مُفْتَقِرٌ لِمَنْ يُجَنِّـبُهُ مَكْـرَ الأَحَـافِـيرِ
«تِرَاسَمُنْدُ»[9]! تَرَفَّقْ لاَ تَكُنْ عَجِلاً إِنَّ الـتَّعَـصُّبَ مِنْ أَشْقَى التَّدَابِيرِ
وَانْظُرْ لِعَرْشِكَ «قَابَاوُونُ»[10] زَعْزَعَهُ فِي وَقْعَةِ النَّحْسِ نَكْرَاءِ الْمَنَاكِيرِ[11]
لَوْلاَ حَصَانَةُ «رُوسْبِينَا»[12] وَ مَوْقِعُهَا لَكُنْتَ مُنْطَرِحًا بَـيْنَ الْمَعَـافِـيرِ

---

(5) «كلتور» Cultor وهو الفلاّح.(م.12). (6) «هنيريق» Hunéric هو ابن «جنسريق» الذي ملك من 477 م إلى 484 م.(م.12و 14).(7) «هلدريق» هو ابن «هنيريق» الذي لم يصل إليه الملك إلا بعد أبيه بمدة وخلعه ابن عمه «جلمار».(م.14). (8) «جندمند» هو خليفة «هنيريق» وإن لم يكن ابنه لأنه كبير العائلة وهذه أحكام تقاليد البكورة.(م.14). (9) «تراسَمند» هو خليفة «جندمند» وقد كان رغم ثقافته الواسعة متعصبا للأريسيين.(م.12و14). (10)«قاباوون» قائد البربر في «طرابلس» الذي هزم «تراسَمند» وطارده حتى بــ«روسبينا». (م.12و14).(11) هي واقعة «طرابلس» بين الوندال و«لواتة» حيث هزم الوندال وتعقبتهم «لواتة» إلى«روسبينا». (12) إشارة إلى التجائه إلى «روسبينا» وتمكنه من الرجوع إلى «قرطاج» ، و«روسبينا» من المدن القلائل التي لم يهدم الوندال سوارها.(م.14).

يَا«هلْـــدَرِيقُ» أَمَا يَكْـــفِيكَ مَهْــزَلَةً أَنْ تَتْرُكَ الْجَيْش فِي أَيْدِي«عُوَيْمِيرِ»[13]
وَ«أَنْطَلاَسُ»[14] يَقُــودُ الْحَرْبَ مُعْتَمِدًا عَلَى «لُـــوَاتَةَ»[15] أَبْــطَالِ غَضَافِــيرِ
إِنْ يَهْزِمُوكَ فَـــ«رُوسْبِينَا» تَكُونُ لَهُمْ نِعْمَ الْحَــصَـــانُ لَدَى قَوْمٍ نَحَارِيــرِ
وَالْفَأْسُ قَدْوَقَعَتْ فِي الرَّأْسِ فَانْجُ وَكُنْ دَوْمًا عَـــلَى حَذَرٍ مِنْ دَوْرَةِ الــدُّورِ

(**13**) «عويْمير» ابن أخ «هلدريق» وقد قاد الْجيوش إلى الْهزائم.(م.14). (**14**) «أنطلاس» قائد البربر الذي هزم «عويْمر» بـــ«روسبينا».(م.14). (**15**) «لواتة» قبيلة بربرية وهي من جند «أنطلاس» التي دخلت «روسبينا» لطرد الوندال. (م.14).

نهاية الوندال

«جلْمَارُ»[1]مَاجَمَعَ الْوَنْدَالَ يَحْكُمُهُمْ   وَ«أَنْطَـــلاَسُ» بِرَأْسِ الْغَوْرِ كَالْغُورِ[2]

يَا «جِلَّـــمَـــارُ» أَلاَ! لاَ تَـــفْرَحَنْ أَبَـــــدًا

فَـــ«الصُّفْرُ»[3]قَدْرَكِبُوامِنْ بَحْرِ«بُوسْفُورِ»[4]

«جُسْتِينُ»[5]إِذْ يَدَّعِي رَدَّ الْحُقُوقِ إِلَى   أَصْحَـــابِهَا وَغَـــزَا فِي شَكْلِ تَحْرِيرِ

وَالْبَحْـــرُ مَاجَ بِمَا سَارَتْ بِهِ سُــفُنٌ   وَالْكُلُّ يُثْـــنِي عَلَى أَخْلاَقِ «بَلْزِيرِ»[6]

فَالْحَقُّ : أَعْجَـــبَهُمْ زَيْتُـــونُهَا، ولَقَدْ   وَاجَـــهَكُمْ حَظُّكُمْ جَهْمَ الأَسَـــارِيرِ

فَلْتَخْـــتَـــفُوا وَكَأَنْ لَمْ تَحْكُمُوا أَبَدًا   كَـــذَلِكُمْ ، وَامَّـــحُوا مِنَ الدَّفَاتِـــيرِ

لاَ«أَمَّطَـــاسُ»[7] بِصَـــامِد أَمَـــامَهُمُ   أَوْ أَنْتَ فِي«دَرْبَةِ السَّيْفِ»[8] بِمَنْصُورِ

«سَلْمُونُ»[9] دَاهِيَةٌ، لَنْ تُفْلِحُوا أَبَدًا   فِي فَـــكِّ أَرْصَـــادِهِ مِنْ حُسْنِ تَدْبِيرِ

وَهَكَـــذَا دُوَلٌ تَجْـــتَـــثُّـــهَا دُوَلٌ   مِنْ بَعْـــدِ قُـــوَّتِـــهَا تَنْهَارُ كَالْـــجِيرِ

(**1**)«الغور» الأول هو الْجرف الْمرتفع عن سطح البحر كالغور بالوادي؛ و«الغور» الثاني هو «الغول» قلبت لامه راء للمشاكلة اللفظية والقافية (**2**) «جلمار» هو آخر ملوك الوندال الذي ثار على«عويْمر» و«جندمند» لكنه لَم يستطع تَخضيد شوكة البربر. (م.12و14). (**3**) «الصفر» أو بني الأصفر هم الروم الشرقيون (البيزنطيون)كما يسمّيهم العرب. (**4**) «بوسفور» إشارة إلى إقلاع قوات «بليعازر» أو (بليزار) من «مضيق البوسفور» لدحر «جلمار».(م.12و14). (**5**) «جستين» هو Justinien امبراطور بيزنطة الذي غزا الوندال مدّعيا ردّ الْملك لــ«هلدريق» الْملك الشرعي. (م.12).(**6**) «بلزير» (بليزار أو Bélisaire) قائد القوات الرومية ضد الوندال.(م.12و14). (**7**) «أمّطاس» Ammatas وهو أخ«جلمار» ونائبه بـــ«قرطاج» وقد مات بواقعة «دربة السيف».(م.12). (**8**) «دربة السيف» موضع جنوب «حَمّام الأنف» حيث تركز الْجيش الرومي. (م.12). (**9**) «سلمون» Salomon وهو أحد بطارقة الروم الدهاة. (م.12).

العهد الرومي

وَ«الدِّيسمُومُ»[1] غَـدَا لِلرُّومِ مَفْخَرَةً قَـدْ جَدَّدُوا مَعَهُ حُكْمَ الْـقَـيَاصِيرِ

فَقَامَ قَائِمُـهُمْ يَبْنِي الْحُـصُونَ وَقَدْ كَانَتْ مُحَطَّمَةً مِنْ سُـوءِ تَدْبِـيرِ

أَعْـلَى، وَعَـزَّزَ بِالأَبْـرَاجِ مُحْتَسِبًا غَـزْوًا يُلاَحِـقُهُ رَغْمَ التَّـعَـازِيرِ

وَ بِالْجَزِيرَةِ شَـادَ «الْقَصْرَ»[2]، زَيَّنَهُ فَـسَيْـفِـسَاءَ كَقَصْرِ الإِمْبَرَاطُورِ

«سَلْـمُونُ»قَدْ زَارَهُ لِلْوَثْبِ مُنْـتَهِزًا لِفُـرْقَـةٍ نَـجَـمَتْ بَيْنَ الْبَرَابِـيرِ

أَذَلَّـهُـمْ وَبَـغَى دَوْسًا لِحُـرْمَتِهِمْ تَأْخِـيرَ رَاتِـبِـهِمْ دُونَ الْمَـآجِيرِ

فَاسْتَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ، وَثَـارَ ثَائِـرُهُمْ لِوَثْبَـةِ الْفَتْكِ فِي عُنْفِ الْهَيَاصِيرِ[3]

وَرَاجَ فِي الْجَـيْـشِ عِصْيَانٌ وَ بَلْبَلَةٌ وَفَـرَّ«سَلْمُونُ»خَائِفًا لِـ«ـبَلْزِيرِ»

فَكَانَ أَنْ جَاءَ«جِرْمَانُوسُ»[4]يَخْضِدُهَا وَيُرْجِعُ الْحُكْمَ فِي«وَالِي الْبرِيتُورِ»[5]

لَكِنَّ «سَلْمُونَ» لَمْ تَنْـفَعْهُ تَجْرِبَـةٌ بَلْ خَانَ عَهْـدَهُ مَعْ شَيْخِ الْبَرَابِيرِ

وَسَامَ خَسْفًا فَرِيـقًا مِنْ«لُوَاتَـةَ» فَانْـبَرَوْا يُعِـدُّونَ ثَـارَاتٍ لِمَـوْتُورِ

وَقَامَتِ الْحَرْبُ وَاسْتَعْصَتْ عَلَى رَجُلٍ لَمْ يُدْرِكِ السِّـرَّ فِي نَفْسِ النَّحَارِيرِ

مَنْ ذَاقَ حُـرِّيَّـةً لَنْ يَرْتَـضِي أَبَدًا عَـوْدًا لِـرِقٍّ وَتَعْـذِيبٍ وَتَسْخِيرِ

وَمَاتَ «سَلْـمُونُ» مَقْهُـورًا بِغُصَّتِهِ يَا ضَيْـعَةَ الْعُمْرِ فِي الإِعْسَارِوَالْمُورِ!

---

(1) «الديسموم » Ad Décimum موقع الْمعركة التي سقط فيها الوندال في أيدي الروم.(م.12). (2) إشارة إلى القصر الرومي الْمعثور عليه بِـ«جزيرة الغدامسي» الْمبني على القبور الوندالية.(م.حفريات قصر بن الْجعد). (3) «الْهياصير» جَمع «هياصر»التي هي جَمع غير قياسي لِهصور وهو الكاسر من هصر يهصر، كسر يكسر.(4) «جرمانوس» Germanos وهو البطريق الذي أرجع الأمور لِحكم الإمبراطور وأعادها إلى «سلمون».(م.12). (5) «والي البريتور» Préfect de Prétoire وهو «سلمون» لكنه خان عهد «أنطلاس»شيخ البرابرة.(م.12و3).

يَا«سرْجُيوسُ»[6]إذَا مَارُمْتَ مَكْرُمَةً فَالْغَــدْرُ مَنْقَصَةٌ. يَا شَرَّ مَغْــرُورِ!

وَ«أَيْرُبنْدُ»[7]كَذَا، مَاكَانَ أَسْعَدَ ممَّــــنْ خَاضَ حَــرْبًا وَعَادَ غَيْرَ مَنْصُورِ

لَكِنْ إِذَا جَاءَ «يُوحَنَّا»[8]بــهُــدْنَته مَعْ «أَنْطَــلاَسَ»فَلَمْ يَكُنْ بِمَدْحُورِ

فَالْبَــرْبَــرِيُّ أَمينٌ فِي صَــدَاقَــته مَاقَامَ عَنْ عَــهْــده لَيْسَ بِمَبْــتُورِ

لَكنَّ «بيــزَنْطَةً» للرِّقِّ قَدْ رَجَعَتْ تَهْذي برفْعَــتِــهَافي طَيْشِ مَغْرُورِ

وَفَاسِدُ الطَّبْــعِ لاَتُرْجَى اسْتِــقَامَتُهُ وَ الْحَرْبُ قَدْ رَجَعَتْ تَــوًّا لِتَسْجِيرِ

(6) «سرجيوس» هو Sergius وهو البطريق الذي خلف «سلمون» وانْخزل عن «أيربند».(م.12). (7) «أيربند» هو Aérobinde البطريق الذي خلف «سرجيوس».(م.12). (8) «يوحنّا» هو Jean Trogliata بطريق «إفريقية» بعد «أيربند».(م.12).

روسبينا البيزنطية

لاَ تَيْأَسِي يَا«ابْـنَةَالأَمْوَاجِ» مِنْ فَرَجٍ «جُسْتِينُ» لَمْ يَنْـسَ أَسْرَارَ الْمَغَاوِيرِ
فَالسُّورُ يَعْلُو ، وَتَحْـمِيـهِ بَطَـارِقَةٌ مِنْ أَشْجَعِ الْجَيْشِ مِنْ رُومٍ وَمِنْ مُورِ
وَالدِّيرُ يَسْـطَـعُ بِالأَنْـوَارِ فِي أَلَقٍ رُهْبَانُهُ وَضَعُوا أَحْـلَى الزَّنَـانِـيرِ
فَازُوابِبُغْيَتِـهِمْ فِي ظِـلِّ مَمْـلَـكَةٍ قَدْ أَلْبَسَتْ شَيْخَهُمْ أَغْلَى الطَّـرَاطِيرِ
لَكِنَّهُمْ فَـشِـلُوا فِي نَـشْرِ مَذْهَبِهِمْ فِي نَجْعِ بَـادِيَـةٍ أَوْ بِالْهَـنَاشِـيرِ
«حَمُّونُ»[1]لَمْ تَنْقَـطِعْ حَقًّا عِبَادَتُـهُ وَالْقُـسُّ لَمْ يَنْتَـصِرْ رَغْمَ التَّبَاشِيرِ
فَالنَّاسُ لَمْ يَـفْـهَمُوا مَعْنَى عِبَادَتِهِمْ أَوْ أَنْ تُخَاطِبَهُمْ بَعْضُ الـتَّـصَاوِيرِ
فَهَذِهِ صُـورَةٌ فِي الصَّخْرِ قَدْ رُسِمَتْ وَتِلْكَ أَيْقُـونَةٌ مِنْ شُغْـلِ تَـصْوِيرِ
وَالْكُلُّ تَجْـسِيدُ أَفْكَـارٍ يُـرَوِّجُهَا أَهْلُ الدِّيَـانَـاتِ فِي عَقْلِ الْجَمَاهِيرِ
مَا الْفَرْقُ حَتَّى يَقُومَ الْبَعْضُ فِي صَلَفٍ يَـدْعُو لِتَغْـيِيرِهَا مِنْ دُونِ تَبْرِيرِ؟
لاَ تَحْفَلِي بِلِجَـاجِ الْقَـوْمِ إِنْ قَبِلُوا أَوْ أَنَّهُمْ رَفَـضُوا بَعْضَ الْمَزَامِـيرِ
«هِرَقْلُ»[2] إِنْ مَالَ لِلأَقْبَاطِ يَعْضُدُهُمْ فِي"الرُّوحِ قَدْجُسِّدَتْ مِنْ أَجْلِ تَكْفِيرِ"
فَإِنَّ« مَكْسِيمَ»[3] لَنْ يَرْضَى وَيَمْنَـعُهَا يُغْرِي بِـ«جَرْجِيرَ»[4]ضِدَّ الإِمْبَرَاطُورِ

(1) «حمّون» إله فينيقي قديم مازال معبودا إلى ذلك العهد عند بعض القبائل البربرية. (2) «هرقل» هو Hiraclius الذي كان والي «قرطاج» ثم أصبح إمبراطور «بيزنطة» وقد مال لفكرة الأقباط في عدم اعتبار المظهر الإنساني للمسيح بل هو كلمة اللّه التي تجسّدت لخلاص الناس وهي أصول الكنيسة القبطية، و«هرقل» هذا هو الذي دعاه «النبيء مُحمد صلّى اللّه عليه وسلّم».(م.12 و3). (3) «مكسيم» Maxime وهو الأسقف الكاثوليكي الذي لم يرض ببدعة الإمبراطور«هرقل». (م.12و3).(4) «جرجير» أو Grégoire هو آخر ملوك «سبيطلة» الذي قتله «عبد اللّه بن الزبير» في وقعة العبادلة.(م.12و3).

وَ«الأُرْثُذُكْسُ»[5] يَقُودُ النَّاسَ مُعْتَسِفًا يَدْعُوهُمُ لارْتِكَابِ كُلِّ مَحْظُورِ
قَالَ الْمَسِيحُ:«ظَلاَمٌ سَوْفَ يَعْقُبُنِي مِن بَعْدِمَا أَخْتَفِي فِي مَرْقَبِ النُّورِ»؟
«طُوبَى لِمَنْ لَزِمَ التَّحْقِيقَ، سَارَ بِهِ لَمْ يَرْتَكِبْ مَرْكَبَ التَّلْفِيقِ وَالزُّورِ»
«مَا فِي بُكَائِكُمُ لِلْقَلْبِ تَعْزِيَةٌ إِلاَّ مَحَبَّتَكُمْ لِلْبِرِّ وَالْخَيرِ»
«لَكِنَّ تَعْزِيَتِي فِي «أَحْمَدٍ»، فَإِذَا مَاجَاءَ يُنْصِفُنِي مِنْ قَوْلَةِ الْجُورِ»
«فَدِينُهُ قَائِمٌ إِلَى الْقِيَامَةِ وَ الرَّ حْمَانُ نَاشِرُهُ فِي كُلِّ مَعْمُورِ»[6]
فَانْعَزِلِي وَدَعِي كُلاًّ لِغَايَتِهِ وَارْتَقِبِي أَلَقًا مِنْ بَعْدِ دَيْجُورِ
لاَ تَغْفَلِي! أَنْتِ«رُوسْبِينَا» وَمَلْجَأُ كُلِّ ذِي أَسًى حَائِرٍ فِي الأَمْرِ مَعْسُورِ..
أَنْتِ الْمَلاَذُ، إِذَا ضَاقَ الْفَضَاءُ بِمَنْ لَمْ يَلْقَ فِي عَيْشِهِ غَيْرَ الْعَوَاقِيرِ

(5) «الأرثذكس» Orthodoxe هو الْمذهب الْمقابل للجاذليقية الرومانية وهو مذهب «كنيسة بيزنطة»،وقديكون معناه الأصيل أو الْمستقيم .(6) كلام مثبت بلفظه تقريبا إلا ضرورة الوزن بـ«إنْجيل برنابا» ومثله بالْمعنى في «إنْجيل يوحنّا» .

ظهور الإسلام

"اللَّهُ أَكْبَرُ! لاَ مَعْـــبُـــودَ غَيْـــرُهُ، يَا ... مَنْ أَشْــرَكُوا وَأَتَـــوْا ظُلْمَ الْجَبَابِرِ"

"اللَّهُ أَكْبَرُ"! جَـــاءَ الْحَـــقُّ مُنْتَصِرًا ... وَبَـــاءَكُفْرٌ بِـــأَرْوَاحِ الْمَـــسَـــاعِيرِ

اَلْمُسْلِـــمُونَ أَتَوْا فِي عِزِّ دَوْلَـــتِهِمْ ... مَا هَمَّـــهُمْ خَـــبَرٌمِنْ تِلْكُمُ الـــدُّورِ

فِي نَـــشْرِ دَعْوَتِهِمْ لَمْ يَرْهَبُـــوا أَبَدًا ... مِنْ ظُلْمِ طَـــاغِـــيَةٍ بِالْجُنْدِ مَخْفُورِ

أَوْ قُوَّةٍ قَـــدْ بَدَتْ أَقْوَىوَأَرْهَبَ مِنْ ... نَارٍ مُؤَجَّجَةٍ قُـــدَّامَ عُصْـــفُـــورِ

مَا رَدَّهَمْ «عُمَرُ»[1] إِذْ رَدَّهُـــمْ فَرَقًا ... أَوْ رَدَّهُمْ حِيَـــلٌ مِنْ رَأْيِ«جَرْجِيرِ»

هَـــذَا«مُعَـــاوِيَةٌ»[2] قَدْ جَاءَ مُفْتَتِحًا ... أَنَاخَ فِي دِعَةٍ مِنْ جَانِبِ«الدِّيرِ»[3]

مُرَابِطًا مُرْهِبًا جَيْـــشَ الْعَـــدُوِّ فَمَا ... يُثْنِيهِ عَنْ عَـــزْمِهِ جَمْعُ الْـــبَرَابِيرِ

وَ«ابْنُ الزُّبَيْرِ»[4]يَقُودُ الْجَيْشَ مُنْتَصِرًا ... سَلْ عَنْهُ،إِنْ شِئْتَ،أَعْقَابًا«لِنِقْفُورِ»[5]

(1) إشارة إلى منع «عمر بن الخطاب» جيوش المسلمين من دخول «إفريقية» خوفا من غدرها.(م.3). (2) هو «معاوية بن حديج» وقد رابط بجانب الدير (أي مكان الرباط حاليا،وتقول بعض الدّراسات الأثرية أن الرباط الحالي قد بُني على أرض بكر؛ لكن ذلك لا يَمنع من وجود دير قريب من المكان، وطبيعي أن المسلمين لم يهدموا أي دار للعبادة إلا في ظروف خاصّة جدّا).(م.1و2و3و4و5و6و8). (3) «الدير» هو مقر العبادة النصراني وهو الأصل في كلمة «المنستير» والمفترض أنه كان قرب قصر الرباط أو مكانه.(م.6). (4) هو «عبد الله بن الزبير» وقد كان في جند «معاوية بن حديج» مرابطا بـــ(المحارب=موضع على الساحل المرتفع بين قصر الرباط و«سقانص»،سُمّي كذلك لكثرة الجروف به كأنها المحاريب(م.الذاكرة الشعبية،وقول بعض أساتذة التاريخ) ومنها خرج إلى «نقفور» وهزمه على أسوار «سوسة». (م.1و2و3و4و5و6و7و8). (5) «نقفور» البطريق الرومي الذي انهزم أمام «ابن الزبير» تاركا وراءه أثقاله.

روسبينا تدخل الإسلام

يَا بَلْدَتِي اتَّئِدِي فِي الْحُكْمِ عَنْ فِئَةٍ	فِي حَرْبِــهِمْ غَلَبُوا أَقْوَى الأَبَاطِيرِ
وَاسْتَكْشِفِي أَمْرَهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقِفِي	فِي مَوْقِفٍ حَــرِجٍ قُــدَّامَ مَنْصُورِ
لاَ تَجْمَــعِي بِحِمَاكِ الرُّومَ عَنْ ثِقَةٍ	فَالأَمْرُ آتٍ، وَ لاَ رَدًّا لِمَقْــدُورِ[1]
لَكِنَّــهَــا امْتَنَعَتْ فِي عِــزَّةٍ وَأَبَتْ	مَوْتًا، كَمَقْــهُورَةٍ مِنْ خَلْفِ تَسْوِيرِ
أَلْقَتْ بِأَبْــطَالِهَا فِي قَعْرِ مُظْلِــمَةٍ	لِلْمَوْتِ تَدْرُسُــهُمْ دَرْسَ الْبَــيَادِيرِ
لَمْ يُثْنِ «عُقْبَةَ»[2] عَنْ عَزْمٍ تَمَنُّــعُهَا	وَذَاقَ فِي حَرْبِهَا مِــنْ مُرِّ صَامُورِ[3]
فَكَرَّ يُرْهِــقُهَا صَبْــرًا مُحَــاصَرَةً	حَتَّى اسْتَجَابَتْ لِخَلْعِ الْكُفْرِ وَالزُّورِ
أَمْسَتْ بِلاَقِــعَ دَارُ الْكُفْرِ وَانْتَصَبَتْ	حِصْــنًا عَتِيــدًا وَثَغْرًا غَيْرَ مَثْغُورِ

(1) إشارة إلى تجمع فلول الروم بـــ«روسبينا» لِمقاومة «عقبة بن نافع» سنة 62 للهجرة. (م.8). (2) «عقبة بن نافع الفهري» الذي هدم «روسبينا» سنة 63 للهجرة وجعل «الْمنستير» مَحرسا «للقيروان»، كما أنه أوّل من بدأ بالتمصير أي بناء مدن للإستقرار. ومن مَحرس «الْمنستير» بدأ ببناء «القيروان». (م.6و8). (3) «الصامورة» هي اللبن الذي فسد و لم يعد صالحا للشرب من شدّة حموضته.

تأسيس الْمنستير

قَالَ الأُولَى سَبَقُوا:«إِنَّ«مُعَاوِيَةً»[1] حَطَّ الرِّحَالَ هُنَا، بِجَانِبِ الدِّيرِ[2]
لَوْ نَبْتَنِي«قَيْرَوَانًا»[3] بِالْمَكَانِ يَصُو نُ النَّاسَ مِنْ غَارَةِالأَرْوَامِ وَالْمُورِ»
قَالَ الأَمِيرُ[4]:«أَخَافُ أَنْ يُفَاجِئَنَاالْـــــأَعْـــدَاءُ فِي غَفْلَةٍ تَحْتَ الدَّيَاجِيرِ
فَلْتَبْـــتَــنُوهُ بَعِيدًا عَنْ سَوَاحِلِهِمْ وَلْتَأْمَنُوا غَــدْرَهُمْ فِي غَيْبَةِ النُّورِ
وَلْنُــبْـــقِ إِنْ شِئْتُمُ بَعْضَ طَلاَئِعِنَا نَحْمِي بِهَا«قَيْرَوَانًا»غَـــيْرَ مَخْفُورِ
فَاسْتَعْجِمُواأَمْرَكُمْ وابْنُوا بِهَا أُطُمًا وَرَتِّبُوا عَسَسًا، مِثْلَ «الْمُنَسْتِيرِ»[5]
أَجْنَادُهَا حَرَسٌ يَحْـــمُونَ غِرَّتَـــنَا وَنَحْـــنُ نُنْـــجِدُهُمْ بِالْمَالِ وَالْمِيرِ
فَمَصِّرُوا هَاهُنَا مِصْـــرًا يَكُونُ بِدَا يَةً تُسَـــاعِدُكُمْ فِي بَدْءِ تَمْصِيرِ»

---

(1) هو «معاوية بن حُدَيْجٍ» (2) قد يتصوّر بعضهم أن المكان كان خلاء و لم يكن به أديرة حيث إن أحد الباحثين قام بسبرفي مكان قصر الرباط ووجد أنه أسس على أرض بكر؛ لكنّ الآثار البحرية في الجزيرتين«الوسطانية» و«الغدامسي» تؤكّد أن هنالك وجودا بشريا ولا يعقل أن تكون المنطقة خلاء، وقد قيل لي إن آثارا ما زالت تحت الأنقاض خارج برج سيدي مسعود(مكان نزل الرباط حاليا).(3)«قيروان» يظهر أنها تَحريف لكلمة فارسية هي «كرفان» Caravane قافلة وقد أصبحت تدلّ على محطّة القوافل ولذلك فسّرها أكثرهم بـــ«الْمعسكر» وربما يكون القصد «الْمخيم». (4) هو «عُقْبَة بن نافع الفهري» فاتح «روسبينا».(5) «الْمنستير» كلمة معروفة عندهم ويطلقونها بالْخصوص على الآطام والصياصي التي تبنى للحراسة وسُمّيت هذه التسمية الرومية(Monasterium)وهو الدير النصراني لأنّهم اتّخذوا الأديرة في البلاد الْمفتوحة لِمثل هذه الوظيفة وكان النصارى يبنون أديرتهم بعيدة عن العمران وعلى طريق السابلة وفي الْمضايقلقضاء شؤون السابلة من جهة وللعبادة من جهة أخرى وكذلك للمراقبة من جهة ثالثة.

بداية الإمارة العربية

يَا«عُقْبَةَ»الْخَيْرِ! دِينُ اللَّهِ مُنْتَشِرٌ   فَلاَ تَكُنْ حَامِضًا مِثْلَ الصَّوَامِيرِ[1]

إِمَّا عُزِلْتَ فَلاَ تَرْكَنْ لِمَنْقَصَةَ   أَمْرٌ سَوَاءٌ... وَأَنْتَ خَيْرُ مَأْجُورِ

«أَبَا الْمُهَاجِرِ»[2]قَدْ وَاصَلْتَ مَلْحَمَةً   كَانَتْ لِـ«عُقْبَةَ» فِي أَرْضِ الْبَرَابِيرِ

هَذَا«كُسَيْلَةُ»[3]قَدْ وَافَاكَ مُؤْتَلِفًا   فَارْفُقْ بِهِ وَائْتَلِفْهُ غَيْرَ مَغْرُورِ

يَتْبَعْهُ أَصْحَابُهُ جُنْدًا مُجَنَّدَةً   وَتَبْلُغِ الْمُبْتَغَى فِي خَيْرِ تَيْسِيرِ

وَالْكُلُّ فِي خِدْمَةِ الإِسْلاَمِ مُرْتَهَنٌ   فَلاَ تَكُنْ حَاقِدًا مِثْلَ الصَّنَانِيرِ[4]

يَا أَيُّهَا الْقُرَشِيُّ[5]لاَ تَكُنْ حَرَضًا   إِنْ عُدْتَ لِلأَمْرِ فِي أَثْوَابِ مَأْمُورِ

مَا كَانَ خَصْمُكَ إِذْ أَوْصَاكَ مُنْتَقِصًا   مِنْ قَدْرِ مَأْسُورِهِ، بَلْ غَيْرِ مَأْسُورِ:

«كَانَ الْمَلِيكَ، وَكَانَ الْكُلُّ يَرْهَبُهُ   وَجَاءَ عَنْ طَوْعٍ ، لاَ سِلْمَ مَقْهُورِ

..فَلْتُعْلِ مِنْ قَدْرِهِ،وَلْتَرْعَ حُرْمَتَهُ   يَأْنَسْ لَهُ قَوْمُهُ فِي كُلِّ تَدْبِيرِ

وَخَالِقِ الْقَوْمَ وَارْفُقْ فِي سِيَاسَتِهِمْ   لاَ تَكْسِرَنْ خَاطِرًا لَيْسَ بِمَجْبُورِ

فَاللَّهُ أَكْرَمَ مَنْ بِالرِّفْقِ عَامَلَ خَلْقَ اللَّهِ مِنْ دُونِ تَغْيِيظٍ وَ تَمْعِيرِ[6]»

وَالْقَوْمُ مِثْلُكُمُ أَعْرَابُ بَادِيَةِ   ذُفْرُ الشَّرَى كَالضَّرَاغِيمِ السَّنَادِيرِ[7]

فِي حُسْنِ تَقْدِيرِهِمْ تَلْقَى مَوَدَّتَهُمْ   فَلاَ تُعَامِلْهُمُ إِلاَّ بِتَقْدِيرِ

---

(1) «الصوامير» جَمْع صـ رة وهو اللبن الْحامض الذي لا حلاوة فيه. (2) «أبو الْمهاجر دينار» وهو خليفة «عقبة» في ولاية «إفريقية» وكان معه كالْخصمين.(م.3). (3) هو «كسيلة الأَوْرَبي » أسلم على يدي «أبي الْمهاجر» وارتدّ بسبب تَجبّر «عقبة» فقتله بواقعة «الزاب»، وقتل «زهير البلوي» كُسيلة فيما بعد.(م.3). (4) «الصنانير» جمع صنّارة وهو الرجل سيئ الْخلق. (5) «القرشي» هو «عقبة بن نافع». (6) «التمعير» هو التغييظ والتغضيب. (7) «السنادير» جَمع سندر وهو الْجريء.

فَالْبَرْبَرِيُّ حَقُـودٌ، وَهْوَ مُضْطَغِنٌ قَدْ يَسْتُرُ الْغَيْظَ فِي كَظْمٍ وَتَصْبِيرِ
يُرِيكَ ضُعْفًا وَ يُخْفِي عَنْكَ مَوْجِدَةً حَتَّى يَرَى سَانِحًا مِنْ غَيْرِ تَغْرِيرِ
فَيَأْخُذَ الثَّأْرَ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَيَشْتَفِي نَاسِيًا كُلَّ الْمَعَاذِيرِ
لَكِنَّ «عُقْبَةَ» جَرَّ الْحِقْدَ فِي بَطَرٍ فَاغْتِيلَ فِي «الزَّابِ» مَقْتُولاً بِتَنْغِيرِ[8]
وَارْتَدَّ قَاتِلُهُ وَاحْتَلَّ بَلْدَتَهُ وَأَعْلَنَ الْكُفْرَ فِي غَيْظِ الْمَوَائِيرِ[9]
«زُهَيْرُ»[10]إِنْ يَصْطَلِي حَرْبًا وَيَرْبَحُهَا فَالْحِقْدُ مَفْسَدَةُ الشُّمِّ الذَّوَاكِيرِ
لِكُلِّ مُنْتَصِرٍ لاَ بُدَّ مِنْ هَفْوَةٍ تُنْسِي مُعَادِيَهُ طِيبَ النَّحَايِيرِ[11]
وَالنَّاسُ أَغْلَبُهُمْ لاَ يَنْظُرُونَ سِوَى مَا مَسَّ عَيْشَهُمُ مِنْ كُلِّ تَدْبِيرِ
لَوْلاَ تَهَافُتُهُمْ مَا كَانَ لاِمْرَأَةٍ[12] أَنْ تَرْتَضِي بَلْقَعًا مِنْ بَعْدِ تَعْمِيرِ
فَأَخْرَبَتْ مُدُنًا،وَأَحْرَقَتْ شَجَرًا مِنْ أَرْضِ«بَرْقَةَ»حَتَّى «رَأْسِ إِيدِيرِ»[13]
«حَسَّانُ»[14]فِي حَرْبِهَا لَمْ يُلْفِ مَغْنَمَةً سَهْلاً تَنَاوُلُهَا مِنْ كَفِّ صُعْرُورِ[15]
لَكِنَّمَا دُوَلٌ آلَتْ لِمُنْقَرِضٍ وَدَوْلَةٌ سَطَعَتْ فِي إِثْرِ دَيْجُورِ

---

(8)التنغير:غليان الحقد(9) الموائير (جمع مائر) وهو الرجل الخفيف العقل.(10) «زهير البلوي» بعد موت عقبة تولى قيادة الْجيش وحارب كسيلة الذي استولى على القيروان وأخذ منه بثأر عقبة (11) النحايير (جمع) نحيرة وهي النحيزة والطبيعة (12)هي« الكاهنة » ملكة البربر وقد قهرت «حسّان بن النعمان» في معركة أولى؛ ثمّ أمرت بإحراق الغابات وتدمير الْمدن وقد كانت ظلاّ واحدا من «رأس أدار» إلى «طرابلس»؛وتغلّب عليها«حسان» فيما بعد بـ«الْجم» وأسلم أولادها على يديه وحسن إسلامهم فعقد لَهم على بعض الْجند.(م.1و3و7). (13) هو «رأس أدار» أو «الرأس الطيب» أو «شبه جزيرة شريك» أي «الوطن القبلي» حاليا . (14) «حسان» هو حسّان بن النعمان الذي تولّى فتوح إفريقية في زمن الكاهنة (15) «الصعرور» جَمعه «صعارير» وهو البسيط الْمتكبّر.

«حَسَّانُ»أَحْسِنْ وَكُنْ فِي حَرْبِهَا لَبِقًا فَالْــبَــرْبَرُ «الْبُتْرُ»[16] كَالْغُرِّ الْمَغَارِيرِ
لَوْ أَنْتَ عَامَلْتَهُمْ بِالْــبِــرِّمَا نَقَــضُوا عَــهْــدًا عَلَــيْــهِمْ بِإِمْدَادٍ وَتَعْزِيرِ
فَأَنْتَ خَلَّصْــتَــهُمْ مِنْ دُونِ تَفْــرِقَةٍ بَــيْنَ«الْبَرَانِسِ»أَوْ بَيْنَ«الْــبَوَاتِيرِ»[16]
فَاسْتَعْمِلِ الْكُلَّ فِي تَــرْكِيزِ دَوْلَتِكُمْ فِي ظِلِّ دِيــنٍ أَتَى أَسْمَى الدَّسَاتِــيرِ

(16) كان البربر ينقسمون إلى «برانس» وهم حضر ، وإلى «بتر» وهم غجر (بدو) (م.3).

بداية الْمرابطة

وَجَاءَ«مُوسَى»[1]وَقَدْ دَانَتْ بَرَابِرُهَا — مَابَيْنَ مُسْتَسْلِمٍ صَلْدٍ وَذُعْرُورِ

فَزَادَ أَبْنَاءَهُمْ تَقْلِيدُهُمْ شَرَفًا — بَعْضَ الْوَظَائِفِ فِي الْحُكْمِ بِتَقْدِيرِ

وَصَارَ قُرَّاؤُهُمْ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ — وَالْفِقْهُ مُنْتَشِرٌ فِي كُلِّ مَعْمُورِ

وَالنَّذْرُ إِنْ نَذَرُوا شَهْرًا مُرَابَطَةً — جَاءَتْ مَرَاحِيلُهُمْ إِلَى«الْمُنَسْتِيرِ»

فَيَنْزِلُونَ بِهَا وَالْكُلُّ قَدْ نَشِطُوا [2] — مَا بَيْنَ مُمْتَلِئٍ ضَخْمٍ وَمَسْمُورِ[3]

يَلْقَوْنَ فِيهَا شُيُوخًا شَابَ عَارِضُهُمْ — فِي ضَبْطِ نَفْسٍ وَ عِلْمٍ دُونَ تَقْصِيرِ

مَا هَمُّهُمْ ذَهَبٌ يُغْرِي بِأَصْغَرِهِمْ — أَوْ جَاهُ مَمْلَكَةٍ تُعْنَى بِتَعْمِيرِ

فَالْكُلُّ قَدْ وَهَبُوا أَعْمَارَهُمْ سَلَفًا — لِلْعِلْمِ وَالدِّينِ وَالإِحْسَانِ لِلْغَيْرِ

صَارُوا حُمَاةً وَصَارَ النَّاسُ حَوْلَهُمُ — كَالطَّوْقِ لِلْجِيدِ وَ الْفَتِيلِ لِلنُّورِ

وَالنَّفْسُ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِنْ تُرِكَتْ — أَوْجُوهِدَتْ صُقِلَتْ كَالسَّيْفِ وَالْكِيرِ

بَاعُوا بِبَاقِيَةٍ دُنْيَاهُمُ وَ لَقَدْ — قَلَّتْ لَذَائِذُهُمْ فِي غَيْرِ تَقْتِيرِ

مَا كَانَ مَلْبَسُهُمْ إِلاَّ مُرَقَّعَةً — أَوْ كَانَ مَأْكَلُهُمْ إِلاَّ لِتَصْبِيرِ

لاَ عَنْ قُعُودٍ وَلاَ عَنْ فَقْرِذَاتِ يَدٍ — بَلْ عَنْ عَفَافٍ وَعَنْ زُهْدٍ وَتَطْهِيرِ

لاَالْجُوعُ أَقْعَدَهُمْ عَنْ حَمْدِخَالِقِهِمْ — أَوْ كَانَ أَجْهَدَهُمْ بِأَيِّ تَأْثِيرِ

تَرَاهُمُ خُشَّعًا يَبْكُونَ مَوْجِدَةً — أَصْوَاتُهُمْ قَدْ عَلَتْ بِكُلِّ مَأْثُورِ

فِي لَيْلِهِمْ سُجَّدًا يَدْعُونَ خَالِقَهُمْ — مَا كَانَ أَشْبَهَهُمْ بِسَاكِنِي الدِّيرِ

---

(1) هو «موسى بن نصير» الوالي العربي على «إفريقية» وفاتح أرض «الأندلس» مع «طارق بن زياد» (2) هذا إرهاص بِبناء الرباط ، إذ يبدو أن الْمرابطة قد بدأت بالْمكان منذ مدّة . (3) «الْمسمور» هو الرجل قليل اللحم.

لَكِنَّهُمْ أُسُــدٌ فِي حَرْبِــهِمْ وَلَقَدْ سَارُوا بِأَخْبَارِهِمْ فِي كُلِّ مَعْمُورِ
فَالْعَيْشُ مَغْرَمُهُمْ وَالْمَوْتُ مَغْنَمُهُمْ وَالسِّلْمُ مَأْرَبُهُمْ مِنْ دُونِ تَحْقِيرِ
إِنْ كَانَ قَاصِدُهُمْ يَبْغِي حِمَايَتَهُمْ رَدَّتْ مُعَادِيَــهُ ظُبَا الْـبَــوَاتِيرِ
أَوْ كَانَ مَــقْصَدُهُ حَرْبًا مُنَاجَزَةً كَانَتْ غَنَائِمُهُ فِي قَطْعِ نَاسُورِ[4]
أَوْ كَانَ مُنْقَطِعًا صَارُوا لَهُ خَوَلاً أَعْطَوْهُ مَا عِنْدَهُمْ جَبْرًا لِمَكْسُورِ
أَوْ جَاءَهُمْ مُعْــسِرًا رَدُّوا مُدَايِنَهُ نَقْدًا وَتَبْــرِئَةً ، أَوْ سَــنَّ تَيْسِيرِ
أَوْ جَاءَهُمْ شَاكِــيًا رَدُّوا ظُلاَمَتَهُ حَتَّى يُرَى فَرِحًا طَـلْقَ الأَسَارِيرِ
بَاعُوا نُفُوسَهُمُ لِلْحَــقِّ فَازْدَهَرَتْ فِــيهِ تِجَارَتُهُمْ مِنْ غَيْــرِ تَخْسِيرِ
مِنْ عِلْمِهِمْ نَفَــعُوا فِي الدِّينِ وَانْتَفَعُوا لَمْ يَخْسَرُوا أَبَدًا مِثْلَ «ابْنِ بَاعُورِ»[5]
وَالنَّاسُ قَدْ وَثِقُوا مِنْ دِينِهِمْ وَرَأَوْا فِــيهِمْ بَهَالِــيلَ لَمْ يَرْضَوْا بِمَنْكُورِ
فَجَاءَ يَخْدُمُــهُمْ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ مَــنْ بَاعَ فَانِيَةً مِنْ أَجْــلِ تَكْفِيرِ
أَذَلَّ عَاصِيَةً فِي الذَّنْبِ قَدْ غَرِقَتْ مُسْتَغْفِرًا، خَافِضًا جَنَاحَ تَوَقُــيرِ
أَلْفَى بِصُحْبَتِهِمْ نُورًا وَ تَكْــرِمَةً قَدْ نَالَ فِي قُرْبِهِمْ قَــلْبًا لِمَعْــسُورِ
أَضْحَى وَقَدْ نَابَهُ مِنْ نُورِهِمْ شُعَلٌ لَوْ شَــاءَ سَارَتْ بِهِ فِي كُلِّ دَيْجُورِ
يَزِيدُهُ الْعِشْــقُ إِصْرَارًا وَمَوْجِدَةً يُرَابِــطُ الْعُــمْرَ فِي «ثَغْرِ الْمُنَسْتِيرِ»

(4) «النّاسُور» عرق دم فاسد وقطعه فيه راحة للمريض (5) إشارة إلى «بلعام بن باعور » الذي أمده اللّه بالعلم فانسلخ منه، أشار إليه القرآن الكريم في سورة الأعراف : {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ(175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176)} (م.قصص القرآن).

«بُهْلُولُ»[6] إِذْدَلَّهُمْ عَنْ فَضْلِهَا فَلَقَدْ ثَارَتْ بِأَضْلُعِهِ ذِكْرَى الْمَـذَاكِـيرِ
فَالسِّرُّ فِي أَنَّـهَا بَـابٌ لِجَنَّةِ[7] خُلْـد بَاتَ يَشْـتَاقُهَا أَهْلُ التَّبَـاشِيرِ
وَالنَّاسُ قَدْ نَقَـلُوا أَنَّ الرِّبَـاطَ بِهَا لِجَنَّـةِ الْخُلْـدِ مِنْ بَعْضِ الْمَعَابِيرِ
هَبُّوا إِلَيْهَا وَ«قَصْرُالْمَاءِ»[8] مُنْتَصِبٌ يَلْـقَاهُمُ فَرِحًا بَلْ جِدَّ مَـسْرُورِ
يَهْـدِيهِمُ لِطِلاَبِ الْعِلْمِ مَفْـخَرَةً بِكَسْرِ نَفْسٍ، وَتَعْـمِيرٍ، وَتَطْـهِيرِ
فَيَرْتَـقُونَ إِلَى أَعْلَى الْمَرَاتِبِ فِي عِشْقِ الَّذِي زَادَهُمْ نُورًا عَلَى نُورِ

(6) هو «البهلول بن راشد» كان من زهادها وربّما مرابطيها وهو الذي أشار على «هرثمة» ببناء القصر الكبير.(م.3).
(7) إشارة إلى مضمون بعض الأحاديث الواردة في فضل«الْمنستير».(م.1و2و3و4و6و8). (8) إشارة إلى القصر البيزنطي الْمبني على «جزيرة الغدامسي» وقد سُمّي «قصر الْماء» في ذلك العهد ولعل الإسم نفسه أطلق على كامل الْمدينة أوجعل إشارة لَها.(م.8).

بناء قصر الرباط الكبير

لاَ بُدَّ مِنْ أَنْ يَجِيءَ الْعَوْنُ مِنْ أُمَرَا ءِ الْمُؤْمِنِينَ[1] وَمَنْ إِعْــلاَءِ ذَاالسُّورِ

وَتِلْكَ أُمْنِيَةُ «الْبُهْلُولِ» مُنْــذُ رَأَى أَخْطَارَ غَازِيَةٍ مِــنْ دُونِ تَسْــوِيرِ

فَــ«شَرْلَمَانُ»[2] يُرُودُ الْبَحْرَ مُتَّخِذًا

فِيهِ قَرَاصِنَ مِنْ«سَكْسٍ»[3]وَ«آفِيرِ»[4]

وَامْتَــدَّ سُلْطَانُهُ فِي أَرْضِ«رُومِيَةٍ» وَجَالَ أُسْطُولُهُ فِــي لُجِّ«بَالْيِيرِ»[5]

أَضْحَتْ مَرَاكِبُهُ حَوْلَ الْحِمَى خَطَرًا لاَ بُــدَّ مِنْ دَرْئِهِ فِي حُسْنِ تَدْبِيرِ

هَــذَا الأَمِيرُ أَتَى وَالنُّصْحُ يَنْفَعُــهُ وَالــدَّهْرُ وَافَقَ لِلإِنْجَازِ بِــالْخِيرِ

مُرْيَا«ابْنَ أَعْيَنَ»[6] أَنْ يُبْنَى هُنَا أُطُمٌ هَــذَا «ابْنُ قَادِمَ»[7] مَاهِرٌ بِتَسْطِيرِ

ضَعْ هَا هُنَا لِسُــيُولِ الْمَاءِ مُخْتَزَنًا وَهَاهُــنَا غُــرَفًا لِلْــقُوتِ وَالْمِيرِ

وَهَاهُنَا شُــرَفًا مِنْهَا يُــرَاقَبُ مَنْ تَأْتِي بِهِ لُجَّــةٌ فِي لَيْــلِ دَيْجُورِ

وَالإِتِّصَالاَتُ بِــالأَبْرَاجِ نَجْــعَلُهَا فِي شَكْــلِ أَدْخِــنَةٍ شَتَّى التَّعَابِيرِ

أَوْ نُورِ نَــارٍ يُرَى لَيْلاً بِمَرْحَلَةٍ فَابْنِ الأَسَاسَ، وَ زِدْ جَهِّزْ بِنَاظُورِ

---

(1) إشارة إلى اهتمام الأمراء والخلفاء ومنهم «هارون الرشيد» بأمر الرباط وهو الذي أذن لواليه «هرثَمة بن الأعْيَن» بناء «رباط المنستير». (2) «شرلمان» Charlemagne ملك «فرنسا»في السنوات 150 هـــ/ 760م.(م.16). (3) «السكس» (هي مقاطعة جنوب ألمانيا) والمقصود السكسونيون (Les Saxons) وهم جرمانيون ويذهب البعض أنهم بقايا «بني إسرائيل» (وهو تفسير كنسي معاصر). (م.16 و13). (4) «الآفير» Les Avars وهم شعب من «آسيا الوسطى» قد يكون أصل «الصقالبة» (Slaves) اكتسحوا أوروبا» وأخضعهم «شارلمان» إلى سلطته.(م.16).(5) وامتد سلطانه على جزر «الباليار» وهدّد دولة «الأندلس».(6) هو « هرثَمة ابن أعين» والي «إفريقية» من قبل «هارون الرشيد»، وهو الذي أمر ببناء «القصر الكبير» سنة 180 هـــ.(كل المراجع) (7) هو «زكرياء بن قادم» الذي تولّى بناء وهندسة القصر.(كل المراجع).

هَذي الْمَنَارَةُ أُخْتُ الْبُرْجِ، زَاجِلُهَا ... مَا انْفَكَّ عَنْ سَيْرِه فِي غَيْبَةِالنُّورِ[8]

يَسْعَى بِأَنْبَائِهِمْ فِي كُلِّ آونَةٍ ... مَا عَاقَهُ عَائِقٌ عَنْ وَصْلٍ مَبْتُورِ

وَاجْعَلْ لِنِسْوَتِهِمْ فِي قَصْرِهِمْ غُرَفًا[9] ... هُنَّ الشَّقِيقَاتُ فِي كُلِّ التَّقَادِيرِ

قَدْ يَنْزِلُ الْقَصْرَ بَعْضٌ مِنْ حَرَائِرِهِمْ ... أَوْ يَلْجَإِ الْبَعْضُ مِنْ شَرِّالْمَحَاذِيرِ[10]

وَاجْعَلْ «زُرَيِّبَةً»[11] لِلْخَيْلِ وَابْنِ بِهَا ... بُيُوتَ مَنْ سَاسَهَا كَمَجْمَعِ الدُّورِ

وَاجْعَلْ مَسَاجِدَهُمْ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ ... حَتَّى إِذَا مَا عَلاَ صَوْتٌ بِتَكْبِيرِ

لَمْ يَرْتَبِكْ جَمْعُهُمْ،بَلْ قَامَ قَائِمُهُمْ ... صَلَّى بِهِمْ حَاضِرًا مِنْ دُونِ تَأْخِيرِ

وَاجْعَلْ مَحَارِيبَ خَلْوَاتٍ يُقِيمُ بِهَا ... أَشْيَاخُ نُسْكٍ وَ أَحْوَالٍ وَتَحْيِيرِ

وَقَامَ جَامِعُهُمْ بَيْنَ الْقُصُورِ، يُرَى ... كَعِقْدِ غَانِيَةٍ حَوْلَ الْمَنَاحِيرِ

لِجَمْعِ مَنْ سَكَنُواقُرْبَ الرِّبَاطِ وَمَنْ ... لَمْ يَبْعُدُوا قَدْرَ مَايُلْجِي لِتَقْصِيرِ[12]

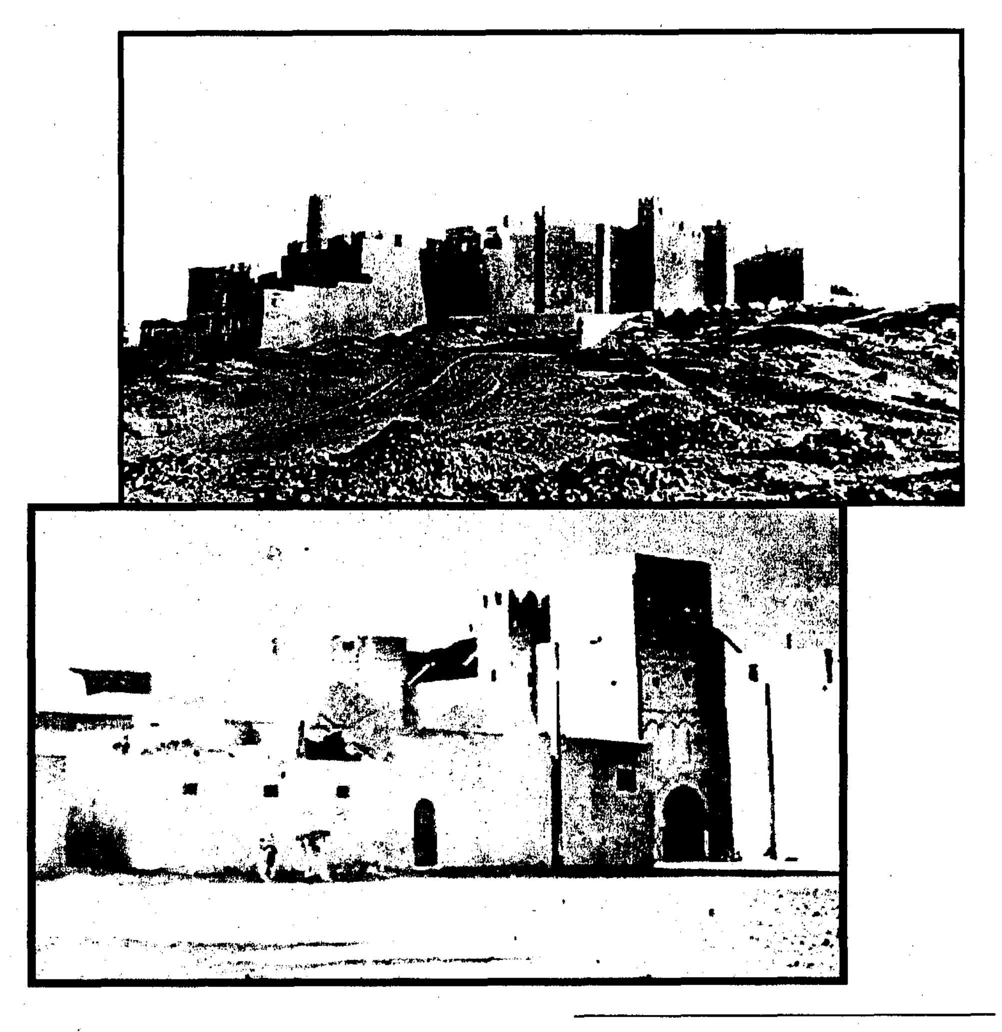
وَالنَّاسُ إِنْ ظُلِمُوا لِلْقَصْرِ مَلْجَؤُهُمْ ... يَلْقَوْنَ فِيهِ حُمَاةً بِالْمَنَاسِيرِ

فَلاَ الْبُغَاةُ يَرَوْنَ الْحَرْبَ مَغْنَمَهُمْ ... وَلاَ الطُّغَاةُ بِحُكْمِ الظُّلْمِ وَالْجُورِ

كَانَ «الأَغَالِبَةُ»الأَحْرَارُ تَرْدَعُهُمْ ... مَهَابَةُ الْحَقِّ لاَوَمْضُ الْبَوَاتِيرِ

(**8**) مقارنة بين برج الْحمام الزاجل الْمستعمل في الْمخابرات وبين «منارة قصر الرباط» وهي للمخابرات أيضا. (**9**) إشارة إلى رباط النساء الْمُقام بالْجهة القبلية للقصر وله ساحة خاصّة ومسجد في الطابق العلوي ومنه الباب الرئيسي الموجود الآن الذي يفتح على الجامع الكبير(**10**) من المستبعد أن يكون هناك نساء مرابطات في العصور الأولى ففي عهد الغدامسي كان أحد المرابطين بالمنستير بينما زوجته تقطن بسوسة فلماذا لم تأت عنده؟ (**11**) «الزُّرَيِّبَة» هي مَجموعة مساكن لصقت بقصر الرباط غربا،وهي آخر ما هُدم من الْمدينة وكانت أوّل ما بني بجانب الرباط وكانت مربضا للخيل ومقرا لساستها.وهي من أبدع أمثلة الأحياء السكنية العربية.بنيت في عهد مكرم الْمتعبد في القرن الثالث (الذاكرة الشعبية). (12) أي بعدت مساكنهم ولكن ليس بالقدر الكافي لتقصير الصلاة فوجبت عليهم الْجمعة.

وَجَــاءَهُمْ «أَسَدٌ»[13] مِنْ بَعْدُ مُعْتَكِفًا — كَذَاكَ «سَحْنُونُ» مَعْ بَعْضِ الْمَشَاهِيرِ
وَالنَّـــاسُ قَدْ هَرَعُوا نَحْوَ الرِّبَاطِ بِمَا — يَزِيدُ فِي أَجْرِهِمْ . يَا سَعْدَ مَأْجُورِ!
وَكُلُّ آتٍ يُلاَقِــي مَــــنْزِلاً وَقِرًى — فَالدُّورُ شَــائِعَةٌ مِنْ دُونِ تَحْجِــيرِ
يَاسَعْدَ مَنْ حَازَ فِيهَا بَعْضَ تَكْـــرِمَةٍ — أَوْ كَانَ مِنْ حَظِّهِ ضِمْنَ الْمَقَــابِيرِ



(13) هو «أسد ابن الفرات» قاضي «القيروان». وفاتح «صقلية». وقد اعتكف بـــ«رباط المنستير». (كل المراجع).

بناء قصر دؤيد

«دُوَيْدُ»[1]!دَعْ عَنْكَ مُلْكًالَسْتَ تَأْمَنُهُ ... تُضْحِي بِهِ زَاهِقًا مِنَ الْمَخَاسِيرِ

«دُوَيْدُ»!هَلْ تَرْتَجِي فِي الْمَالِ مَنْفَعَةً ... إِنْ لَمْ تَجِدْ أَجْرَهَا يَوْمَ الْمَعَاذِيرِ؟

فَاجْعَلْ بِهِ مَوْرِدًا يَسْقِيكَ مِنْ ظَمَإٍ ... فِي حِينِ لاَ يُرْتَجَى شُرْبٌ بِتَنْغِيرِ[2]

«دُوَيْدُ»!لَوْ هَاهُنَا قَصْرٌ يُشَادُ لِمَنْ ... يَرْجُو الْمُقَامَ عَلَى«ثَغْرِالْمُنَسْتِيرِ»

دَعِّمْ بِهِ الْقَصْرَ فِي وَجْهِ الْعُدَاةِ وَ زِدْ ... قُطَّانَهُ سَعَةً بِالْمَالِ وَالْمِيرِ

ضَاقَ الْفَضَاءُ بِهِمْ فِي قَصْرِ«هَرْثَمَةٍ» ... فَاجْعَلْ لَهُمْ فُسْحَةً فِي مُنْتَدَى الْخيرِ

(1) هو«دويد بن إبراهيم بن الأغلب»، تبرّع ببناء قصر هو قصر«سيدي ذويب» الْحالي (وذلك حوالي سنة 240 هـ) ورابط به جَماعة منهم الشيخ «أبو جعفر أحْمد الإطرابلسي» الْمتوفى سنة 347، و«أبو الفضل عباس الغدامسي» الْمتوفي سنة 349 وغيرهما من شيوخ القرن الرابع ؛ والظاهر مِما حكاه الشيخ« مُحمد مَخلوف» أنه كان بين«الرباط الكبير» و«قصرسيدي ذويب»داموس يربط بينهماوذلك من استراتيجيات الدفاع في تلك العهود، وقدصادفني أن عاينت بعض تلك الآثار بعيني في «رواء الْجامع الكبير». (م.3). (2) «التنغير» الشرب الكثير على الظمإ.

وَاجْعَلْ بِهِ مَسْجِدًا يُغْنِي جَمَاعَتَهُمْ عَنْ تَرْكِ مَعْقَلِهِمْ فِي لَيْلِ دَيْجُورِ
وَاجْعَلْ دَوَامِـيسَ تَحْتَ الأَرْضِ وَاصِلَةً
بَيْنَ الرِّبَـاطَـيْنِ مِنْ خَوْفِ الدَّوَاغِيرِ[3]
فِي ذَاكَ مِنْ سِعَةِ التَّدْبِيرِ مَسْعَفَةُ الْـمَكْرُوبِ، أَوْ كَرَّةُ الشُّمِّ النَّحَارِيرِ
أَسْرِعْ بِـبُنْـيَانِهِ مِنْ غَيْرِمَا مَهَلٍ وَاجْعَلْ تَمَامَ الْمُنَى فِي كَفِّ «مَسْرُورِ»[4]
فَالبِرُّ لاَ يُرْتَـجَى إِمْـهَالُهُ ، وَلَقَدْ يَأْتِي لإِبْطَـالِهِ وَسْوَاسُ تَغْيِـيرِ
وَالْبِرُّ فِي وَمْـضَةٍ كَالْبَرْقِ خَاطِفَةٍ وَالْعَجْزُ أَنْ تَبْتَغِي التَّأْجِيلَ فِي الْخيرِ

(3) «الدواغير» الدواهي. (4) «مَسْرُورِ» هو مولى «دويد» الّذي أشرف على بناء القصر سنة 240 هـ.

بناء قصر سهل

وَذَاتَ عَصْرٍ عَلَى تَلِّ الرِّمَالِ أَتَى «مُحَمَّدٌ»[1] حَارِسًا فِي نَوْبَةِ الدُّورِ[2]
رَنَا بِطَرْفٍ وَقَالَ: «لَوْ يُقَامُ هُنَا قَصْرٌ نَشُدُّ بِهِ أَزْرَ الْمُنَسْتِيرِ!»
فَقَالَ «سَهْلٌ»[3] وَكَانَ جَالِسًا مَعَهُ: «أَبْنِيه! يَا صَاحِ! مِنْ مَالِي وَ تَوْفِيرِي
فَالْمَالُ لِلَّهِ فِي كَفِّي كَعَارِيَةٍ وَالْغُنْمُ فِي مَأْثَمٍ بِالْعَفْوِ مَغْفُورِ
فِي نَهْجِكِ انْطَلِقِي لاَ تَرْهَبِي أَحَدًا يَا نَفْسُ! لاَ تَخْجَلِي فِي الْخَيْرِ بَلْ سِيرِي
فَالشَّهْدُ لاَ يُجْتَنَى بِالْخَوْفِ مِنْ حُمَةٍ بِالْوَخْزِ تُرْهِبُ، بَلْ بِالصَّبْرِ لِلضَّيْرِ»
وَقَامَ مِنْ تَوِّهِ يَبْغِي إِقَامَتَهُ لَمْ يَرْضَ مِنْ أَحَدٍ عَوْنًا بِمَقْتُورِ
حَتَّى عَلاَ، مَلأَتْ أَرْجَاءَهُ زُمَرُ الزُّهَّادِ أَمْثَالَ «يُوسُفَ بْنِ مَسْرُورِ»[4]

(1) هو «مُحمد بن القاضي سحنون» الْمتوفى سنة 256هـ/870م ؛ وتلّ الرمال هو شاطئ «سقانص».(م.3). (2) الْمقصودة نوبته أو دوره من الْحراسة. (3) هو «أبو زيد سهل بن عبد اللّه» من أعيان «القيروان» ؛ اشتهر بفعل الْخير والعلم والورع وكان مع ثرائه يرابط مع «مُحمد بن سحنون»وتوفّي برباطه بـ«سقانص» في ذي القعدة 282هـ/895م (م.3). (4) هو الْمرابط بـ«قصر سهل» وهو «أبو الفضل يوسف بن مسرور اللخمي» توفّي سنة 324هـ/935 م ودفن بِجانب القصر.(م.3).

قصر ابن الْجعد بالْجزيرة

يَا«مُكْرَمَ»الْخَيْرِ قَدْ ضَاقَ الرِّبَاطُ بِكُمْ ... فَاجْعَلْ لإِفْسَاحِهِ بَعْـضَ التَّدَابِيرِ[1]

هَذَا «ابْنُ جعْدٍ» أَتَى يَبْغِي مُنَاصَحَـةً ... وَأَنْـتَ تَعْـرِفُهُ مِنَ الْمَيَاسِـيرِ[2]

وَبالْجَــزِيرَةِ «قَصْرُ الْمَاءِ» مُنْهَدِمٌ ... يَلُوحُ مُنْقَـطِعًا مِثْلَ الـطَّحَارِيرِ[3]

فَمُرْهُ يَجْـعَلْهُ كَالْجُـونِيِّ[4] مُنْطَلِقًا ... تُخْشَى صَوَاعِـقُـهُ بِالنَّـارِ وَالْقِيرِ

فَــقَـامَ يَرْفَـعُـهُ حَتَّى غَدَا عَدِمًا ... فِي غِبْـطَةِ الْغَـانِمِ الْمَوْعُودِ بِالْخيرِ

لَمْ تُثْــنِهِ عَنْ تَـمَامِ الشَّأْنِ بَاكِيَةٌ ... مِنْ صَرْفِ صَاغَتِهَا فِي الصَّخْرِوَالْجِيرِ

حَتَّى اسْتَوَى وَبَـدَا لِلـنَّاسِ مُؤْتَلِقًا ... جَـاؤُوهُ فِي عَجَلٍ مِنْ كُلِّ مَعْمُورِ

فَفِـيهِ مَنْ نَـذَرُوا أَعْمَارَهُمْ لِحِمًى ... يَحْـمُونَ حَوْزَتَهُ مِنْ كُـلِّ مَنْكُورِ

وَفِــيهِ مَنْ أَوْقَفُوا لِلْعِلْمِ عِيشَـتَـهُمْ ... بِالْعِلْمِ قَدْ أَحْرَزُوا إِحْدَى التَّبَاشِـيرِ

وَفِيهِ مَنْ بَـلَغُوا فِي الزُّهْـدِ مَرْتَبَةً ... جَلَّـتْ عِمَارَتُهَا عَنْ كُلِّ تَقْـدِيرِ

يَا سَعْدَهُمْ بِـرِضَاءِ اللَّهِ قَدْ ظَـفَرُوا ... مِنْ دُونـمَا غَـرَرٍ أَوْ فِعْلِ تَـتْبِـيرِ

فَشَمْسُهُمْ أَشْرَقَتْ فِي الْغَرْبِ سَاطِعَةً ... بِالدِّيـنِ قَائِمَةً بَـيْنَ الْحَـوَاضِيرِ

كَمْ بِدْعَةٍ حَارَبُوا فِي ظِـلِّ سُنَّتِهِمْ ... لَمَّـا فَشَتْ بِـدَعٌ فِي تِلْكُمُ الدُّورِ

---

(1) «مكرم» هو الزاهد «مكرم» أحد الْمتعبّدين بــ«الْمنستير» في أواسط القرن الثالث للهجرة وهو الذي أشار على «ابن الْجعد» ببناء رباطه بالْجزيرة. (م.3) وهو الذي بنيت «الزريّبة» على يديه في قصّة الروم العطاشى. (2) «ابن الْجعد» هو أحد التجّار الْمياسير بــ«القيروان»وكان يزور «الْمنستير» وتعلّقت همته ببناء رباط، فبناه بِــ«جزيرة الغدامسي». (م.3). (3) «الطحارير» هي السحاب الْمتقطع وواحدته «طحرورة». (4) «الْجونيّ» هو جنس من القطا أسود اللون، وهو هنا استعارة للسحاب الأسود الْمجتمع وهو الْممطر فشبه به القصر باتصاله ببقية القصور .

الدولة العبيدية

وَالنَّاسُ فِي عَيْشِهِمْ بَاتُوا عَلَى وَجَلٍ ... مِنْ خَوْفِ طَاغِيَةٍ أَوْ بَدْءِ تَغْيِيرِ

لَمَّا غَدَا دِينُهُمْ دُنْيَا تُرَامُ به ... ضَاعَتْ بِهِمْ سُبُلٌ فِي الْخَيْرِوَالضَّيرِ

هَبَّتْ عَلَى النَّاسِ رِيحُ الْخُلْفِ فَافْتَرَقَتْ ... مِنْ بَعْدِ وِحْدَتِهَا عَادَتْ إِلَى الجُورِ

كُلٌّ يَرَى رَأْيَهُ حَقَّ الْيَقِينِ وَمَا ... عَادَاهُ لَيْسَ سِوَى تَضْلِيلِ شِرِّيرِ

رَاجَتْ مَذَاهِبُهُمْ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ ... كَمْ زَعْزَعَتْ ثِقَةً عِنْدَ الْجَمَاهِيرِ

لَمْ يَنْتَبِهْ أُمَرَاءُ «الْقَيْرَوَانِ» لَهُمْ ... حَتَّى غَدَا شَأْنُهُمْ يُنْبِي بِتَفْجِيرِ

«مَهْدِيُّهُمْ» بَثَّ فِي الأَرْجَاءِ دَاعِيَةً ... فَانْحَازَ يَنْصُرُهُ جَمْعُ الْبَرَابِيرِ

شَمْسُ«الأَغَالِبِ»قَدْ مَالَتْ لِمَغْرِبِهَا ... وَالأَمْرُ لِلَّهِ فِي عَزْلٍ وَ تَأْمِيرِ

«بَنُو عُبَيْدٍ» أَقَامُوا صَرْحَ دَوْلَتِهِمْ ... وَرَوَّجُوا بِدَعًا مِنْ غَيْرِ مَأْثُورِ

بَنَوْا مَدِينَتَهُمْ بِالسِّيفِ[1] مِنْ فَرَقٍ ... «مَهْدِيَّةً» سُمِّيَتْ لِلْيُمْنِ بِالْخيرِ

مِنْ سُوءِ تَدْبِيرِهِمْ سَنُّوا بِهَا سَنَنًا ... فِي جَعْلِ أَسْوَاقِهِمْ مِنْ دَاخِلِ السُّورِ

وَأَخْرَجُوا سَاكِنًا إِلَى «زُوَيْلَة»[2] ... عَاثُوا بِهَا، وَأَتَوْا كُلَّ الْمَنَاكِيرِ

تَذَمَّرَ النَّاسُ مِنْ أَخْلاَقِهِمْ فَنَسُوا ... فِي كُرْهِهِمْ نَسَبَ الأَشْرَافِ مِنْ ضِيرِ

وَالشَّعْبُ بَادَلَهُمْ حِقْدًا بِحِقْدِهِمُ ... وَالصَّاعَ بِالصَّاعِ، مِنْ كَيْلٍ وَتَقْدِيرِ

---

(1) «السّيفُ» بكسر السين هو قطعة الأرض الضيّقة الداخلة في البحر كأنها االسّيف في غمده، وفعلا بنيت «الْمهدية » على سيف من البحر، ناهيك أنك إن وقفت بوسطها فالتفتّ عن يَمينك أوشمالك واجهك البحر لضيق ما بين الضفتين.(2) «زويلة» هي الأحياء السكنية خارج أسوار «الْمهدية» ويُخرج إليها من «باب زويلة» أو «السقيفة الكحلاء» ، وقد بناها لعدم ثقته في الشعب .

«سَعْدُونُ»[3] صَانَعَهُمْ فِي حِنْكَةٍ وَلِكَيْ يَحْمِي التُّــقَـــاةَ وَأَصْحَـــابَ النَّوَاذِيرِ
وَصَانَـــعُـــوهُ تُـــقَـــاةً مِنْ قَـــلاَقِـــلِه مِنْ حَـــرْبِ أَجْنَادِهِ الْـــغُـــرِّ الْمَغَاوِيرِ
كَمْ حَدَّثَ النَّاسُ عَنْ أَمْنٍ بِجَانِـــبِهِمْ وَكَمْ حَمَوْا جَارَهُمْ مِنْ جَـــوْرِ مَغْرُورِ
حَتَّى بَنَى بَعْـــضُهُمْ قَصْرًا يُجَاوِرُهُمْ فَيَحْتَـــمِي بِهِـــمُ مِنْ أَيِّ تَـــعْـــكِيرِ

(3) «سعدون الخولاني» المتوفي سنة 325 هـ، هو شيخ الرباط وكان يَجتمع إليه نحو الأربعة آلاف من الحراس عاش مائة سنة فيكون مولده نحوسنة 225 هـ، ونفر إلى جنازته كثيرمن أهل القيروان ودفن«بالمنستير». أدرك «سحنونا» ولَم يأخذ عنه ،وعاصر «أبا الفضل الغدامسي» وهو الذي صانع الفاطميين وصانعوه.(م.6و8).

ثورة صاحب الْحمار

رَأَى«ابْنُ كِيدَادَ»[1] مَايُدْمِي الْقُلُوبَ فَلَمْ
يَصْــبِرْ وَثَــارَ عَلَى أَهْــلِ الْمَــنَاكِيرِ

مِنْ «تُوزَرٍ» خَرَجَتْ زَحْفًا مَسِيرَتُهُ وَكَانَتْ «زَنَاتَةُ»مِنْ جَمْعِ«التَّوَازِيرِ»

وَكَانَ قَدْ خَــالَطَ «النُّكَّارَ»[2] فِي صِغَرٍ
فَصَــارَ مَــرْغُــوبُهُ قَــلْــبَ الْمَعَايِيرِ

وَكَانَ مَرْكُوبَــهُ الْحِمَارُ مِنْ ضَلَعٍ أَوْ مِنْ تَوَاضُعِه فِي كَسْبِ جُمْهُورِ؟

وَ قَادَ ثَــوْرَتَــهُ لاَ يَرْتَــضِي بَدَلاً مِنْ قَلْبِ«مَهْدِيِّهِمْ» فِي تِلْكُمُ الدُّورِ

وَعَاثَ فِي النَّاسِ تَــقْــتِيلاً وَتَعْرِيَةً كَأَنَّــمَا قَدْ عُرُوا صَيْفًا بِبَاحُورِ[3]

كَالرِّيحِ تَجْرِي عَقِيمًا لَيْسَ يُوقِفُهَا شَيْءٌ وَلَوْ أَنَّــهُ مِنْ أَعْتَدِ الْحُورِ[4]

مِنْ قَبْلُ«مَهْدِيُّهُمْ»[5]قَدْكَانَ يَعْلَمُهَا لَكِنَّهُ لَمْ يَحُلْ مِــنْ دُونِ مَسْطُورِ

«مُخَلَّدٌ»[1]لَمْ يَطَأْأَرْضَ الرِّبَاطِ وَلَمْ تَرَ«الْمُنَسْتِيرُ»مِنْــهُ أَيَّ مَــنْــكُورِ

وَمَرَّ عَنْهَا كَمَرِّ الطَّيْفِ فِي وَسَنِ الْــمُرْتَاعِ يُرْهِــقُهُ صَوْتُ الصَّرَاصِيرِ

---

(1) أَبو يَزِيدَ مُخَلَّدُ بْنُ كِيدَادَ هو «صاحب الْحمار» وقد ثار ضد العبيديين من بداية عهدهم.(م.2). (2) «النكار» هم فرقة تُمثل الْمعارضة، فهم خوارج،إذن،وهم جَماعة أنكروا بعض أفعال «الدولة الرستمية» فثاروا ضدّها؛وبقيت جذورهم بالْجنوب التونسي. (3) «الباحور» هو اشتداد الْحر في شهر تَمّوز (جويلية) وهو «أوسّو». (4) «الْحَوْرُ» شجر عتيد كبير وصلب.(5) هو«عبيد اللّه الْمهدي» وكان يعلم بِهذه الثورة وبـــ«صاحب الْحمار» وهو يَختط مدينة «الْمهدية» منها أنه أمر برمي سهم فلما وقع في مكان مَحدود قال : « إلى هنا يصل صاحب الْحمار» وهو الْمكان الذي دحر فيه هذا الثائر نِهائيا.(ولعلّه يقصد بصاحب الْحمار الرجل العامّي الذي ليس من الأعيان، لأن الأعيان يركبون الْخيل والبغال وليس الْحمير، وكانت الواقعة بالْمكان صدفة،و التحديد برمية السهم حرزٌ للقلعة ، فلا يترك الحراس أحدا من العامّة يَجتازه) (م.2).

وَسَارَ فِي جُنْـــدِهِ إِلَى «زُوَيِّلَة» فَفَرَّ سُكَّــانُهَا لِدَاخِلِ السُّـــورِ
فَكَانَ مَا تَرَكُوا نَهْبًا لِمَنْ تَرَكُوا وَنَــابَــهُمْ نُبَذٌ مِنْ «أُمِّ صَبُّورِ»(6)
وَجَنَّدَ «الْقَائِمُ»(7) الأَجْنَادَ فَانْهَزَمُوا مَا بَــيْنَ مُنْقَطِعٍ خَوْفًا وَ مَدْحُـــورِ
وَمَاتَ مِنْ غَمِّهِ مُسْــتَخْــلِفًا وَلَدًا قَدْ حُقَّ إِذْ لَقَّبُوهُ بِاسْمِ «مَنْصُورِ»(8)
أَخْفَى وَفَاةَ أَبِــيهِ فِي الْجِلاَدِ، فَلَمَّا فَــازَ، أَعْلَــنَهَا وَسْــطَ الْجَمَاهِيرِ
وَقَامَ مُــتَّــبِــعًا آثَارَ مَنْ هَرَبُــوا إِلَى «كُتَامَةَ» تَقْتِيــلاً لِتَــطْــهِــيرِ
وَهَكَذَا اكْتَسَبُوا عَلَى «زَنَــاتَةَ» حِقْــدًا قَدْ تَــوَارَثَهُ الأَحْــفَادُ بِالدَّوْرِ(9)
أَقَامَ «صَبْرَةَ» قُرْبَ «الْقَيْرَوَان» مُفَا خِرًا بِنَصْرٍ وَ تَشْيِيــدٍ وَ تَــعْــمِيرِ
أَطَــاعَهُ رَجُلٌ، لَوْلاَهُ مَا وَصَلَتْ أَجْنَادُهُ لِحِمًى كَانَ اسْمُهُ «زِيرِي»(10)
فَكَانَ إِخْــلاَصُــهُ بَابًا لِــتَكْرِمَةٍ مِنْ أَجْلِهَا صَارَ وَالِيًا بِــ«آشِيرِ»(11)



(**6**) «أم صبّور» هي كنية تطلق على الداهية العظيمة.(**7**) «القائم باللّه هو ابن عبيد اللّه الْمهدي» وقد تولّى الإمارة بعد أبيه وقامت الثورة في زمانه.(م.2). (**8**) «الْمنصور باللّه» هو ابن« القائم باللّه» وهو الذي خضّد ثورة «صاحب الْحمار».(م.2). (**9**) «بالدَّوْرِ» أي كلّ واحد يرثه عن أبيه (**10**) هو «زيري بن مناد والد يوسف بلكين» ،وكان سيد «صنهاجة» فأعان «الْمنصور» في حرب «صاحب الْحمار» وخلّص «الْمهدية» من الْحصار .(م.2). (**11**) «آشير» مدينة عظيمة بــ«الْجزائر» قلده إمارتها «الْمعز لدين اللّه الفاطمي» قبل استخلافه على كامل «إفريقية» عند انتقاله إلى «القاهرة».(م.2).

بركة الغدامسي

«عَبَّاسُ»[1] جَاهِدْ وَكُنْ بِالْقَصْرِ مُعْتَكِفًا فَالأُفْقُ طَـلْـقٌ وَ لَوْ حِينَ الدَّيَاجِيرِ

وَانْصَحْ لِمَنْ سَـأَلَ الْمَاعُونَ مُجْتَهِدًا فِي رَدِّ عَادِيَةٍ عَنْ كُلِّ مَـقْـهُورِ

فَالنَّاسُ قَدْ أَشْفَقُوا مِنْ أَخْذِ مَااكْتَسَبُوا نَهْبًا لِطَـاغِـيَةٍ بِالـدِّينِ مَسْتُورِ

ضَاقَتْ بِهِمْ سُبُـلُ التَّأْمِينِ فَانْتَجَعُوا مِنْ دُورِهِمْ هِجْرَةً إِلَى «الْمُنَسْتِيرِ»[2]

يَسْتَنْـصِحُونَكَ، قُلْ، لاَ تَخْشَ لاَئِمَةً فَالْكُـلُّ قَـدْ وَثِقُوا فِي قَوْلِ مَبْرُورِ:

«إِنَّ «الْمُنَسْتِيرَ» ثَغْرٌ فِي مُوَاجَـهَةِ الْـأَعْـدَاءِ لاَ مَرْتَعٌ لِلْغِيـدِ وَالـفُورِ

وَ«الْقَيْرَوَانُ» بِهَا أَمْنُ الْمَـدَائِنِ مِنْ غَارَاتِ غَازِيَةٍ بِالْجَـيْشِ وَالسُّـورِ»

وَجِّـهْ لِخَيْرٍ هَـدَاكَ اللَّهُ وُجْهَتَهُ هَدِّئْ خَوَاطِرَ حَـيْرَانٍ وَ مَذْعُـورِ

هَذَا «الْمُعِزُّ»[3] أَتَى يَرْجُـو مُبَارَكَةً فَاشْفَعْ لَدَيْـهِ، فَـمَا أَنْتَ بِمَحْجُورِ

لَعَـلَّ إِصْلاَحَ دُنْـيَاهُمْ يُـرَافِقُهُ صَلاَحُ دِيـنٍ، وَ لاَ دَفْـعَ لِمَقْـدُورِ

فَإِنَّ دَوْلَـتَهُمْ قَدْ شَـرَّقَتْ وَمَضَتْ وَالسُّخْطُ فِي إِثْرِهَا مِنْ كُلِّ مَوْتُـورِ

---

(1) هو «أبو الفضل عباس الغدامسي» ولد بـ«غدامس» سنة 253 هـ وتوفي عصر يوم الجمعة 12 ربيع الأول سنة 349 هـ فيكون قدعاش 96 سنة. من أكبر مرابطي «قصر ابن الجعد» وسُميت الجزيرة باسْمه لوجود قبره بها وذلك في أواسط القرن الرابع للهجرة.(م.3و 6و 8). (2) لَما اشتدّ أمر الشيعة بـ«القيروان» وضاق الناس بهم بعث بعضهم إلى«أبي الفضل الغدامسي» يستشيره في الهجرة إلى«المنستير» فأجابه بأن «القيروان» بلد آمن وأما «المنستير» بلد قد يقع من حين لآخر بيد الأعداء،وأشار عليه بملازمة القيروان، وهذا مبرر وجود الرباطات بالمنستير،ودليل على أنه ليس لَها سور فهي مجمع رباطات وليست مدينة رغم قداسة الموقع (م.1). (3) إشارة إلى زيارة «المعزّ لدين اللّه بن إسْماعيل المنصور الفاطمي» «لأبي الفضل الغدامسي» للتبرّك به ورؤيته وطلب الدعاء، قبل انتقاله إلى القاهرة . (م.2و3).

بداية الصنهاجيين

سَــمَّــوْا «بُلُكِّينَ» فِيهَا وَالِـيًا ثِقَةً ... مِنْ خَيْرِ «صَنْهَاجَةَ» خَيْرَ «بَنِي زِيرِي»
فَثَبَّتَ الْمُلْــكَ فِي أَطْرَافِ مَغْــرِبِهَا ... وَحَــازَ «رَقَّــادَةً» مِنْ بَعْدِ «آشِيرِ»
لَكِنْ أَصَــابَهُ «قُولَنْجٌ»[1] فَمَــاتَ بِهِ ... وَصَيَّرُوا حُكْمَهَا فِي الإِبْنِ «مَنْصُورِ»[2]
فَأَغْدَقَ الْمَالَ فِي الأَجْنَادِ مُصْطَــنِعًا ... قُلُــوبَــهُمْ كَرَمًا؛ يَاحُسْنَ تَــبْذِيرِ!
فَجَاءَهُ الــنَّــاسُ آلاَفًــا مُــؤَلَّــفَةً ... وَالــنَّاسُ أُلْفَــتُــهَا حَوْلَ الدَّنَــانِيرِ
أَعْطَى وَأَهْدَى، وَصَارَ النَّاسُ فِي سَعَةٍ ... فَأَظْــهَــرُوا فَــرَحًا مِنْ بَعْدِ تَكْدِيرِ
وَأَجْمَعُوا أَنَّــــهُ مُلْــكُ عَــشِيرَتِهِ ... وَالْحَمْــدُ لِلَّهِ حَمْــدًا غَيْرَ مَبْــتُورِ
وَهَــكَذَا لَمْ يَــعُــدْ عَبْدًا لِسَادَتِهِ ... بِــ«ــمِصْرَ» رَغْمَ الْهَدَايَا دُونَ تَغْيِيرِ
وَحَطَّ عَنْ بَعْضِ أَرْيَافٍ ضَــرَائِبَهَا ... وَأَظْــهَرَ الْعَطْفَ فِي حُكْمِ الْــبَرَابِيرِ
وَجَاءَ «رَقَّادَةً»، فِي بَهْــجَةٍ وَغِنًى ... كَــأَنَّــهُ وَاحِدٌ مِــنَ الْــقَيَاصِيرِ
قَضَى بِهَا رَمَــضَانًا وَهْــوَ سَيِّدُهَا ... وَاسْتَــحْكَمَ الأَمْــرَ تَوًّا دُونَ تَأْخِيرِ
وَعَادَ صُحْبَةَ «عَبْــدِ اللَّهِ»[3] كَاتِــبِهِ ... وَصَــاحِبِ السِّرِّ، لِلْقَصْرِ بِــ«آشِيرِ»
وَجَاءَ «بَادِيسُ»[4] تَــتْوِيجًا لِفَــرْحَتِهِ ... كَبَاسِقِ الطَّلْعِ فِي أَعْــقَابِ تَشْــجِيرِ
فَكَانَ مَوْلِــدُهُ بُشْرَى تُضَــافُ إِلَى ... أَمْجَــــادِ وَالِــدِهِ وَخَــيْرَ تَبْــشِيرِ

---

(1) «القولنج» مرض يصيب الأمعاء الغليظة في الْمعي الذي اسْمه قولن(Côlon)ومنه الصاعدوالنازل والعرضي.(2) هو «منصوربن يوسف بلكين بن زيري بن مناد» خلف أباه في ولاية «إفريقية» للفاطميين.(م.2).(3) هو «عبدالله الكاتب» والي «الْمنصور الزيري» على «إفريقية» و«القيروان» وابنه «يوسف» وقد قتلهما عندما غدرا به لفائدة «العزيز الفاطمي». (م.2).(4) هو «باديس بن الْمنصوروالد «الْمعز». (م.2).

«زِيرِي زَنَاتَةَ»[5] أَبْدَى الْخُلْفَ مُعْتَصِبًا ... وَلَمْ يَعُدْ تَابِعًا لِجُنْدِ «مَنْصُورِ»
أَغْرَى قِتَالُهُ «يَاطُوفَاتَ»[6] فَارْتَكَسَتْ ... أَجْنَادُهُ خَوَرًا، كَسَيْفٍ أُفْطُورِ[7]
فَعَادَ عَسْكَرُهُ إِلَيْهِ مُنْهَزِمًا. ... مَنْصُورُ! خُذْ عِبْرَةً مِنْ دُونِ تَغْرِيرِ
مَاذَا جَرَى لِأُسُودِ الْحَرْبِ فَانْهَزَمَتْ؟ ... أَلَيْسَ ذَلِكَ إِنْذَارًا بِتَفْجِيرِ؟
تَفْجِيرِ وَضْعٍ إِذَا لَمْ يَنْحَسِمْ، فَلَقَدْ ... يَأْتِي عَلَى كُلِّ إِنْشَاءٍ وَتَعْمِيرِ
لَوْ تَتْرُكُوا الْحَرْبَ حَتَّى تَطْمَئِنَّ بِكُمْ ... أَرْكَانُ مُلْكٍ بِأَقْيَالِ الْبَرَابِيرِ!؟
هَذِي زَنَاتَةُ أُخْتُ الْبَرْبَرِ اتَّخَذَتْ ... ضِدَّ الْفَوَاطِمِ عَهْدًا غَيْرَ مَبْتُورِ
فِي حَرْبِهَا لَنْ تَرَى فَخْرًا يَزِينُكَ بَلْ ... تَشْتِيتَكُمْ شِيَعًا فِي خِدْمَةِ الْغَيرِ
وَلَّى أَخَاهُ «أَشِيرَ» وَانْثَنَى قُدُمًا ... «لِلْقَيْرَوَانِ» يَشُدُّ الْمُلْكَ بِالسِّيرِ[8]
بَنَى وَأَعْلَى بِـ«ـمَنْصُورِيَّةٍ» سَكَنًا ... وَاخْتَارَهَا رَاغِبًا عَنْ قَصْرِ «آشِيرِ»
لَمْ يُعْجِبِ «الْفَاطِمِيَّ»[9] مَا يَقُومُ بِهِ «الْمَنْصُورُ»، فِي مُلْكِهِ مِنَ التَّدَابِيرِ
وَخَافَ مِنْهُ عَلَى تَاجِ الإِمَارَةِ أَنْ ... يَسْتَبِدَّ بِهِ فِي تِلْكُمُ الدُّورِ
فَكَانَ مِنْ رَأْيِهِ جَعْلُ الْعُيُونِ عَلَى «الْمَنْصُورِ» فِي رَصَدٍ مِنْ «ذِي الْمَحَابِيرِ»[10]
فَكَانَ تَعْيِينُهُ تَقْرِيبَ مَقْتَلِهِ ... وَلَمْ يَكُنْ لِـ«نِزَارٍ»[9] أَيُّ تَسْطِيرِ

(5) «زيري زناتة» هو«زيري بن عطية الزناتي» وقد استولى على «فاس» و«سجلماسة» وخرج على الصنهاجيين والفاطميين لفائدة «بني العباس» بـــ«بغداد».(م.2و12).(6) «يطوفات» أو«يطوفت» هو أخ «الْمنصور الصنهاجي» الذي بعثه لمحاربة «زيري الزناتي» لكنه هُزم إلى «آشير»فسمّاه واليا عليها.(م.2و12).(7)«السيف الأفطور» هو السيف الذي فيه تشقق فلا يقطع شيئا. (8) «السير»و يُجمع على«سيور» هو القطعة الطويلة من الْجلدكالْحبل و«الشد بالسير هو الشد بالقوة» فهو من باب الكناية.(9) هو «نزار العزيز باللّه بن الْمعز لدين اللّه الفاطمي» صاحب «مصر » في زمن «الْمنصور الزيري».(م.2). (10) «ذو الْمحابير» هي تكنية لـــ«عبد اللّه الكاتب» وولده.

بَلْ عَضَّ أَكْمَامَهُ فِي كَظْمِ مُخْتَقِنٍ وَمَــــالَ عَنْ كَيْــدِهِ بِوَصْلٍ مَبْرُورِ

يَطْوِي الضَّـــغِينَةَ فِي أَعْمَاقِهِ حَنَقًا فَــلاَ تَرَاهُ سِـــــوَى طَلْقَ الأَسَارِيرِ

«بَادِيــسُ»قَامَ بِهَا مِنْ بَعْــدِ وَالِدِهِ لَكِنَّ أَعْمَــامَهُ ، مِنْ سُــوءِ تَــدْبِيرِ

قَدْ حَارَبُوهُ، وَكَانَ النَّصْرُ ضِــدَّهُمُ لَكِنْ«زَنَاتَةُ»[11] لَمْ تَــرْضَخْ لِمَأْمُورِ

وَوَاصَـــلَتْ ثَوْرَةً ضِدَّ الْفَوَاطِمِ، لَمْ تَــقْنَعْ بِـــشَيْءٍ سِوَى هَدْمٍ وَتَدْمِيرِ

---

(11) ذلك أن أعمامه كان أكثر اعتمادهم على «زناتة» التي عظم شأنها في «الْمغرب» وفي «طرابلس».(م.2).والظاهر أنها حكمت جزءا من إفريقية حيث تركز «الزناتي خليفة» أبو «عزيزة» وصاحب بني هلال. ولعلّ هذه بداية التدهور التيي جنى ويلاتها المعز بن باديس فيما بعد.

ولاية الْمعز بن باديس وبناء قصر السيدة

«بَادِيسُ»مَاتَ فَصَارَ الْمُلْكُ فِي وَلَدٍ   لَمْ يَبْــلُــغِ الْعقْدَ،فِي سِنِّ الْعَصَافِيرِ
وَهْوَ«الْمُــعِــزُّ»، وَ فِي عِزٍّ وِلاَيَتُهُ،   رَغْمَ الصِّــبَا، فَــلَهُ خَيْرُ الْعَوَازِيرِ[1]
بمِصْرِ «مَهْدِيَّةٍ»، رَبَّــتْهُ عَمَّــتُهُ[2]   أَوْ قِيــلَ جَــدَّتُهُ مِنْ دُونِ تَقْــصِيرِ
فَسَيَّرَتْ مُلْــكَهُ حَتَّى غَــدَا رَجُلاً   يُدِيــرُ أَعْمَالَــهُ شَــأْنَ النَّــحَارِيرِ
لَمَّا اسْــتَوَى مَلِكًا،بِالْحَزْمِ مُتّــزِرًا   كَانَــتْ لَــهُ لَفْتَةٌ إِلَى «الْمُنَسْتِيرِ»
كُنْ يَا «مُعِزُّ»!حَبِيبَ الشَّعْبِ مَنْ فَنِيَتْ
أَصْــبَـــارُهُ فِي تَعَــالِيلٍ وَ تَصْبِــيرِ
وَطَــهِّرِ الْقُطْرَ مِنْ «صُفْرِيَّةٍ»وَ«إِبَا   ضِيِّينَ»أَوْ«شِيعَةٍ» أَوْمِنْ «نَوَاكِيرِ»[3]
وَارْفَعْ لِوَاءَ «بَنِي الْعَبَّاسِ»مُنْتَــصِرًا   إنْ كَانَ لاَ بُدَّ، لاَ تَحْــفَلْ بِتَحْذِيرِ
فَالنَّاسُ قَدْ ضَجِرُوا مِنْ«شِيعَةٍ» جَهَرَتْ
بِخُــبْثِ فِعْـــــلٍ وَتَقْــتِيلٍ وَ تَدْمِيرِ
«حَمَّادُ»[4] أَغْرَوْهُ بِالْعِصْيَانِ فَاعْــفُ، فَإِ
نَّ الْعَفْــوُ عَنْ قُدْرَةٍ مِنْ فِــعْلِ مَبْــرُورِ
وَبِــرَّ«سَيِّــدَةً»[2]رَبَّتْكَ فِي صِغَرٍ   وَانْــحَــرْبِمَــأْتَمِهَا شَتَّى الْمَنَاحِيرِ

(1) العوازير جمع عازرة وهي المربية والمساعدة (2) هي «السيدة أم ملال» عمّة «الْمعز» ولَها قصر بـ«الْمنستير» به مسجدها وقبرها .(م.2و6).(3) «النواكير» هم «النكّار» أصحاب مذهب انتشر في ذلك الزمن في مواجهة «الدولة الرستمية» إلى جانب الصفرية والْمعتزلة والْخوارج والشيعة. (م.2). (4) «حــمّاد» هو عمّ «الْمعز» ولاه «آشير» فخرج عليه فلما انتصر عليه «الْمعز» عفا عنه وأكرم ولده غاية الإكرام بـ«الْمنصورية». (م.2و12).

وَاجْعَلْ لِنَاوُوسِهَا ذِكْرًا تَنَاقَلُهُ الْأَجْيَالُ فِي ذِكْرِهِمْ لِلْمَآثِيرِ
وَابْنِ«الْخَوَرْنَقَ»[5] إيوَانًا،وَتَذْكِرَةً مَصَانعًا، أَوْ قُصُورًا كَالأَكَاسِير
إنْ خَالَفَتْ«قَفْصَةٌ» أَوْ«بَاجَةٌ»فَلَقَدْ رَأَوْا بِـ«جرْبَةَ»[6] أَفْعَالَ الْعَنَاتِير
قَدْ خُضْتَ لُجَّتَهَا، وَاحْتَزْتَ حَوْزَتَها خَلَّصْتَ رِبْقَتَهَا مِنْ خَطْمِ عُسْبُورِ[7]
وَإنْ«صَفَاقُسُ»خَالَفَتْ وَ«سُوسَةُ» لَمْ تَكُنْ بأَحْسَنَ فِي الْوَفَاءِ وَالسِّيَر
فَبِـ«الْمُنَسْتِير»تَلْقَىالدَّعْمَ مِنْ كَرَمِ الْأَحْبَاب فِي سعَةٍ، بِالْجُهْد وَالْمِير
فِيهَا الرَّخَاءُ وَفِيهَا الْعَيْشُ مُؤْتَلِفٌ وَالنَّفْسَ تُلْهِمُهَا أَحْلَى التَّعَابِير
وَدِقَّةُ الشِّعْرِ وَالأَلْحَانِ يَعْرِفُهَا فِيكُمْ وَ لَمْ يَنْسَهَا «شَعْبُ الْمُنَسْتِير»

---

(5) «الْخورنق» قصر بناه «الْمعز بن باديس» تشبّها بِخورنق «النعمان بن الْمنذر» ، ومعناه مَجلس الْملك ومكان راحته. (م.2و12). (6) إشارة إلى فتح «الْمعز» لِجزيرة «جربة» وضمها لِحكمه .(7) العسبور هو ولد الكلب من الذّئبة، أي هجين.

الزحفة الْهلالية

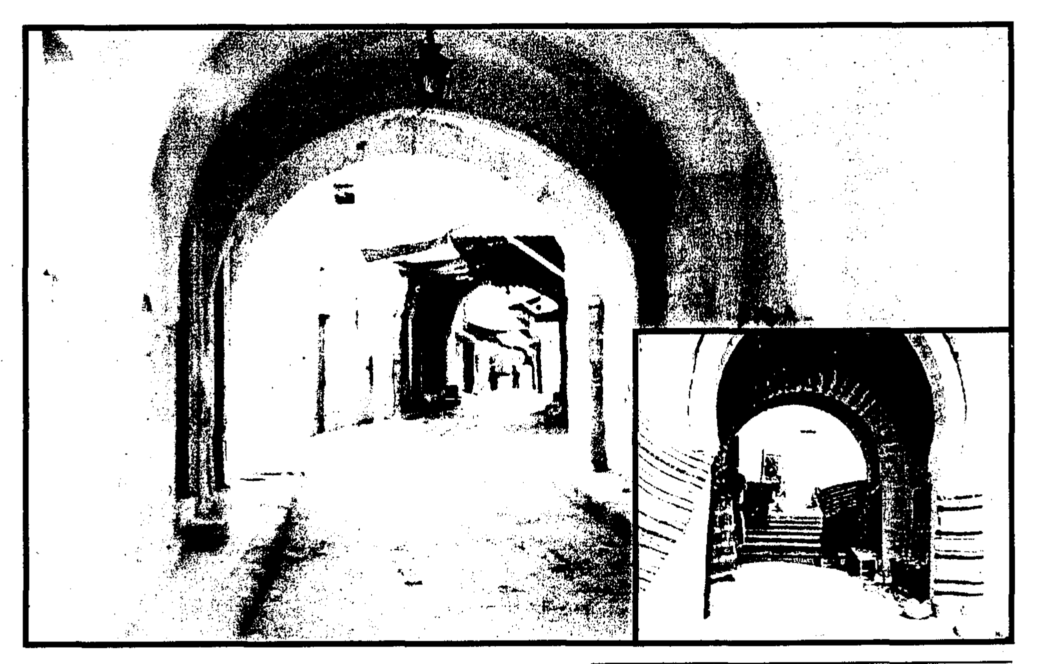
«مُعـزٌّ» إنْ تَقُلِ الأَشْعَارَ مِنْ حَرَجٍ فَالنَّاسُ لَنْ يَـرْعَوُوا عَنْ حَبْكِ تَزْوِيرِ
«وَفيكَ صَاحَبْتُ قَوْمًالاَخلاَقَ لَهُمْ»[1] جـوَارُهُمْ يُتَّـقَى مِثْلَ الْمَـعَاقِيرِ[2]
«لَوْلاَكَ مَاكُنْتُ أَدْرِي أَنَّهُمْ خُلِـقُوا» مَا أَلْطَفَ السَّبْكَ فِي تَعْرِيضٍ[3] تَغْرِيرا!
وَ صَاحِبُ الْمُلْك لاَ تَأْمَنْ بَـوَائِـقَهُ فَالْمُلْكُ يُحْسَبُ مِنْ ضِمْنِ الْعَـوَاقِيرِ
فَلاَ تَـثِـقْ بِصَدِيقٍ كَانَ سَـيِّـدُهُ يَرَاكَ دَوْمًا كَعَبْدٍ فِي الْمَحَـاقِـيرِ
يَقُـولُ: "أَدَّبْـتُهُ"، إنْ نَالَ مِنْكَ وَإنْ أَنْتَ الَّـذِي نَالَ لاَ تَحْـظَى بِتَوْقِيرِ
هَا قَـدْ رَمَاكَ بِأَعْـدَاءٍ يُـؤَلِّـبُهُمْ كَيْ يُخْضِعـُوكَ وَ تَلْقَى كُلَّ مَحْذُورِ
فَـ«زَغْبَةٌ»وَ«رِيَاحٌ»[4] أُرْسِلُوا وَ«بَنُو هِـلاَلَ» فِي نِقْمَةٍ مِنْ دُونِ تَحْذِيرِ
لَمْ تَسْتَطِعْ صَدَّهُمْ ، فَخَـرَّبُوا وَغَزَوْا وَلَمْ يَكُـنْ حَظُّـكُمْ طَلْقَ الأَسَارِيرِ
فَارْجِعْ لِـ«مَهْدِيَّةٍ»وَاخْلَعْ وِشَاحَ إمَا رَةً عَـلَـى وَلَـدٍ بِالْعِـزِّ مَخْفُورِ
لاَ تَخْشَ مَنْقَـصَةً مِنْ قُوتِكُمْ، فَلَكَمْ دَرَّتْ سَـمَاحَتُكُمْ فِي الأَعْصُرِالْقُورِ
فَبِـ«الْمُنَسْتِيرِ» أَثْـمَـارٌ وَ أَغْـذِيَةٌ لَمْ تَنْـقَـطِعْ أَبَـدًا عَنْ شَدِّ مَأْزُورِ
فَانْظُرْ «مُعِزًّا!»بِعَـيْنِ الـرَّأْيِ فِي بَلَدٍ دَقَّتْ مَحَـاسِـنُهُ عَنْ كُلِّ تَصْوِيرِ

(1)هذا الصدر وصدر البيت الّذي يليه بيت من الشعر «للمعز بن باديس» يعرّض فيه ببني عبيد لدى وزير «الْمستنصر» الذي كان صديقه ، لكن الوزير أبرّ سيده وغدر بصاحبه.(م.2) والبيت:

«وَفِيكَ صَاحَبْتُ قَوْمًا لاَ خَلاَقَ لَهُمْ لَوْلاَكَ مَاكُنْتُ أَدْرِي أَنَّهُمْ خُلِقُوا»

(2)المعاقير)جمع معقَرة) وهي الأرض الكثيرة العقارب(3) «التعريض» هوكناية بعيدة وخفية ولا يظهر فيها الْموصوف وهي من أبعد الكنايات مقصدا. (4) «رياح» و«زغبة» و«عدي» بطون من «عامر بن صعصعة» أعراب من «نَجد» سكنوا «الصعيد» فأرسلهم «الْمستننصر العبيدي» على «الْمعز » لينتقم منه. (م.2).

وَاخْتَرْ بِهِ مَرْقَدًا تَهْنَأُ بِهِ رِمَمٌ بِالْخُلْدِ فِي دِعَةٍ ، شَأْنَ الْمَبَارِيرِ
فِي الضِّيقِ جَاءَ أَبُوإِسْحَاقَ[5] فَانْفَرَجَتْ عَنْهُ الْهُمُومُ وَكَانَتْ كَالْجَنَازِيرِ[6]
«بَنُو هِلَالٍ» أَنَاخُوا حَوْلَهُ وَكُفُوا بِنَغْبَةٍ مِنْ ظَمًا مِنْ غَيْرِ تَنْغِيرِ[7]
وَهُمْ قَسَاوِرَةٌ ، لَكِنْ شُيُوخُهُمُ كَانُواجَهَابِذَةً مِنَ الْقَسَاطِيرِ[8]
فَهَادَنُوا أَهْلَهُ نَاسِينَ مَاجَهِدُوا مِنْ جَدْبِ نَجْدٍ وَأَعْوَامٍ قَوَاشِيرِ[9]
وَرَكَّزُوا الضَّادَ فِي الأَجْيَالِ وَاجْتَهَدُوا حَتَّى غَدَتْ لُغَةَ الأَسْوَاقِ وَالدُّورِ



(5) هو أبو إسحاق المعافري الفقيه وقد التجأ إلى المنستير عند محنته أمام المعزّ بن باديس سنة 438هـ وتوفّي 443 هـ ودفن بالقيروان وحضر جنازته المعز بن باديس نفسه.(6) الجنازير جمع جنزير وهو السلاسل (7)«النغبة» هي القطرة الكافية لبل شفاه الظمآن، و«التنغير» الشرب الكثير على الظمإ. (8) «قساورة» جمع قَسْوَر وهو الشجاع الجريء. و«الجهابذة» جمع جَهْبَذ وهو العارف المميز لدقائق الأمور ، و«القساطير» جمع «قِسْطَار» وهو الجهبذ. (9) «قواشير» جمع قَاشُور وهو السنة المجدبة .

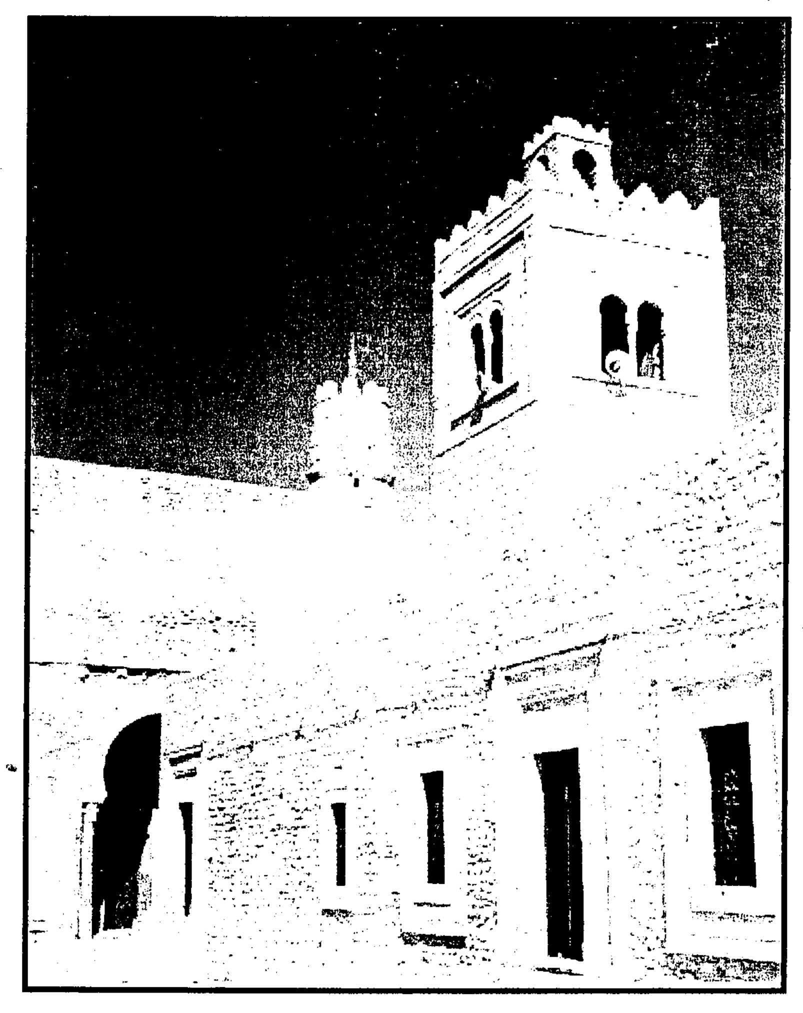
المنستير الصنهاجية

«صَنْهَاجَةَ»الْخَيْرِ رُدُّوا شِرْعَةًصَمَدَتْ رَغْمَ الْعُتَاةِ وَ صَوْلاَتِ الْجَبَابِيرِ
وَوَسِّعُواجَامِعًا ضَاقَتْ جَوَانِبُهُ وَ عَمِّرُوا حَوْلَهُ بِكُلِّ مَيْسُورِ
بِقَصْرِ «سَيِّدَة»[1] الأَمْجَادِ فَافْتَخِرُوا أَحْجَارُهُ نُقِشَتْ بِالذِّكْرِ وَالنُّورِ
وَذَاكَ مَسْجِدُهَا كَالْوَشْيِ نَقْشَتُهُ دَقَّتْ مَحَاسِنُهَا فِي عَيْنِ نَاظُورِ
يَا «آلَ صَنْهَاجَةَ» هَذِي مَدِينَتُكُمْ فِيهَا مَضَاجِعُكُمْ لِنَفْخَةِ الصُّورِ
نَامَتْ عِظَامُ «بُلُكِّينَ» بِهَا شَرَفًا يَا خَيْرَ مَنْزِلَةٍ ضَمَّتْ «بَنِي زِيرِي»[2]
بَكَتْ«وَرِكْلاَنُ»[3]فِي تَضْيِيعِهِمْ أَسَفًا أَنْ لَمْ تَرَ مِثْلَ أَمْجَادِ «الْمُنَسْتِيرِ»
فَصَارَ فِي خَلَفِ الأَعْقَابِ سُنَّتَهُمْ حَتَّى الْمُعِزِّ وَمَنْ رَبَّتْهُ فِي الْخَيرِ
سَنُّوا بِذَلِكَ فِي الأَتْبَاعِ فَاتَّخَذُوا فِيهَا قُبُورَهُمُ مِنَ الْمَخَايِيرِ
مِنْهُمْ «أُمَيَّةُ»[4]وَ «الْمَازِرِيُّ»[5]حَكِيمَا الدَّهْرِ، وَالْفُضَلاَ أَهْلُ الْمَفَاخِيرِ
وَالدُّورُ قَدْ نُثِرَتْ مِنْ حَوْلِ مُنْتَبَذٍ «خِلْوِيَّةٍ»[6] بُنِيَتْ مِنْ جَانِبِ السُّورِ

---

(1) هو «قصر السيدة» الْموجودة الآن خرائبه في مدخل نزل «اسبلاناد» وهو قبلة «الْجامع الكبير» وبه مسجد ما زال قائما إلى الآن بسقفه ومِحرابه الْمنقوش بنقش لا يَختلف عن نقش مِحراب«الْجامع الكبير». (2) من الثابت أن «بلكين بن زيري» مؤسس الدولة الصنهاجية مدفون بـ«الْمنستير» وقد نقل إليها بعد وفاته بالقولنج في «واركلان» ، ومشهد قبره هو الآن سارية من سواري «مسجد الرحْمة» بـ«الباب الغربي». (3) «واركلان» المكان الّذي مات فيه بلكّين بن زيري (4)«أُمَيَّة»هو أبو الصّلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الفاضل الشاعر الفلكي الحكيم(5) «المازري» هو الإمام المازري الفقيه الحكيم (6)«الْخلوية» مكان قريب من السور وينزل إليه بدركات ثلاث أو أربع وكان مزارا حتّى وقع هدم أسوار «الْمنستير» في عهد الإستقلال،ويتوقّع أنها من الآثار الصنهاجية وقد تكون خلوة من خلوات بعض العباد والزهاد قرب حَمام (سيدي عامر) .

حَلَّتْ بِهَا الْبَرَكَاتُ الْغُرُّ،يَقْصِدُهَا طُلاَّبُهَا زُمَرًا عَقْدًا بِتَوْقِيرِ
يَلْقَوْنَ مِنْ ثُمُرِ الأَلْبَابِ مَاطَفَحَتْ أَوْطَابُ أَشْيَاخِهِمْ مِنْ كُلِّ مَبْرُورِ
يُرْوُونَ غُلَّتَهُمْ مِنْ فَيْضِ مَا عَرَفُوا وَيَرْجِعُونَ بِأَوْقَارِ النَّحَارِيرِ
مِنْ فِقْهِ مَالِكَ أَوْ رِسَالَةِ ابْنِ أَبِي زَيْد، وَمِنْ سُنَنٍ وَأَنْوَاعِ التَّفَاسِيرِ
وَحِكْمَةٍ وَعُلُومِ النَّقْلِ مَا اجْتَهَدَتْ فِيهِ الْعُقُولُ وَ مَا صَحَّ عَنِ الْغِيرِ



إمارة تَميم

فِي جَلْبِهَا[1] إنْ أَتَتْ يَكْفِي السَّبِيبُ[2] وَفِي الإِدْبَــارِ قَدْ أَبْطَلَتْ كُلَّ الأَكَاسِيرِ[3]
لَمَّا تَوَلَّى « تَمِيمٌ» بَــعْــدَ وَالِــدِهِ مُسْتَــقْبِلاًصَامِـــدًا أَعْتَى الْمَعَاسِيرِ
شَقَّ الْوُلاَةُ الْعَصَا يَحْــدُوهُمْ طَمَعٌ فِي الْمُلْكِ إِذْ كُـــلُّهُمْ يَسْعَى لِتَأْمِيرِ
وَاسْتَضْعَفُوهُ كَلَيْـــثٍ شُـــجَّ سَاعِدُهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ صَفِّهِ غَيْــرُ «الْمُنَسْتِيرِ»
عَاثَ الْخَــوَارِجُ فِي كُلِّ الْبِلاَدِ فَهَـــذَا«ابْنُ خُرَاسَانَ»[4] فِي بَعْضِ الْمَغَارِيرِ
مِنْ أَهْلِ«تُونسَ» قَدْ عَصَى وَغَرَّ بِهِمْ فِي شَرٍّ مُعْتَــمَةٍ قَــيْدَ الْمَقَــاطِيرِ[5]
فَجَاءَهُ وَاثِـــبًا كَاللَّـــيْـــثِ، حَاصَرَهُ حَــتَّى غَــدَا تَائِبًا يَسْــعَى لِتَكْفِيرِ
أَلْقَى السِّلاَحَ وَ أَعْطَى الْعَهْدَ مُلْتَزِمًا أَشْـــرَاطَ سَيِّـــدِهِ فِي كُلِّ تَدْبِيرِ
وَ تِلْكَ «سُوسَةُ»قَدْ قَامَتْ فَحَاصَرَهَا حَتَّى اسْــتَــقَامَتْ لَهُ كَالثَّوْرِ لِلنِّيرِ
أَلْقَتْ لَهُ بِمَقَـــالِيـــدِ الإِمَـــارَةِ لاَ تَبْغِي سِوَى عَفْوِهِ وَ طَوْعَ مَـــأْمُورِ
«عَبْدَالْحَمِيدِ»[6] احْتَسِبْ للهِ صُنْعَ تَمِيـــمٍ وَانْشَرِحْ ، وَاقْبَــلَنْ عُذْرًا لِمَعْذُورِ
فَالشَّيْخُ عِنْـــدَ اشْتِـــدَادِ الأَمْرِ مُتَّهَمٌ قَبْلَ السَّــفِــيهِ، وَذَا مِنْ سُوءِ تَقْدِيرِ

(1) تذكير بالْمثل الدارج (إذا جات تْجيبها سبيبة وإذا مشت تقطّع السلاسل).(2) «السبيب» واحدته «سبيبة» وهو شعر ذيل الفرس. (3) «أكاسير» جمع «إكسير» وهو الْجوهر العجيب الذي يُحيل الْمعادن ذهبا في الكيمياء القديـــمة.(4) هو «ابن خراسان» كان واليا«لتَميم» بــ«تونس» فقام بها ثائرا،فحاصره «تَميم» حتّى نزل على شروطه وصالَحه.(م.2). (5) «الْمقاطير» جَمع مقطورة وهي خشبة فيها خروق يُدخل فيها أرجل الْمساجين. (6) هو المفتي الزكي عبد الحميد الصائغ دفين سوسة والمتوفّى سنة 486هـــ وهو شيخ الإمام المازري وقد ضربه تميم في جماعة من أهل سوسة فانقطع الشيخ عن الناس ولزم داره، ورغم اعتذار تميم له لم ينشرح و لم يرجع إلى الفتيا إلاّ بعد دخول الإفرنج وذهاب دولة بني زيري.(م.1)

أَمَّا تَمِيمٌ فَإِنَّ الْمُـــلْكَ يَـــدْفَـــعُـــهُ إِلَى ارْتِكَابِ الْخَطَا مِنْ كُلِّ مَحْظُورِ
فَجَنَّدَ الجُنْدَ مِنْ جَمْـــعِ الْبَرَابِـــرِ،وَالْــــأَعْرَابُ يُنْـــفِرُهَا صَوْتُ الدَّنَــانِيرِ
وَسَارَ مِنْ تَوِّهِ إِلَى «صَـــفَاقُسَ» كَيْ يُهَاجِمَ«الْبُــرْغُوَاطِي»[7] دُونَ تَأْخِيرِ
أَرْدَاهُ مُنْهَــزِمًا يَجْـــرِي بِلاَ مَهَلٍ مِنْ خَوْفِ صَاعِقَةٍ أَوْ وَقْعِ شَاقُورِ[8]
وَ«النَّاظِرُ بْنُ عَلاَءِ النَّاسِ»[9] عَادَ إِلَى نَقْضِ الْعُهُـــودِ وَإِفْــسَـــادٍ وَتَكْدِيرِ
لَوْلاَ«رِيَاحٌ»تَصَدَّتْ فِي«سَبِيبَةَ»[10]لَمْ يَكُنْ «تَمِيمٌ» بِـنَـــاجٍ مِنْ مَحَاذِيرِ
صَارَ الْعِدَى خَـــوَلاً مِنْ بَعْدِ فُرْقَتِهِمْ وَهْوَ الطَّـــرِيقُ إِلَى حُسْنِ التَّـــدَابِيرِ
فَـــصَاهَرَ «ابْنَ عَلاَءِ النَّاسِ»بِابْنَتِـــهِ فَكَـــانَ تَـــــزْوِيجُهَا إِخْمَادَ عِثْيِرِ[11]
«بِلاَّرَةَ»[12]الْخَيْرِ كُونِي خَيْرَ مَنْ وَصَلَتْ
بَيْنَ الْفَرِيـــقَيْـــنِ مِنْ صَـــــدْعٍ لِتَجْبِيرِ
فَالأَصْـــلُ أَنَّهُمُ أَبْـــنَا عُمُومَـــتِكُمْ وَالْخَـــرْقُ فِي الْحِجْـــرِ لَيْسَ بِمَبْرُورِ
عَلَّ الْخِصَامَ يَحُدُّ مِنْ فَـــظَاعَـــتِهِ تَجْمِيعُ جَـــيْشِهِمَا لِصَدِّ «رُوجِيرِ»[13]
أَوْخَضْدِشَوْكَةِ مَنْ رَامَ الْخُرُوجَ عَلَى صَـــــفِّ الْـــوِئَامِ بِأَوْهَامِ الْمَغَارِيرِ

---

(7) هو «حَمُّو ابن فلفل البرغواطي» ثار ضدّ «تَميم» بـــ«صفاقس» فخرج إليه بالبربر والعرب من «زغبة» و«رياح» فهزمه إلى «قابس» وأجاره «ابن جامع» هناك فحاصر «تَميم» «صفاقس» و«قابس» في نفس الوقت.(م.2).(8) «الشاقور» الداهية. (9) «الناظر بن علاء الناس بن حـــمّاد» ابن عمّ «تَميم» وقد هاجم «إفريقية» ،وباعت «رياح» منه «القيروان» فترل بها «بنو قرّة» وأطردوا منها «بني زغبة». (م.2). (10) «سبيبة» هنا هي مدينة «سبيبة» بالغرب التونسي. (11) «العثير» هو العِثْيرُ وهو غبار سنابك الْخيل. (12) «بِلاَّرَةَ» هي ابنة «تَميم» وقد زوّجها «للنّاظر بن علاء الناس» حاكم «بجاية» فتكوّن بذلك نوع من الوفاق بين الدولتين(13) «روجير» هو «روجار Roger II» ملك النورمان الذي أخذ يهاجم «صقلية»ويَحتلها مستعمرا للمسلمين بها (وقد أفتى الْمازريّ في ذلك بعض فتاويه). (م.2و12).

مِنْ بَعْدِهَا خَرَجَ «الصَّخْرِيُّ»[14] فِي حَشَدٍ
يَرْجُو مُحَاصَرَةَ الأَقْيَالِ فِي الدُّورِ

«تَمِيمُ» لَمْ يَنْتَظِرْ، بَلْ قَامَ يُطْرِدُهُ فَفَرَّ مُنْهَزِمًا فِي ثَوْبِ مَقْهُورِ
بِالْقَيْرَوَانِ احْتَمَى، لَكِنْ هَزِيمَتُهُ تَوَاصَلَتْ وَلُقِي لَقْوًا[15] الْمَهَازِيرِ

(**14**)هو «مالك بن علي الصخري» وقد جَمع جُموعا وحاصر بها «المهدية» فخرج إليه «تميم» وهزمه إلى «القيروان» ثمّ أطرده منها .(م.2).(**15**) لُقِي لَقوًا أُصيب باللقوة وهو داء اعوجاج الشدق إلى أحد الجانبين وهو من أمراض الأعصاب، والمهازير المصاريع(مهزور مصروع).وهو كناية عن الخوف الشديد.

أطماع النورمان

كَانَ قتَـــالُ «تَميمٍ» للْبُغَـــاة حَكيـــمًا كَيْ يَقـــرِّبه دسْـــتُ الْعَنَاتير

لَكنَّ موْقـــعَـــهُ مَا زَالَ مُضْطَـــرِبًا ... مَا بَيْنَ قَلْعَة«حَمَّاد»[1]وَ«رُوجـــير»

فَسَارَ يَرْدَعُ «نُرْمَانًا» وَقَـــدْ زَحَفُوا ... فَأَوْقَفَ الزَّحْفَ لَكنْ دُونَ تَعْـــزِير

أَصْلَى «صقلّـــيَّةً» أَفْـــلاذَهُ أَمَـــلاً ... في رَدِّ أَمْجَـــادهَا أَوْ بَعْضِ مَـــأْثُور

فَحَازَ«أَيُّـــوبُ»«بَالرْمُو» وَمَا مَعَهَا ... وَ جَازَ«مَازرَةَ الْوَادي »بتَـــقْـــدير

«جَرْجَنْتيَا»لـــ«عَليٍّ» لَمْ تَدُمْ سَكَنًا ... إلاَّ لبضْـــعَـــة أَعْوَامٍ[2] قَـــــوَاشير

لَمْ يَسْتَطِـــــعْ أَنْ يَرَى فيهَا مَسَرَّتَهُ ... أَوْ أَنْ يَقُومَ بإِصْلاَحٍ وَتَعْـــــمـــير

حَتَّى انْبَرَتْ مُدُنٌ في خَضْد شَوْكَته ... في كُلِّ نَاحـــيَـــةٍ منْ تلْكُمُ الدُّور

وَعَادَت الْحَرْبُ في أَرْضِ الْجَنُوب فَكَـــ ... ـــرَّ «ابْنُ الْمُعزِّ» لتَخْـــضيد وَ تَخْدير

بـــ«قَابسٍ» قَامَ «مَكِّيٌّ»[3] بجيرَته ... للْـــ«بُـــرْغُوَاطيِّ» مَنْعًا دُونَ تَبْرير

فَاغْتَاظَ منْهُ «تَميمٌ»وَاستَـــدَارَ لَـــهُ ... وَكَرَّ للْحَرْب في أَعْـــتَى الْمَـــغَافير

إلَى «صَفَاقُسَ» عَادَ للْحصَارِ وَ قَدْ ... رَمَى بِـــ«قَابسَ» أَطْنَابَ الْحَوَاصير

وَهَكَذَا أَطْمَـــعُـــوا الأَرْوَامَ في بَلَدٍ ... لَمْ تَسْـــهَ أَعْيُـــنُهُمْ عَـــنْهُ بتَفْتـــير

---

(1) «قلعة بني حَمّاد» وهي مصدر قلق لـــ«تَميم» في ملكه وغلطة (بلكين) في تقريب بني العم وعصيان وصية الفاطمي وهي عدم تقريب أبناء القرابة لطمعهم وعدم احترامهم لولي نعمتهم القريب. (م.2و12). (2) لَمْ يتمكن «علي» من البقاء بـــ«جرجنتيا» غير أربع سنوات ثم قام النورمان عليه . (3) هو «مكّي بن كامل بن جامع» صاحب «قابس» وهو أمير دولة «بني جامع» بها. (م.2).

وَكَانَ«جنْوِيزَ وَالبِيسَانَ»[4]قَدْجَمَعُوا لِلْغَــزْوِ: أَوَّلُــهُ طَرْدُ «بَنِي زِيرِي»

فَأَطْرَدُوهُمْ إِلَى «مَهْــدِيَّة» وَسَعَوْا لِغَزْوِ سَــاحِلِهَا مِنْ دُونِ تَأْخِــيرِ

مِنْ«جنْوَة»[5]جَاءَت الأَعْلاَجُ تَنْهَبُهَا تُذِيقُ سُــكَّـــانَهَا شَرَّ الْمَحَاذِيرِ

وَقَاوَمَ النَّاسُ ، لَكِنْ لَمْ يَكُنْ لَــهُمُ غَيْرُ الْـفِرَارِ إِلَى حِصْنِ «الْمُنَسْتِير»

فَـآزَرَتْ وَحَمَتْ أَبْـنَاءَ بَجْدَتِهَا وَأَطْعَمَتْ وَسَـقَتْ فِي غَيْرِتَقْـتِيرِ

وَاسَتْ،وَمَـا شَـأْنُ الأُسَاةِ سِوَى تَخْفِيفِ نَائِـبَـةٍ عَنْ نَفْسِ مَقْهُورِ





(4) «جنويز والبيسان» Les Genois et les Pisans وهم ملوك الطوائف الإيطالية التابعين للملك «روجار» وقد هاجَموا «الْمهدية » في غياب «تَميم» في حِصار «صفاقس» و«قابس» معًا.(م.12). (5) «جنوفا» هي الإسم الأصلي لــ«جنوة» ومنها خرجت الْمراكب لغزو الساحل التونسي. (م.16).

زروع السلف حصاد الْخلف

قَضَى «تَميـــمٌ» أَسًى، وَقَلْبُــهُ حَرِجٌ ... أَلْفَى مَحَـــاذيرَهُ منْ سُــوءِ تَدْبــيرِ

«فالْقَصرُوَالْبحْرُوَ الْبُسْتَانُ في نَسَق»[1] ... لَمْ تَسْــتَــطِعْ أَبَدًا رَدًّا للْـــمَقْدُورِ

ضَاعَتْ «صقلِّيَّةٌ» منْ قَبْلِ«أَنْـــدَلُسٍ» ... يَا خَيْبَةً لَحـــقَتْ نَجْـــلَ الْعَـــوَاتيرِ[2]

«جرْجِيسُ»[3]مَاكَانَ يَوْمًا للْوِزَارَة صَا ... لحًا، وَلاَ ورعًا عَـــنْ غـــدْرِ مَغْدُورِ

وَجَاعِـــلُ اللَّيْث سَافًا فِي مُـــطَارَدَة ... يَصْطَـــادُهُ سَافُـــهُ صَيْـــدَ الْعَصَـــافيرِ

«يَحْيَى»[4] سَيُتْـــعِـــبُهُ رَدُّ الْبُغَاة، وَقَدْ ... أَلْقَتْ «قَليبِـــيَةٌ» منْديـــلَ مَقْـــهُورِ

لَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ بِالنَّـــصْرِ مُسْعِـــفَـــةً ... وَلْـــتَحْمِ حَـــوْزَتَهَـــافي دَفْعِ مَحْذُورِ

هَذي السَّوَاحِلُ قَدْ بَاتَتْ مُهَـــيَّـــأَةً ... مَا منْ حُـــمَاة لَهَا في ذي الأَعَاصِيرِ

فَمَالَــ«جرْجِيسَ»لاَيَسْعَى لِكَسْب يَد ... بَـــيْضَاءَ تَنْفَـــعُهُ فِي مُلْك «رُوجيرِ»

يُهْديه نَصْـــرًا عَلَى أَعْـــدَائـــه وَلَقَدْ ... كَانَتْ رَسَـــائلُهُ في كَشْف مَسْتُـــورِ

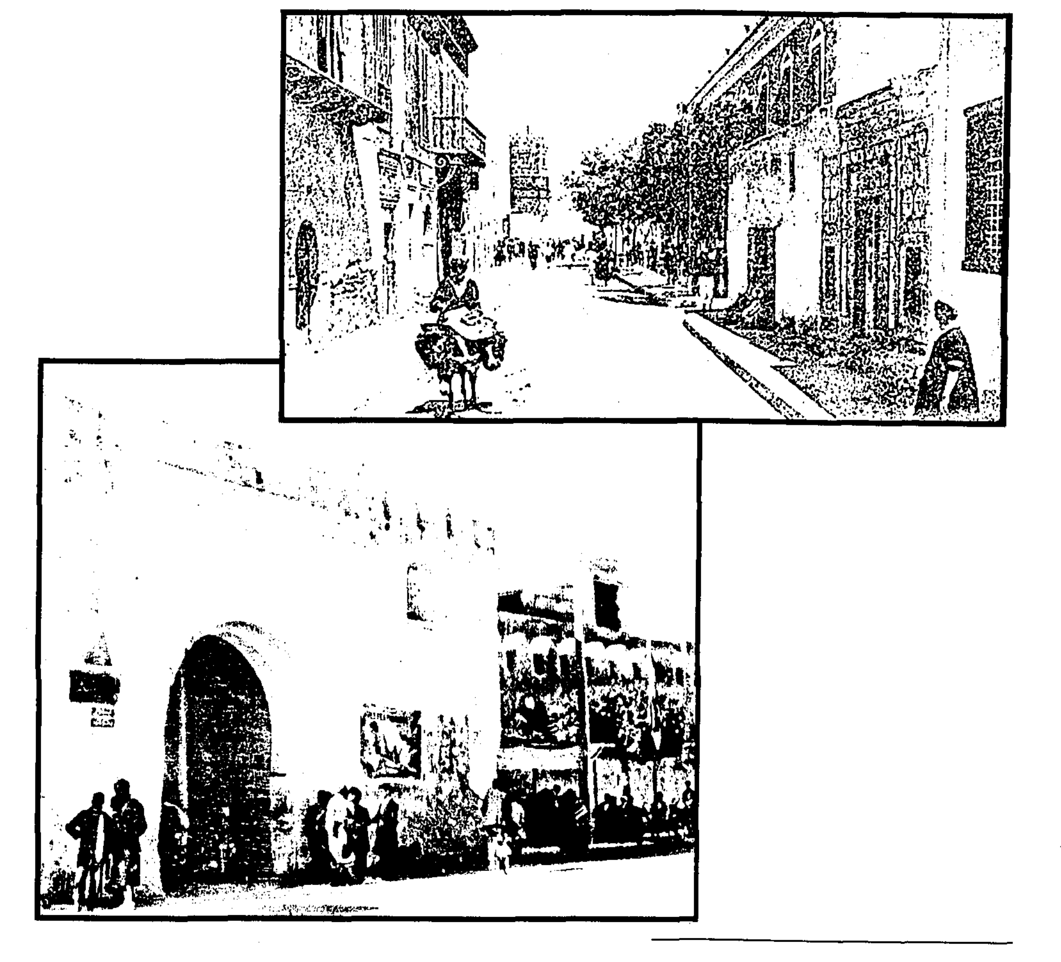
فِي الْبَحْرِ«أَغْـــرِبَةٌ»[5]في أُهْبَة جَهزَتْ ... تَرْجُو إِشَـــارَتَـــهُ لِلْـــبَدْءِ فِي السَّيرِ

إِبْحَارُهُ هَيِّـــنٌ عِنْـــدَ الصَّـــلاَةِ[6] وَقَدْ ... أَعَدَّ عُـــدَّتَـــهُ لغُـــنْمِ تَـــهْـــجِـــيرِ

---

(1) صدر بيت من شعر تميم بن المعز بن باديس :وَالْقَصْرُ وَالْبَحْرُ وَالْبُسْتَانُ فِي نَسَقٍ وَنَحْنُ فِي مُشْرِفٍ مِنْ مَنْظَرٍ بَهِجِ
(2) «العواتير» جَمع عتّار وعتّور وهو الشجاع القوي. (3) هو «جرجيس الأنطاكي» (Georges d'Antioche) استوزره «تَميم» فكان عينا عليه لفائدة «روجار الثاني» ، يبيعه أسراره حتّى خذله في أولاده من بعده. (م.2و12) .
(4) هو «يَحيى بن تَميم بن الْمعزّ» خلف أباه على ملك بني زيري وفتح «قليبية» التي استعصت على أبيه، لكنّه بقي يقاوم الثورات والْهجومات النورمانية حتى الْموت.(م.2و12).(5)«أغربة» مفرده «غُراب» وهو الْمركب الشراعي الضخم الذي كان يَجوب البحر الأبيض الْمتوسط في القرون الوسطى وهو للقراصنة والتجّار وهو مزوّد بالْمدافع والبارود. (6) اغتنم اجتماع النّاس في صلاة الْجمعة وخرج بَحرا إلى «صقلّية». (م.2و12).

سَــارَتْ مَرَاكِبُهُ تَبْغِي «صِــقِلِّيَــةً» بِالْغَــدْرِ قَــدْ وُقِــرَتْ، يَا شَرَّ تَوْقِيرِ!
لَكِنَّ «يَحْيَى» حَــرِيزٌ فِي إِمَارَتِــهِ بِحَجْرَةٍ قَدْ قَـضَى إِلْــقَامَ مَفْغُورِ
قَــادَ الأَسَاطِيــلَ لِلأَرْوَامِ يُرْهِبُهَا فِي كُلِّ عَــامٍ، فَـتَأْتِي بِالتَّــبَاشِيرِ
أَصْلَى الْعَــدُوَّ حُرُوبًا لَيْسَ يَعْرِفُــهَا لَكِنَّــهُ لَمْ يُعِــدْ مَجْــدَ السَّوَابِيرِ[6]
وَمَاتَ فِــي عِــزِّهِ لَــكِنْ وِلاَيَــتُهُ لَمْ تَنْبَلِــجْ أَبَــدًا بِوَمْــضَةِ الــنُّورِ.



(6) «السوابير» جمع سَبُور وسابور وهو نوع من السباع الإفريقية، كناية عن أجداده .

ولاية علي بن يحي الصنهاجي

سَعَى «عَلِيٌّ»[1] إِلَى تَخْفِيفِ وَطْـأَتِهَا   لَـكِنَّ حِمْلَـهُ أَمْسَى جِدَّ مَوْقُورِ

تَخْـلِيصُ«جِرْبَةَ» مَشْـرُوعٌ يَنَالُ بِهِ   إِرْعَـادَ أَعْدَائِـهِ حَتَّى الْمَفَاهِـيرِ[2]

هَيَّا لِحَـرْبِهِ أُسْـطُولاً مَـرَاكِبُهُ   لَمْ تَخْـشَ فِي سَيْرِهَا أَعْتَى الأَعَاصِيرِ

سَارَ إِلَى«جِرْبَـةَ» مُسْتَفْتِحًا فَهَوَتْ   وَخَارَ صَـامِدُهَا قُـدَّامَ عَتُّورِ[3]

قَامَتْ تُنَاكِدُهُ فِي الْمُلْكِ«حَاضِرَةٌ»[4]   فَـعَـاجَ يَخْـنُـقُـهَا تَوًّا بِأُظْفُورِ

فَانْصَاعَ صَاحِبُهَا[5] مُسْتَسْمِحًا وَجِلاً   يَـرْجُو بِمِيـثَـاقِـهِ رَدَّ الْفَوَاقِيرِ

«وَسْلاَتُ»[6] لَمْ يَنْتَظِرْ أَنْ جَاءَهُ مَدَدٌ   حَتَّى غَـدَا خَـرِبًا جَهْـمَ الأَسَارِيرِ

وَ«رَافِعُ الْجَامِعِيُّ»[7] لَمْ يَكُنْ وَرِعًا   فِي غَـدْرِ مَوْلاَهُ بِالْعِصْيَانِ وَالْجُورِ

سَارَتْ مَرَاكِبُهُ فِي الْـيَـمِّ سَابِحَةً   تَـنْـسَابُ فِي دِعَـةٍ رَغْمَ التَّحَاذِيرِ

فَاغْـتَاظَ مِنْـهُ«عَلِـيٌّ» ثُمَّ أَنَّبَـهُ   مُهَـدِّدًا بِـاعْـتِـرَاضٍ لِلْمَوَاخِيرِ[8]

فَخَفَّ مُسْتَنْـجِدًا بِالرُّومِ فِي خَوَرٍ   وَارْتَدَّ مُنْطَرِحًـا فِي حِجْرِ «رُوجِيرِ»

فَـقَامَ يُنْجِـدُهُ بِالْجَيْشِ عَنْ عَجَلٍ   وَجَمَّعَ الْعُرْبَ تَجْـمِيعَ الصَّعَارِيرِ[9]

وَقَـادَهُمْ رَافِـعٌ لِغَـزْوِ «مَهْدِيَةٍ»   فِي ضَمِّهَا طَـامِعًا بِالْمَجْدِ وَالْخِيرِ

---

(1) هو «علي بن يَحيى بن تَميم» ولي بعد أبيه في سنة 509 هـ وتوفّي سنة 515 هـ.(م.2). (2) «الْمفاهير» جَمع مفاهر وهي لَحم الصدر . وارتعاشها كناية عن الرهبة والْخوف. (3) « عتّور» و عتّار وهو الشجاع القوي.(4) هي «تونس الْحاضرة» . (5) هو أميرها «أحْمد بن خراسان» . (6) «وسلات» هو «جبل وسلات» وقد ثار العربان به وأفسدوا فبعث إليهم «علي بن يَحيى» جيشا فشرّدهم. (7) هو «رافع بن مكي» أمير «قابس» وهو عامل «علي بن يَحيى» عليها.(م.2). (8) «الْمواخير» جَمع ماخرة وهي السفينة تَمخر عباب البحر. (9) «الصعارير» مفرده«الصعرور» وهو البسيط الْمتكبّر سيء الْخلق .

لَكِنَّهُ خَابَ، إِذْ أَغْرَى الْجُيُوشَ «عَلِيٌّ» بِالْعَطَايَا وَإِسْبَالِ السَّوَاتِيرِ

وَضَاعَ مَأْمُولُهُ فِي مُلْكِ «مَهْدِيَةٍ» وَعَادَ مُكْتَفِيًا مِنْهَا بِقِطْمِيرِ

«رُوجَارُ» لَمْ يُرْضِهِ دَحْرٌ لِصَاحِبِهِ فَأَرْكَبَ الْجَيْشَ أَصْنَافَ الْعَمَائِيرِ[10]

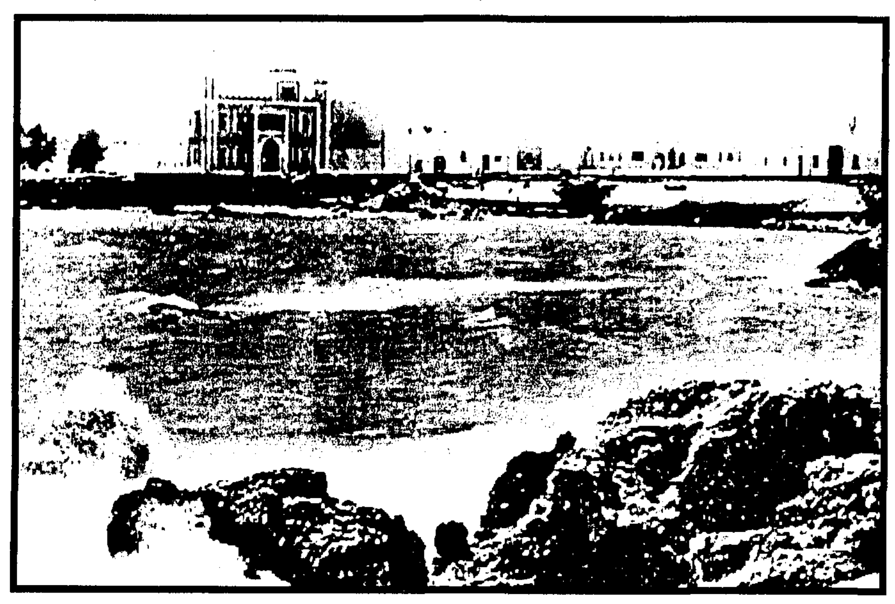
رَأَى «عَلِيٌّ» جُيُوشًا مَا لَهَا عَدَدٌ فَخَافَ مِنْ شَرِّهَا خَوْفَ النَّحَارِيرِ

فَعَزَّزَ الْبُرْجَ[11] بِالأَجْنَادِ تَحْرُسُهُ وَأَغْدَقَ الْمَالَ سَمْحًا بِالْقَنَاطِيرِ

وَسَارَ بَيْنَهُمَا السُّفَّارُ فِي غَضَبٍ كُلٌّ يُلَوِّحُ فِي غَيْظٍ بِتَدْمِيرِ

نَادَى «عَلِيٌّ» سَمِيًّا لَيْسَ يَخْذُلُهُ هُوَ «ابْنُ يُوسُفَ»[12] لَكِنْ بَعْدَ تَأْخِيرِ

فَإِنَّ صُلْحًا جَرَى، لَمْ يُبْنَ عَنْ ثِقَةٍ أَجْلَى الْجُيُوشَ وَلَكِنْ دُونَ تَغْيِيرِ



(10) «العمائير» جَمع «عمائر» وهذه هي جَمع «عمارة» وهي قطعة (الْمركب) البحرية. (11) هو برج «الْمهدية» القائم إلى الآن. (12) هو «علي بن يوسف بن تاشفين الْمرابطي» أمير الْمسلمين بِـ «مراكش»، تولّى الإمارة سنة 500هـ/1107م إلى 537هـ/1143م.(م.2).

الإمام الْمازري وفتاويه

يَا«مَـــازِرِيُّ»[1] أَمَــا أَشْجَتْكَ بَاكِيَةٌ　　تَبْكِي زَمَـــانًا مَضَى بِالعِزِّ وَالْخيرِ

«مَهْدِيَّةٌ» أَصْبَحَتْ نَهْبًا لِمُغْــتَــصِبٍ　　قَدْ ضَـــلَّ أَصْحَابُـــهَافِي لَيْلِ دَيْجُورِ

وَالنَّاسُ قَدْ ضَعُـــفَتْ فِيـــهِمْ عَزَائِمُهُمْ　　ضَاعَتْ مَــوَاقِعُهُمْ فِي خَطِّ عُجْرُورِ[2]

عَلَى شَجَاعَتِهِمْ طُــولُ الْخِلاَفِ أَتَى　　وَالضُّعْفُ أَوْرَثَـــهُمْ خَوْفَ الصَّرَاصِيرِ

هَذِي «الْمُنَسْتِيرُ» مَا زَالَتْ مُــرَابِطَةً　　تُحَارِبُ الــزَّيْفَ مِنْ نَشْرِ «النَّوَاكِيرِ»

تَحْمِي بِأَبْطَالِــهَا فِي الْحَرْبِ حَوْزَتَهَا　　وَغَيْرُ حَـــــوْزَتِهَا لَـــيْسَ بِمَقْــدُورِ

فَالْخَـــرْقُ مُتَّـــسِعٌ ، والرَّتْــقُ مُمْتَنِعٌ　　وَالظَّهْرُ مُنْـــقَطِعٌ ، وَالْقَلْبُ فِي ضِيرِ

رُوحُ الْفِدَا ضَعُفَتْ فِي النَّاسِ فَالْتَمَسُوا　　لِلْحَـــقِّ حَامِــيَـــةً مِثْلَ «الْمُنَسْتِيرِ»

يَا«مَازِرِيُّ» أَقَــمْ فِقْــهًا لِمَذْهَبِ مَا　　لِك فَقَـــدْ فُـــقْتَ فِي فَهْمٍ وَتَفْــسِيرِ

سَارَتْ فَتَـــاوِيكَ فِي الأَصْقَاعِ مُنْجِدَةً　　أَهْلَ الْحِجَى مِنْ ذَوِي الأَحْلاَمِ وَالنُّورِ

حَطَّتْ عَـــنِ الْعَاتِقِ الْمَكْدُودِ مَوْجِدَةً　　مِـــنْ خَرْقِ عَادَاتِه أَوْ فِعْلِ مَحْظُورِ

«أَيَهْجُـــرُونَ بِـــلاَدًا هِيَ مَوْطِـــنُهُمْ　　قَدْ حَازَهَا بَاطِلاً جَيْشٌ لِـــ«ــرُوجِيرِ»

أَمْ يَمْكُـــثُونَ جِـــهَادًا عَلَّ أَنْ يَجِدُوا　　لِلَّـــيْلِ مُنْبَــلَجًا مِنْ بَعْدِ دَيْجُورِ؟ »

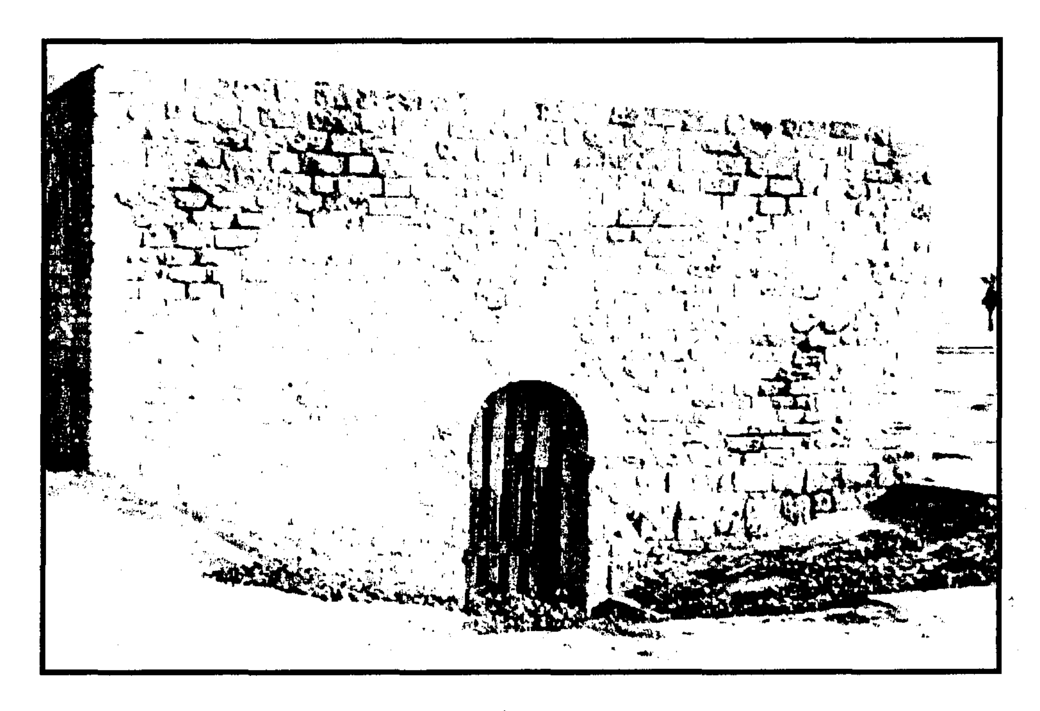
قَالَ الإِمَامُ وَقَدْ لاَحَتْ لِنَـــاظِرِه الْــــفَــتْوَى مُـــــرَجِّحَةً مِنْ غَيْرِ تَغْرِيرِ

«إِنْ يَمْكُــثُوا فَلَهُمْ أَجْرُ الْجِهَادِ إِذَا　　لَمْ يَـــنْقُضُوا عَهْدَهُمْ مِنْ شِدَّةِالضِّيرِ»

---

(1) هو «أبو عبد الله مُحمد بن علي بن عمر التميمي الْمازري الْمهدوي» ولد سنة 453 هـــ/ 1058 م وعاش 83 سنة.وتوفي سنة 536 هـــ ودفن بـــ«الْمنستير» مدفن أهل المهدية آنذاك (م.6). (2) «عجزور» واحد العجاجير وهي خطوط الرمل ترسُمها الرّياح .

يَا«مَازِرِيُّ»اجْتَهِدْ فِي الدِّينِ عَنْ وَرَعٍ   قَدْ قَـادَ أَكْثَـرَهُمْ سَوْطُ الدَّنَانِيرِ
وَاتْرُكْ لَهُمْ أَدَبًا فِي«مُعْلِمٍ»[3] زَخرَتْ   أَوْرَاقُـهُ بِيَـوَاقِيـتِ التَّذَاكِيرِ
لَعَلَّ فِي ظُلْمَـةِ الأَحْدَاثِ نَذْكُرُهَا   فَنَسْتَـنِيرُ بِـهَـا وَقْتَ الدَّيَاجِيرِ
هَذَا«ابْنُ تُومَرْتَ»[4]آتٍ مِنْ مَشَارِقِهَا   مُـحَمَّلاً بِـعُلُـومِ الـدِّينِ وَالْخيرِ
أَوْعِزْ لَهُ عَمَـلاً فِي بَلْدَةٍ تَعِـبَتْ   مِنْ فِسْـقِ أَصْحَابِهَا مِنْ دُونِ تَوْقِيرِ
أَوْعِزْ لَهُ جَاهِدًا تَغْيِـيرَ مُنْـكَرِهَـا   فَالْحَالُ قَدْ عَفِنَتْ مِنْ طُولِ تَـأْخِيرِ



(3) الكتاب هو « الْمعلم بفوائد مسلم » ألّفه الإمام «الْمازري» في تفسير صحيح مسلم .(م، 18 الشيخ مُحمد الشادلي النيفر، الإمام الْمازري وكتابه الْمعلم). (4) هو «مُحمد الْمهدي بن تومرت» درس في الْمشرق عن الإمام «أبي حامد الغزالي» فأخذ عنه الفلسفة وروحه الإصلاحية، ونزل «الْمهدية» فاتّصل بالإمام«الْمازري» الّذي فتح له أبواب الإجتهاد في مذهب «مالك بن أنس» مع التمسّك بالسنّة والأصول.(م.6).

نِهَايَةُ الصَّنْهَاجِيِّينَ

(الأَمْــــرُ لِلَّه مِنْ قَبْــلٍ وَ بَعْــدُ) إِذَا أَجْرَى الأُمُــورَ عَلَى وِفْــقِ الْمَقَادِيرِ

هَذَا «عَلِيٌّ» تَخَلَّى لابْــنِه «حَسَنٍ»[1] وَلَمْ يَــزَلْ يَافِــعًا غَــضَّ الأَظَافِيرِ

مَــوْلاَهُ«صَنْدَلُ »[2] قَدْ يَكْفِيهِ مُؤْنَتَهَا لَكِــنَّ دَوْلَــتَــهُمْ آلَــتْ لِتَــتْبِيرِ

صَارَتْ سَفِــينَتُهُمْ فِي الْبَحْرِ ضَائِــعَةً ضَــيَــاعَ قَــارُورَةٍ فِي كَفِّ سِكِّيرِ

«رُوجَارُ» أَطْــمَعَهُ سِــنُّ الْغُلاَمِ وَقَدْ بَاتَتْ عَــمَــائِرُهُ كَصَدْرِ مَصْدُورِ

أَضْرَى بِهِ السُّقْمُ وَارْتَجَّــتْ جَوَانِحُهُ لاَ شَيْءَ يُمْــسِــكُهُ مِنْ شِدَّةِ الضِّيرِ

فَاسْتَجْمَعَ«الْحَسَنُ»الأَجْــنَادَفِي عَدَدٍ لَمْ يَجْــتَمِعْ قَبْــلَهُ لِلْجَدِّ «مَنْصُورِ»

بِرَأْسِ دِيمَاسَ قَــامَ الْقَصْرُ فِي شَرَفٍ يُغْرِي الْمَرَاكِــبَ بِالأَزْوَادِ وَالْمِــيرِ

بِهِ احْتَمَتْ فِــرْقَةٌ مِنَ الْغُــزَاةِ[3] تَظُـــنُّ الأَمْــنَ فِي رَحْــبِهِ مِنْ وَرَا السُّورِ

فَاصْطَادَهَا عَسْكَرُ التَّــوْفِيقِ دُونَ عَنَاءٍ أَخْــذَ مُقْــــتَــنِصٍ غِرَّ الْعَصَافِيرِ

وَكَانَ فِي ذَاكَ لِلأَعْـــــدَاءِ مَوْعِظَةٌ وَكَانَ فِي ذَاكَ تَثْــبِيـــــتٌ لِمَأْزُورِ

«أُمَيَّةَ»[4] الشِّعْرِ! خَلِّدْ فِي الْوَرَى أَثَرًا وَارْقُــمْ مَــآثِــرَهُ ضِمْــنَ الْمَآثِيرِ

أَجْنَادُ«رُوجَارَ»فِي الأَعْمَاقِ قَدْغَرِقَتْ بِرِيحِ نَحْــسٍ عَــلَتْ حُمَّى الأَعَاصِيرِ

---

(1) هو «الْحسن بن علي بن يَحيى بن تَميم» آخر ملوك الصنهاجيين ، تولى الْحكم بحياة والده وبويع بعد وفاته في نفس سنة 515 هـــ وعمره 12 سنة .(م.2و12).(2) «صندل» قائد جيوش «علي» وقد قام بتدبير الدّولة أيام «الْحسن» وكان أمينا لسيده.(م.2و12).(3) «القصر» هو قصر «ديماس»احتمى به طائفة من النصارى فأخذهم الْمسلمون. (م.2و12). (4)هو الشاعر الفاضل أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت ولد بدانية سنة 460هـــ وتوفّي بالمهدية سنة 529هـــ ودُفِنَ بالمنستير وهو أديب شاعر وطبيب حكيم وفلكي عاش في قصر علي بن يحي بن تميم الصنهاجي وكتب كتبا عديدة.

لَمْ يَنْجُ مِنْ خَيْلِهَا إلاَّ فَوَارِسُ قَدْ أَلْقَتْ بِهِمْ غَرَقًا فِي عُمْقٍ مَوْهُورِ[5]

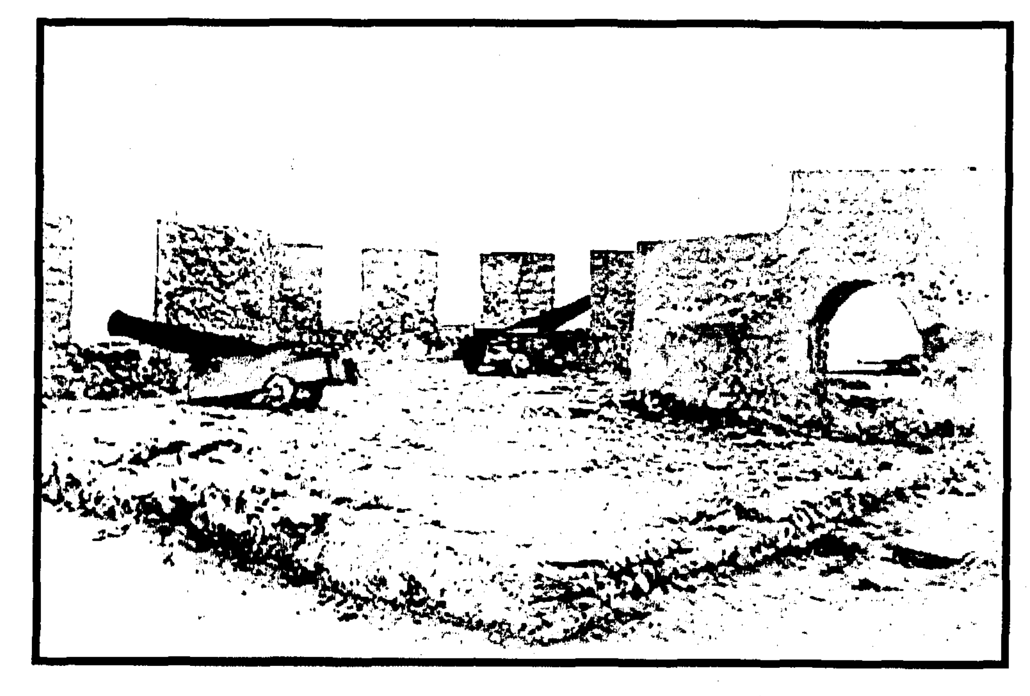
لَكِنَّ «رُوجَارَ» لَمْ يَيْأَسْ وَبَاتَ يُفَا رِصُ السَّوَانِحَ مِنْ شُغْلٍ وَتَقْصِيرِ

لَمْ يَنْسَ مَأْرَبَهُ رَغْمَ الْفَوَاجِعِ وَالْـ آلاَمِ يَجْرَعُهَا جَرْعَ الْمَحَارِيرِ[6]

حَتَّى أَتَى«ابْنُ الْعَزِيزِ»[7] غَازِيًا«حَسَنًا» فَانْقَضَّ يُنْجِدُهُ فِي قَفْزِ سَابُورِ[8]

مِنْ دُونِمَا طَلَبٍ أَرْسَتْ مَرَاكِبُهُ فِي بَحْرِ «مَهْدِيَّةٍ» مِنْ غَيْرِ تَأْخِيرِ

تَرَاجَعَ «يَحْيَى» عُزُوفًا عَنْ مَوَاقِعِهِ وَصَارَ سَاحِلُنَا فِي كَفِّ «رُوجِيرِ»



.(5) الْمكان الْموهور هو الذي لا مَخرج منه.(6) «الْمَحَارِير» جمع محرور أي المحموم:مرتفع الحرارة. (7) هو «يَحيى بنُ العزيز الْحمّادي» صاحب «بِجاية» أطمعه أهل «الْمهدية» بتسليمها إليه إثر الْخذال«الْحسن» أمام«روجار» وهدنته معه على مضض وكان ذلك سنة 529هـ. (م.2).(8) «السابور» والسّبّور جمعه «السوابير» وهو نوع من السباع الإفريقية.

الْموجة الْمالحة

وَخَانَ«رُوجَارُ»عَهْدًاكَانَ مَعْ«حَسَنٍ» وَلَمْ يُرَاعِ حُقُوقَ الْعَقْدِ فِي جُورِ
فَعَاثَ فِيهَا مُنَكِّلاً وَمُنْتَقِمًا وَجَاءَ جَدْبٌ فَأَوْدَى بِالْمَذَاخِيرِ
وَالنَّاسُ أَوْدَى بِهِمْ عُرْيٌ وَمَسْغَبَةٌ وَالْمَوْتُ أَبْدَى لَهُمْ أَنْيَابَ تَكْشِيرِ
لَمْ تَنْجُ مِنْ شَرِّهِ إِلاَّ «قَلِيبِيَةٌ» وَإِثْرَهَا «تُونسٌ» أُمُّ الْحَوَاضِيرِ
وَقَاوَمَ النَّاسُ عَنْ حِصْنِ«سَقَانِصِهِمْ» حَتَّى غَدَتْ أَرْضُهُمْ مِنْ بَعْدِتَخْضِيرِ
حَمْرَاءَ قَانِيَةً تَسْعَى بِهَا رَخَمٌ تَقْتَاتُ مِنْ جِيَفِ الأَرْوَامِ وَالْمُورِ
فَهَذِهِ مَوْجَةٌ كَالدَّمْعِ مَالِحَةٌ[1] أَوْدَتْ بِأَبْطَالِهَا الْغُرِّ الْمَغَاوِيرِ
وَ«الْمَازِرِيُّ» سَرَتْ أَنْفَاسُهُ لِجنا ن الْخُلْدِ وَادِعَةً مِنْ فِعْلٍ مَبْرُورِ
فِي جَنَّةٍ زُخْرِفَتْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَقَدْ ذَابَتْ مَتَاعِبُهُمْ فِي صُحْبَةِ الْحُورِ
يَا «مَازِرِيُّ!»اسْتَرِحْ فِي تُرْبِهَا فَلَقَدْ خَلَّدْتَ ذِكْرَاكَ فِي ذِكْرِ«الْمُنَسْتِيرِ»
مَا زَالَ حَيُّهُمُ لاَ يَنْثَنِي أَبَدًا عَنْ كَيْدِ أَعْدَائِهِمْ أَوْ حَفْرِ أُحْفُورِ
لَنْ يَهْنَأَ الرُّومُ فِي أَرْجَائِهَا أَبَداً مَادَامَ فِي كَفِّهِ نَصْلٌ لأُفْطُورِ[2]
وَحَلَّ«رُوجَارُ»فِي«مَهْدِيَّةٍ» وَمَضَى مُسْتَفْتِحًا عَهْدَهُ بِالْعَدْلِ لاَ الْجُورِ
أَقَامَ دَوْلَتَهُ مُتَّخِذًا لَقَبَ"الْمُعْتَزِّ بِاللَّهِ "[3] فِي ضَرْبِ الدَّنَانِيرِ

---

(1) إشارة إلى أسطورة «الْمنستير» (الْموجة الْمالحة التي تعقبها الْموجة الْحلوة). (2) «النصل الأفطور» الذي به تشقق فهو.لا يقطع . (3) لقب «روجار» نفسه بلقب «الْمعتزّ باللّه » على هيئة خلفاء وأمراء الْمسلمين للتغرير بالْجماهير ، لأنه إن تظاهر بالإسلام فهو يكسب عطف النّاس جَميعا ويدخلون في طاعته غير ملتفتين لجنسيته ، وضرب الدنانير بهذا الإسم باللغة العربية من أحد الوجهين ، ومن الوجه الآخر «الْملك روجار الثاني » (م، 19).

شَعَائِرُ الدِّينِ فِي أَوْقَاتِهَا حُفِظَتْ وَعَادَةُ النَّـــاسِ لَمْ تُـــنَـــلْ بِتَغْيِيرِ
يُقْضَى بِأَقْضِيَةِ الإِسْـــلاَمِ بَيْنَهُمُ لَكِنْ زَكَـــاتَـــهُـــمُ لِصَالِحِ الْغيرِ
فَاغْتَرَّ نَاسٌ، وَ قَامَ الْبَعْضُ يَخْدُمُهُ وَالنُّصْحَ يَمْحَضُ فِي جِدٍّ وَتَشْمِيرِ
وَالنَّاسُ يُغْرِيهِمُ صَوْتُ الْقَوِيِّ إِذَا نَادَى بِمَا رَغِـــبُوا مِنْ دُونِ تَفْكِيرِ
وَيَقْمَعُونَ الَّذِي يَبْغِي نَصِيحَتَهُمْ فِي غَيْرِ مَا سَطْـــوَةٍ أَوْجَاهِ تَحْذِيرِ
وَهَذِهِ سُنَّةٌ فِي النَّاسِ مَا وُجِدُوا فَدِينُهُمْ دِينُ مَنْ يَحْـــظَى بِتَأْمِيرِ



الْموجة الْحلوة

مَنْ يَفْضَحِ الْبَاطِلَ الْمَكْـذُوبَ فِي بَلَدٍ قَـامَتْ بِهِ دَوْلَـةٌ بِالْغَـدْرِ وَالزُّورِ؟
يَا«ابْنَ عَلِيٍّ! »[1] أَلَمْ تَسْتَنْبِئِ «ابْنَ عَلِـيٍّ»مَا الَّذِي قَدْ جَرَى مِنَ الْمَقَـادِيرِ
يَا« ابْـنَ عَلِيٍّ !» أَلاَ لله مِنْ رَجُـلٍ يَجْلُو الْهُمُومَ وَيَشْفِي صَدْرَ مَقْـهُورِ
«رُوجِيرُ» قَدْ مَلَـكَ الأَصْقَاعَ مُدَّعِيًا حُكْمَ الْبِـلاَدِ بِشَـرْعِ اللَّهِ وَالنُّورِ
قَفَّتْ شَعِيرَةُ«عَبْدِ الْمُـؤْمِـنِ بْنِ عَـلِـيٍّ» مِنْ فَظَـاعَةِ مَايُصْغِي مِنَ الضِّيرِ
غَـلَتْ دِمَـاؤُهُ مِنْ إِفْـرَاطِ غَيْـرَتِهِ وَاسْتَجْمَعَ الْجَيْشَ مِنْ كُلِّ الْمَغَاوِيرِ
وَقَـادَهُ لَـجِـبًا فِي نَخْـوَةٍ وَ إِبًـا مُمْتَطِيًا سُرْعَةً ، وَجَـدَّ فِي الـسَّيْرِ
حَـازَ الْـقُلُوبَ كَمَا حَازَ الْبِلاَدَ وَقَدْ أَرْسَى الْقَوَاعِدَ مِنْ جَـاهٍ وَ مَزْبُورِ[2]
مُوَحِّـدًا مَغْـرِبًا طَالَتْ مَصَائِـبُـهُ يَهْتَزُّ كَالرِّيشِ فِي نَقْعِ الْعُـثَيْـثِيرِ[3]
وَمَرَّ مُفْـتَـتِـحًا كُـلَّ الْبِـلاَدِ إِلَى «مَهْدِيَّة» خَائِضًا أَقْوَى الْمَـعَاكِيرِ[4]
وَنَحْـو مَعْقَـلِهَا[5] أَدَارَ دُفَّـتَـهُ وَطَافَ بِالْـبُرْجِ[6] وَالأَسْـوَارِ وَالْغُورِ
تَحْصِـينُ أَسْـوَارِهَا أَثَـارَ دَهْشَـتَهُ فَقَالَ« كَيْفَ خَرَجْتَ دُونَ تَصْمِيرِ؟[7]»
أَجَابَ فِي حَسْرَةٍ،وَالدَّمْـعُ يَخْنُقُـهُ: «لِفَـقْدِ مُعْـتَمَـدٍ، وَقِلَّـةِ الْمِيرِ!»

---

(1) هو «عبد الْمؤمن بن علي الكومي» أمير الْموحّدين ؛ و«ابن علي» الّذي بعده هو «الْحسن بن علي الصنهاجي» . (م.2و6و12).(2) «مزبور »مبني بالْحجارة العتيدة.(3) «العثيثير» تصغير «عِثْيَر»وهو الغبار الصاعدمن وقع سنابك الْخيل. (4) «الْمعاكير» جَمع «مِعكَر» وهو الكرّة القويّة في الْحرب. (5) «الْمعقل» هنا هو «الْمهدية» وقد كانت معقلا عظيما لا يمكن دحره. (6) «البرج» هو البرج الفاطمي على حافة البحر وما زال قائما إلى الآن وهو قصر شبيه بالرباط.(7) «التصمير» الإنتان ،وهو كناية عن بلوغ العذر في الأمر.

فَقَـــالَ مُبْتَسِمًا :«لاَ تَجْــزَعَنْ فَإِلاَ ... هُ الْعَرْشِ يَحْمِيكَ مِنْ غَمٍّ وَمِنْ ضِيرِ

فَادْعُ بِنَـــصْرٍ لَعَـــلَّ اللّهَ يُمْكِـــنُنَا ... مِنْ دَحْرِ طَاغِيَةِ النُّرْمَان «رُوجِيرِ! »

وَحَاصَرَ الرُّومَ فِيهَا أَشْـــهُرًا عَـــدَدًا ... أَصَابَهُمْ عِنْـــدَهَا دَاءُ الْعَـــوَاذِيرِ[8]

فَسَلَّمُوا هَرَبًا وَانْـــزَاحَ عَنْ «حَسَنٍ» ... كَابُـــوسُ غُرْبَـــتِه عَنْ تِلْكُمُ الدُّورِ

أَمَّا «الْمُوَحِّدُ»[1]عِنْدَمَا اسْـــتَـــقَرَّ لَهُ ... أَمْــرُ الْبِـــلاَدِ أَتَى خَـــيْرَ الْمَآثِيرِ

وَلَّى عَلَيْهَا رِجَالاً كَـــانَ هَــــمُّـــهُمُ ... تَوْطِيـــدُ مَمْلَكَةِ التَّــوْحِيدِ كَالطُّورِ

فَسَــــارَسِيرَتَهُ بِالْحَـــزْمِ مُنْـــتَـــهِجًا ... نَهْـــجَ الْخَـــلِيفَةِ فِي إِحْكَامِ تَسْيِيرِ

وَهَذِهِ مَوْجَةُ الإِسْعَـــادِ[9] مُقْـــبِـــلَةٌ ... مِنْ بَعْـــدِ إِدْبَـــارِهَا بِالْيُمْنِ وَالنُّورِ

وَعِنْدَهَا عَاجَ «عَبْدُ الْمُـــؤْمِنِ بْنُ عَلِـــيٍّ» مُسْتَجِمًّا إِلَى قَـــصْرِ«الْمُنَسْتِيرِ»

قَضَى بِهِ رَمَـــضَـــانًا وَهْوَ فِي دِعَةٍ ... مُسْـــتَمْـــتِعًا آمِنًا مِنْ حَرِّ بَاحُورِ[10]

وَعَادَ مِنْ بَعْـــدِهَا لِقَصْـــرِ عِـــزَّتِهِ ... مُسْتَخْلِفًا مَنْ وُلِي«أُمَّ الْحَوَاضِيرِ»[11]

وَجَاءَهُ بِـــ«سَلاَ»[12] دَاعِي الْمَنُونِ فَصَا ... رَالأَمْرُفِي«يُوسُفَ»[13]الْمَوْصُوفِ بِالْخَيرِ

(**8**) «العواذير» جَمع «عاذور» وهو داء يصيب الْحلق ، وهو هنا كناية عن شدّة الضيق وبلوغ الْهلاك. (**9**) وهذه هي الْموجة الْحلوة (أسطورة الْمنستير) وكانت في شهر أوت 1160م/رمضان سنة 555 هجرية (وسُمّيت تلك السنة سنة الأخْماس).(م2و.6). (**10**) «باحور» هو اشتداد حر الصيف في أواخر تَمّوز وأوائل آب «أوسّو» (**11**) « أم الْحواضير» الْمقصود بها «تونس الْحاضرة»،وهي أجلّ مدن «إفريقية» بلامنازع. (**12**) «سلا» هي مدينة بـــ«الْمغرب الأقصى» قريبة من «مدينة الرباط». (**13**) هو «يوسف بن عبد الْمؤمن بن علي الكومي» تولّى سنة 558هـــ/1163م وتوفّي في 581هـــ / 1185 م. (م.2و12).

فِي «قَفْصَةٍ» حَاصَرَ «الرَّنْدِيَّ»[14] أَخْضَعَهُ

وَعَـــادَفِي عَـــجَـــلٍ مِنْ دُونِ تَـــأْخِيرِ

لَكِنْ «قَرَاقُوشَ»[15] فِي أَرْضِ الْجَنُوبِ طَغَى

مُسْتَجْـــمِـــعًا عَـــرَبًا عَانُوا مِنَ الْجُورِ[16]

وَالْمُلْكُ أَوَّلُـــهُ تَقْـــوَى، وَآخِرُهُ هَـــدْمٌ وَمَفْسَـــدَةٌ مِنْ بَعْدِ تَعْمِيرِ

---

(14) «الرندي» هو أحد بني الرند استقلوا بالْحكم في «قفصة» (الْجريد) منذ الصنهاجيين وثاروا على الْموحدين في زمن «يوسف».(م.2). (15) «قراقوش» هو «قراقوش بن عبد اللّه الأسدي» فتى أرمني من مَماليك «صلاح الدين الأيوبي» احتل الْجنوب التونسي مع «طرابلس» في أيام الْموحدين وتوفي سنة 597هـ/ 1201م بـ«القاهرة». (م.2). (16) ثاروا من كثرة الضرائب لفائدة الْموحّدين.

بداية الْحفصيين

وَمَاتَ «يُوسُـــــفُ» فَاسْتَوْلَى خَلِيفَتُهُ
«يَعْقُوبُ»[1]وَهْوَ ابْنُهُ يُكْنَى بِـــ«مَنْصُورِ»

رَأَى فَعَـــيَّنَ «عَبْدَ الْوَاحِدِ بْـــنَ أَبِي حَفْصٍ»[2] وَزِيرًا لِتَكْرِيمٍ وَتَقْـــدِيرِ
إِذْ كَانَ وَالِدُهُ[3]مِنْ بَعْضِ مَنْ عَضَدُوا مُلْـــكًا لآبَائِــــهِ[4] مِنْ حُسْنِ تَدْبِيرِ
قَامَ «ابْنُ غَانِيَةٍ»[5] وَ كَانَ مُعْـــتَقَلاً مِنْ قَبْلِ ثَـــوْرَتِهِ فِي أَرْضِ «بَلْيِيرِ»
وَانْضَمَّ مَنْ نَقَمُوا مِنْ كُلِّ نَـــاحِيَةٍ وَاشْتَدَّ وَقْعُهُمُ فِي حِصْنِ «آشِيرِ»[6]
«يَعْقُوبُ» طَارَدَهُمْ حَتَّىانْجَلَوْا هَرَبًا إِلَى «الْجَرِيدِ» بِجَيْشٍ كَالصَّرَاصِيرِ
لَمْ يَقْفُ إِثْـــرَهُمُ مُسْـــتَأْصِـــلاً أَثَرًا فَاغْتَرَّ أَكْـــثَرُهُمْ فِي لُؤْمِ طِنْجِيرِ[7]
«يَحْيَى بْنُ غَـــانِيَةٍ»[8] أَعَدَّ كَرَّتَـــهُ وَخَلْفَـــهُ مَـــدَدٌ مِنْ كُلِّ مَغْـــرُورِ
فَاحْتَلَّ«مَهْدِيَّةً» وَ «الْقَيْرَوَانَ» كَذَا كَـ«تُونِسًا»وَطَغَى فِي تِلْكُمُ الدُّورِ[9]

---

(1) هو «يعقوب الْمنصور بن يوسف بن عبد الْمؤمن» تولى بعد أبيه سنة 581 هـــ / 1185م.(م.2). (2) هو«عبد الواحد بن أبي حفص الْهنتاتي» تولّى إمارة «تونس الْحاضرة» ومنها كامل «إفريقية» في10 شوّال 603 هـــ/ 10 ماي 1207 م.(م.2و7). (3) هو «أبو حفص يَحيى بن عمر الْهنتاتي»؛ كان قائما بالدعوة للموحّدين بـــ«الأندلس» و«الْمغرب» وتوفّي سنة 571هـــ/ 1175م.(م.2و7). (4) هم «عبد الْمؤمن بن علي» الْمتوفى سنة 558هـــ/1163م؛ وابنه «يوسف» الْمذكور آنفا.(م.7). (5) هو «علي بن إسحاق بن غانية الْمرابطي» وقد اعتقله الْموحدون بـــ«ميورقة» من «جزر البليار» (ميورقة ومينورقة واليابسة) فثار من هناك بعد أن حشد أنصارا سنة581هـــ/ 1184م. (م.7). (6) احتلّوا «الْجزائر» و«الْمغرب الأوسط» مهدّدين «مراكش» عاصمة الْموحّدين. (م.7). (7)الطنجير هو الجبان اللئيم (8) هو «يَحيى أخ علي بن إسحاق بن غانية الْمرابطي» خلف أخاه واحتلّ «تونس الْحاضرة» سنة 600هـــ /1203م. (م.7). (9) وذلك بأن قبض على جَماعة من أعيان الْموحّدين ورمى بِهم في السّجون.(م.7).

فَاغْتَالَ أَعْقَابَهُ[10] «مُحَمَّدٌ»[11] وَ سَطَا ... بِجَيْشِهِ عَنْوَةً مِنْ دُونِ تَحْذِيرِ

وَارْتَدَّ «يَحْيَى» إِلَى الصَّحْرَاءِ مُنْهَزِمًا ... وَ«الشَّيْخُ»[12] فِي إِثْرِهِ جَادًّا بِتَشْمِيرِ

فَحَازَ دَوْلَتَهُمْ فِي «تُونِسٍ» وَبَنَى ... مُلْكًا لأَنْجَالِهِ فِي الأَعْصُرِ الْقُورِ

بِالسَّيْفِ أَخْمَدَ أَصْوَاتَ الْبُغَاةِ بِهَا ... حَتَّى اسْتَتَبَّتْ بِتَأْيِيدٍ وَ تَظْفِيرِ

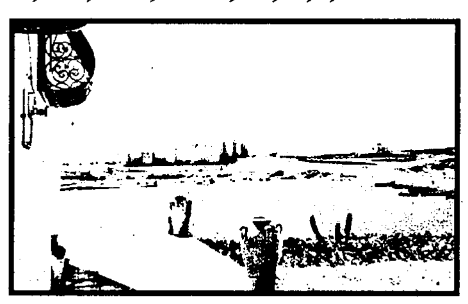
فَقَامَ يَرْفَعُ أَرْكَانَ الإِمَارَةِ فِي ... عِزِّ الْحُمَاةِ ، فَأَلْفَى كُلَّ تَقْدِيرِ

مَا زَالَ تَعْظِيمُهُ حَتَّى نِهَايَتِهِ ... وَكَانَ مَدْفَنُهُ «أُمَّ الْحَوَاضِيرِ»

«عَبْدُالرَّحْمَانِ»[13] لَمْ يَخْلُفْ أَبَاهُ سِوَى ... نَزْرٍ ؛ وَبَاءَ بِعَزْلٍ بَعْدَ تَأْمِيرِ

لَكِنَّ «إِدْرِيسَ»[14] لَمْ تَطُلْ وِلاَيَتُهُ ... وَقَامَ يَخْلُفُهُ الْمَخْلُوعُ لِلْفُورِ

وَهَكَذَا الْمُلْكُ لاَ يَصْفُو بِلاَ كَدَرٍ ... وَالْحُكْمُ لِلَّهِ فِي إِنْفَاذِ تَحْوِيرِ.



(10) احتاز عليه «جزر البليار» فقطع عنه المدد وأوعز إلى وزيره «عبد الواحد» بتتبعه في« تونس».(م.7). **(11)** «مُحمد» هو « مُحمد الناصر بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن» تولّى بعد أبيه سنة 595هـ /1199م.(م.2و7). **(12)** «الشيخ» هو «عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي» وكان ذلك سنة 603 هـ/1207م وتوفّي سنة 618 هـ/1221م ودفن بالقصبة بـ«تونس الحاضرة» ، وهذه بداية الدولة الحفصية.(م.2و7). **(13)** هو «عبد الرحمان بن الشيخ عبد الواحد» تولّى بعد أبيه سنة 618هـ/ 1221م ؛ وعزله «المستنصر بن الناصر الموحّدي» بعد ثلاثة أشهر من ولايته وعيّن عمّه «إدريس».(م.2و7). **(14)** هو «إدريس بن أبي حفص يَحيى بن عمر الهنتاتي» أخ «عبد الواحد» وعمّ «عبد الرحمان» تقدّم على ابن أخيه في الولاية ولَم تطل مدته فتوفّي ورجع المخلوع إلى إمارته التي لَم تطل بدورها .وعاد «عبد الرحمان» لإمارته التي انتهت في 620هـ/ 1223م.(م.2و7).

تأسيس الدولة الْحفصية

وَبعْــدَهُ قَامَ «عَبْدُ اللّهِ»[1] مُعْتَمِداً أَخاهُ«يَحْيَى»[2]عَلَى الْجَنُوبِ مِنْ هُورِ[3]
لَكِنْ رَأَى بَعْـدَهَا مَا هَــزَّ سَاكِــنَهُ فَرَامَ تَأْدِيبَهُ مِنْ غَيْـــرِ تَحْـذِيرِ
فَــثَــارَ أَجْنَادُهُ وَ انْحَازَ أَكْثَرُهُمْ إِلَى أَخِيــهِ ، فَلَمْ يَظْـفَرْ بِقِـطْـمِيرِ
وَكَــانَ أَمْــرُ «الْمُوَحِّدِينَ» فِي حَذَرٍ مِنْ بَعْدِ فَــتْك وَصَــوْلاَتِ الْحَيَادِيرِ[4]
فَانْقَضَّ«يَحْيَى» عَلَى الْمَخْلُوعِ مُعْتَقِلاً مُخَلِّــصًا نَــفْسَهُ مِنْ ذَلِكَ النِّيرِ
لَمْ يُلْفِ مَنْ عَارَضَ اسْتِقْــلاَلَهُ، فَدَعَا أَنْ يَخْــطُبُوا لَهُ مِنْ أَعْــلَى الْمَنَابِيرِ
قَامَ «ابْنُ غَانِــيَةٍ» [5] فَانْقَضَّ يَقْتُلُهُ وَفَــازَ فِي قَتْــلِــهِ بِكُــلِّ تَــوْقِــيرِ
خَافَتْــهُ أَعْــرَابُهَا ، إِلاَّ «هَوَارَةُ» لَمْ تَخْــضَعْ،فَأَلْــقَى بِــهَا فِي نَارِ تَــنُّورِ
فَاسْتَــسْلَمَتْ وَ أَتَتْ تَرْجُومُصَالَحَةً، تَدْعُو مُــؤَيِّــدَةً،مِنْ خَوْفِ تَهْــوِيرِ[6]
جَاءَتْ تُهَــنِّــئُهُ أَقْيَالُ مَغْــرِبِهَا [7] مِنْ «آلِ مَــرِّينَ»[8] أَوْ حُكَّامِ «آشِيرِ»
جَزَائِرُ الْبَحْرِمِنْ«بِيسَانَ» أَوْ«جَنَوَى» وَ «الْبُنْــدُقــيَّــةِ» لَمْ تَــرْكَنْ لِتَأْخِيرِ
فَكُلُّهُمْ جَاءَهُ مُسْــتَمْطِرًا كَــرَمًا وَ صَارَ فِي مُلْكِــهِ مِثْلَ امْــبِــرَاطُورِ،

---

(1) هو «عبد اللّه عبو بن عبد الواحد بن أبي حفص» تولّى سنة 620هـ/1223م.(م.7). (2) هو «أبو زكرياء يَحيى ابن عبد الواحد» مؤسس الدولة الْحفصية أصبح ملكا لنفسه سنة 626هـ/ 1229 م وتوفي سنة 647 هـ /1249م عن سن 49 سنة.(م.7). (3) «الهُوْرُ» هو الإتّهام وسوء الظنّ. (4)«الْحيادير» جَمع حيدر وهو الأسد. (5) هو «علي بن إسحاق بن غانية الْمرابطي» وقد اعتقله الْموحدون بِـ«ميورقة» من «جزر البليار» (ميورقة ومينورقة واليابسة) فثار من هناك بعد أن حشد أنصارا سنة581هـ/ 1184م.(م.7).(6) التهوير هو الهلاك.(7)بعد«هوّارة» استولى على «الْجزائر» فبايعته «تلمسان» و«سبتة» و«طنجة» و«سجلماسة» و«مكناسة» من «الْمغرب» كما بايعه «بنو مرّين» (الّذين غلبوا على الْموحّدين) بـِـ«مراكش»، وحاول مساعدة «الأندلس الشرقية » بأسطول كبير لكنه لَم يصل عند الْحاجة ولِلّهِ الأمر.(م.2و7). (8) هم «بنو مرّين» الّذين غلبوا على ملك الْموحّدين.

أَعْطَى الأَمَانَ وَسَاسَ الْقُطْرَفِي زَكَنٍ يُغْرِي الْغَـرِيمَ بِتَسْـلِيمٍ وَ تَكْـفِـيرِ
فِي«تُونسِ»الأُنْسِ قَدْ قَامَتْ إِمَارَتُهُ بَنَى بِـهَا جَـامِـعًا [9].أَنْعِمْ بِتَعْمِيرِ!
صَـوْمَعَةٌ سَمَقَتْ فَقَـامَ صَاحِبُهَا مُـؤَذِّنًا لِصَـلاَةِ اللَّيْـلِ وَالْخَـيرِ[10]
شَـادَ الْمَسَاجِدَ تَقْرِيبًا لِقَاصِدِهَا شَادَالْمَـدَارِسَ لِلتَّـعْلِـيمِ وَ النُّـورِ
بِالْقَصْرِ أَنْـشَـأَ دَارًا لِلْكِتَابِ بِهَا نَفَـائِسُ الْعِلْمِ فِي أَرْقَى التَّحَارِيرِ[11]
وَالْعِلْمُ يَرْفَعُ أَعْـنَاقَ الرِّجَالِ فَهُمْ أَرْكَـانُ مُلْـكِه فِي عِـزٍّ وَتَقْدِيرِ
لَمَّا وَشَى ابْنُ بَرَاءِ[12]بِالإِمَامِ[13] دَعَا هُ كَيْ يُنَـاظِرَهُ جَمْعُ النَّـحَارِيرِ
لَمْ يَأْخُذِ الشَّيْخَ عَنْ طُغْيَانِ مَمْلَكَةٍ وَ لاَ شَفَى بِعِقَابٍ صَـدْرَ مَسْـعُورِ
لاَشَيْءَ أَعْمَرَ مِنْ عَدْلِ الْمُلُوكِ إِذَا قَامُوا؛ وَإِنْ ظَلَـمُوا ، فَائْـذَنْ بِتَدْمِيرِ
أَسْوَاقُ تُونسَ فِي أَدْوَارِهَا انْتَظَمَتْ بِحِسْبَةٍ ضُبِطَـتْ لِلْعَدْلِ فِي السِّـيرِ
لِلْمَـالِ صَوْلَـتُهُ، لَكِنْ بِحِكْمَتِنَا نَسْـطِيـعُ تَسْخِـيرَهُ لِلْحَقِّ وَالْخَيرِ
فِي الْبَحْرِأَجْرَى لِمَنْ لَمْ يَرْتَـدِعْ سُفُنًا
تَنْفِي السَّـمَادِيرَ مِنْ أَفْـكَارِ سِـكِّيرِ
خَافَتْ مُعَـادَاتَهُ الأَقْطَارُ فَابْـتَدَرَتْ فَوْرًا تُعَاهِدُهُ خَـوْفَ الأَعَاصِـيرِ
وَمَاتَ فِي دَوْلَـةٍ مَرْهُـوبَةٍ بَلَغَتْ أَوْجَ الرُّقِيِّ بِـتَصْنِيعٍ وَتَـعْـصِـيرِ

(9) هو «جامع القصبة» بـ«تونس الحاضرة» الموجود إلى الآن وما زال رمزا للمدينة والصومعة صومعته.(م.7).
(10) بعد إتمام بنائها أقام «أبوزكرياء» بنفسه الأذان للعشاء ليلة غرّة رمضان 630 هـ/ 11 جوان 1233م .(م.2و7). (11) هي مكتبته بقصر «القصبة» وضمّ بها ستّة وثلاثين ألف مُجلّد من أنفس العلوم.(م.7).(12) ابن البراء كان قاضيا في عهد أبي زكرياء وقد حقد على أبي الحسن الشاذلي وأخذ يكيد له. (13) الإمام هو الصوفي الكبير أبو الحسن الشاذلي .

وَقَامَ مِنْ بَعْدِهِ«الْمُسْتَنْصِرُ»ابْنُهُ[14] فِي رَيْــعَانِ عُمْرٍ، وَ أَحْلاَمِ الْغَــضَافِيرِ

فَــجَـــاءَ يَخْذُلُهُ ابْنُ عَمِّهِ [15] طَمَعًا مُسْتَصْغِرًا أَمْرَهُ ، مِنْ غَيْرِ تَشْبِــيرِ[16]

فَصَالَ صَوْلَــتَهُ، وَاجْــتَثَّ مَنْـبَتَهُ فَهَابَهُ النَّاسُ مِـــنْ رُومٍ وَ مِنْ مُـــورِ





(**14**) هو «مُحمد الْمستنصر باللّه بن أبي زكرياء» ولي بعد وفاة أبيه في جُمادى الثانية 647 هـ/سبتمبر1249م في سنّ العشرين؛ وتوفّي سنة 675هـ/ 1276م، وخلفه ابنه «يَحيى الواثق» . (م.2و7). (**15**) «أبو عبد اللّه مُحمد اللحياني»صديق أبي الحسن الشاذلي وكان من أتباع أبيه، وقد قام في وجهه مستصغرا سنّه يسعى إلى الإستيلاء على الْملك والثروة . فجمع «الْمستنصر» له العساكر وقتله وقتل كلّ أتباعه .(م.7). (**16**) التشبير هو التقدير والتعظيم؛ من شبّر الرجل قدّره وعظّمه.

إمارة الْمؤمنين

وَذَاعَ صيتُهُ فِي الآفَاقِ مُنْتَشِرًا ... بِالْحَزْمِ فِي الأَرْضِ مِنْ سَهْلٍ وَمِنْ غُورِ
وَضَاعَ مُلْكُ«بَنِي الْعَبَّاسِ»إذْ زَحفَ«التَّاتَارُ» كَالسَّيْلِ لَمْ يُسْبَقْ بِتَحْذِيرِ
وَالشَّرْقُ مُنْصَدِعٌ والأَمْنُ مُضْطَرِبٌ ... وَالْخَوْفُ وَالْحَرْبُ فِي خُبْزِالْجَمَاهِيرِ
فِي مِصْرَ لَمْ تَنْفَرِجْ بَعْدُ الأُمُورُ وَقَدْ ... آلَتْ خُصُومَاتُهُمْ لِشَرٍّ مَحْذُورِ
مَا زَالَ «مُسْتَنْصِرٌ»فِي أَوْجِ قُوَّتِهِ ... بِالْغَرْبِ مُنْتَصِبًا فِي عِزِّ سَابُورِ
أَمِيرُ«مَكَّةَ» مَعْ أَهْلِ الْحِجَازِ رَأَوْا ... فِيهِ الْخَلِيفَةَ، مَنْ أَحْرَى بِتَأْمِيرِ؟
فَبَايَعُوهُ بِهَا [1] وَ بَاتَ مُغْتَبِطًا ... عَزْمُ الشَّبِيبَةِ فِي أَثْوَابِ بِخْتِيرِ [2]
مِنْ أَهْلِ«بُرْنُو»[3]الْهَدَايَا أَقْبَلَتْ تَبَعًا ... وَجَاءَ مِنْ «فَاسَ» تَأْيِيدٌ بِتَأْصِيرِ
فَقَامَ بِالأَمْرِفِي حَزْمٍ وَفِي أَنَفٍ ... وَ شَادَ مَجْدًا بِعَزْمَاتِ الْمَغَاوِيرِ
لَمْ تَلْقَ تُونِسُ عِزًّا مِثْلَمَا بَلَغَتْ ... فِي عَهْدِهِ وَغَدَتْ أَغْلَى الْحَوَاضِيرِ.



(1) بويع بالخلافة وتلقّب بأمير المؤمنين سنة 657هـ/1259 م وعمره ثلاثون سنة.(م.2و7). (2) «البختير» هو الحسن الجسم أو الّذي يَختال في مشيته.(3) «بُرنُو» سلطنة كانت غربي «التشاد» سكانها من زنوج وعرب وبربر مسلمون وقلّة من الوثنيين كانت مزدهرة في ذلك الوقت وعاصمتها «كوكة».(م.7).

الْحملة الصليبية

رَأَى الصَّلِيبُ هِلاَلَ الْغَرْبِ فِي أَلَقٍ فَاغْتَاظَ، مِنْ حَقْدِهِ فِي شِبْهِ مَسْعُورِ:

«مَازَالَ رَغْمَ شَقَاءِ الشَّرْقِ دِينُهُمُ لَمْ يَنْدَحِرْ بِحُرُوبِ النَّارِ وَالْقِيرِ

بَلْ قَامَ قَائِمُهُمْ فِي الْغَرْبِ مُؤْتَلِقًا وَالرَّأْيُ: إِعْجَالُهُ بِحَرْبِ تَدْمِيرِ

تَخْلِيصُ«قَرْطَاجَ»قَدْيَشْفِي النُّفُوسَ إِذَا مَا ضَاعَ بِالشَّرْقِ مَجْهُودُ الأَبَاطِيرِ[1]»

وَأَعْدَى عَدُوٍّ فِي الْبَرِيَّةِ مَنْ عَادَاكَ فِي الدِّينِ، لاَ فِي حَوْزَةِ الدُّورِ

قَامَتْ«فرَنْسَا» بِزَحْفٍ[2]قَادَهُ طَمَعٌ أَعْمَى الْبَصِيرَةَ مِنْ أَحْلاَمِ مَغْرُورِ

أَغْرَى الْمَلِيكَ[3] أَخُوهُ[4]قَصْدَ تَوْسِعَةٍ فَذَاقَ فِي زَحْفِهِ ضِيقَ الْمَقَابِيرِ

أَرْدَاهُ طَاعُونُهَامِنْ بَعْدِ مَخْذَلِهِ فِي وَقْعَةٍ لَيْتَهَا إِحْدَى السَّمَادِيرِ

وَبَاءَ «دَانْجُو» بِالْهَزِيمَةِ بَعْدَمَا ذَاقَ الْمَخَاذِلَ فِي حَرْبِ السَّوَابِيرِ

إِنْ هَدَّ «مُسْتَنْصِرٌ»«قَرْطَاجَةً» فَلِكَيْ يَجْتَثَّ أَطْمَاعَهُمْ بِقَطْعِ نَاسُورِ

(1) هي مَجموعة الإمبراطوريات الأوروبية ومنها الإمبراطورية الْجرمانية الْمقدسة . (2) هي الْحملة الصليبية الثامنة أو حَملة «سان لوي».(م.7). (3) هو ملك «فرنسا» «لويس التاسع » الّذي مات بالطاعون في هزيمته «بتونس» أمام جيوش« الْمستنصر باللّه الْحفصي» .(4) هو «شارل دانْجو »واليه على «صقلّيّة» .(م.7).

الْمنستير الْحفصية

وَدَارَ يَرْفَعُهَا فِي الْكَــوْن شَامِخَـــةً … حَضَـــارَةً سَطَـــعَتْ بِالْعِلْمِ وَالنُّورِ

نَالَ«الْمُنَسْتِيرَ» مِنْهَا حِصَّةٌ جَـعَلَتْ … دُولاَبَ تَــــارِيخِهَا يَحْــظَى بِتَغْيِيرِ

فَشَادَ لِلْحَقِّ مَسْجِـــدًا وَصَــوْمَعَةً [1] … وَصَارَحَيٌّ بِــبَابِ الدَّرْبِ وَالسُّورِ [2]

وَهَكَذَا اتَّخَــذَتْ شَكْلَ الْمَدِينَةِ مِنْ … بَعْدِ الرِّبَـــاطِ لإِرْصَـــادٍ وَنَــاقُورِ [3]

فَاخْضَلَّ شَاحِبُـــهَا، وَاشْتَاقَ سَاكِنُهَا … فِي الْعَيْشِ تَوْسِعَةً مِثْلَ الْمَغَاضِيرِ [4]

فَكَدَّ مُجْتَـــــهِدًا فِي كَسْبِ مَأْرَبِهِ … جَلْبًا وَبَيْـــعًا وَ خَــزْنًا بِالْمَطَـــامِيرِ

فِي مَـــنْـــزِلٍ مُفْرَدٍبِالْحَيِّ كَمْ نَضِرَالْــعَيْشُ الرَّغِيـــدُ، وَ سَادَ الأَمْنُ بِالدُّورِ

فَصَارَ مُسْتَلْـــزَمًا تَحْـــصِينُهَا بِسِوَا … رِ السُّورِ كَيْ تَحْتَمِي مِثْلَ الْحَوَاضِيرِ

«يَحْيَى» [5] تَوَلَّى فَفَاضَتْ بِالْعَطَا يَدُهُ … كَأَنَّمَا نَــابَـــهَا إِغْـــدَاقُ نَاهُورِ [6]

لَكِـــنَّ عَمَّهُ [7] لَـــمْ يَرْضَ وَ قَاتَلَـــهُ … وَافْـــتَـــكَّ مُلْـــكَهُ فِي عُنْفٍ وَتَتْبِيرِ

فَانْحَلَّ مَاكَانَ مَعْـــقُـــودًا بِعُصْبَتِهِمْ … وَضَـــاعَ مُلْكُـــهُمُ بَيْنَ الْجَنَادِيرِ [8]

---

(1) «مسجد كريشة» و«صومعة الْحقّ» بـــ«حي باب الدرب».(م.4و8). (2) («باب الدرب» (الغربي) وراء عمارة (ستار) الْمبنى وراء مقر الولاية) وعوّضه فيما بعد «باب الفرج» أو «الباب الغربي» ؛ و(«باب السور» (القبلي) أمام قصر البلدية الآن) بابان من أبواب الْمدينة وهما السّور الأوّل للبلد (وهي ما سُمّي فيما بعد «حومة البلد»). (4و8). (3) «النّاقور» هو بوق ينفخ فيه وهو كناية عن الإعلام وإطلاق النفير. (4) «مغاضير» جمع مغضور من الغضارة وهم الْمرفّهون. (5) هو «يَحيى الواثق بن الْمستنصر» وثب عليه عمّه .((6) «النّاهور» هو السحاب الْممطر. (7) هذا العم الذي وثب على«يَحيى الواثق بن الْمستنصر» هو «أبو إسحاق إبراهيم بن أبي زكرياء» سنة 678هـــ / 1279م وانقسمت الدولة إلى شرقية وعاصمتها «تونس» وغربية وعاصمتها « بِجاية» وتشتّت شَملها.(م.7).(8) «الْجنادير» والْجنادرة جَمع جِنْدَار وهو حرس الأمير .

حَتَّى تَــوَلَّى « أَبُو الْعَبَّاسِ» (9) أَمْرَهُمُ رَدَّ الْمَـــدَائِـــــنَ فِي حَـــزْمٍ وَتَشْمِيرِ
تَـــأَلَّـــقَتْ عِنْـــدَمَا أَنْمَى مَـــوَارِدَهَا وَسَادَهَا الْعَدْلُ فَازْدَانَــتْ بِتَـــعْمِيرِ
وَهَبَّ أَعْلاَجُ «فِينِيسْيَا»وَ«جنْوَة» ، رَامُوا غَزْوَ «مَهْـــدِيَّـــةٍ» فِي شَرِّ تَقْدِيرِ
عَنْ قَصْـــدِهِمْ صَدَّهُمْ أُسْدٌ ضَرَاغِمَةٌ أَبْطَالُ نَجْــدَتِـــهَا مِنَ «الْمُنَسْتِيرِ»(10)
فَأَوْقَفُوا زَحْفَهُمْ ، وَفَـــرَّ أَكْـــثَـــرُهُمْ وَقَيَّدُوا سَـــيْــرَهُمْ قَيْـــدَ الزَّنَاجِيرِ(11)
حَتَّى أَتَى«أَحْمَدُ الْمَنْصُورُ»(9)يَنْصُرُهُمْ فَأُطْـــرِدُوا خُسَّـــرًا مِنْ دُونِ تَعْكِيرِ(12)
أَلْفَى«الْمُنَسْتِيرَ»حِصْـــنًا لاَ مَـــثِيلَ لَهُ وَمَحْـــرَسًا كَافِـــيًا شَـــرَّ الْمَحَاذِيرِ
أَوْصَى الأَمِيرَ بِأَنْ تَنْـــمُو عِـــمَـــارَتُهَا فَـــزَادَ أَرْبَـــاضَهَا حِصْـــنًا بِتَسْوِيرِ
وَشَادَ صَـــوْمَعَةً(13) عَلَتْ لِجَامِـــعِـــهَا دَوَّى الأَذَانُ بِـــهَـــا لِخَارِجِ الـــسُّورِ
لَمَّا اسْتَوَتْ كَمُلَتْ أَشْـــرَاطُـــهَا وَأَتَى «عَبْدُ الْعَـــزِيزِ» (14)بِأَصْنَافِ التَّـــبَاشِيرِ
سَمَّى بِهَا قَاضِـــيًا، وَ قَـــائِـــدًا لَبِقًا وَمَلَّكَ النَّـــاسَ فِي الأَرْيَـــاعِ وَ الدُّورِ

---

(9) هو «أبو العبّاس أحْمد الأول» السلطان التاسع عشر للحفصيين كان سلطانا بـــ«قسنطينة» ثمّ استولى على «تونس» وخلع سلطانها لصغر سنّه وفساد أمره سنة 772هـــ/1370م. وكانت وفاته سنة 796هـــ/1394م.(م.7).
(10) كان ذلك سنة 793هـــ/ 1390م وكان لذلك وقع في نفس الأمير « أبي فارس ابن السلطان أحْمد أبي العباس». (م.4و8).(11) زناجير (جمع زنجير) وهي السلسلة المقيدة(12)«تعكير» من عكّر يعني كرّ في الْحرب. (13) هي «صومعة الْجامع الكبير» بـــ«الْمنستير»والرواق الجوفي كما ذكربعض الْمؤرخين.ولعلّ المقصود صومعة باب الدرب إذ ذكر بعضهم أن صومعة الجامع الكبير صنهاجية (م.4و8و19). (14) هو «أبو فارس عبد العزيز (عزّوز)» تولّى سنة 796هـــ/1314م بعد أبيه «أبي العبّاس أحْمد الأوّل»، وتوفّي بـــ«جبال أوراس» في يوم عيد الأضحى 10 ذي الْحجّة سنة 837هـــ / 28 ماي 1433 م وأوصى لِحفيده «مُحمد الْمنتصر» فبقي عاما وبعض أشهر وقامت عليه حروب الأعراب لكنّه تَمكّن من إنشاء «الْمدرسة الْمنتصرية» وبناء زاوية الشيخ «أحْمد بن عروس». وتوفّي سنة 839هـــ/ 1435م.(م.7و8).

فَزَادَ فِي رَبْعِهَا فِي الْعَيْشِ رَغْبَتَهُمْ وَأَشْرَقَتْ شَمْسُهَا مِنْ بَعْدِ دَيْجُورِ
جَرَتْ مَرَاكِبُهَا فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ بِالْمِلْحِ وَالزَّيْتِ وَالْخَيْرَاتِ وَالْمِيرِ
وَنَافَسَتْ غَيْرَهَا فِي كُلِّ مَفْخَرَةٍ حَتَّى غَدَا شَأْنُهَا أَسْمَارَ سَامُورِ[15]
وَزَادَ بَهْجَتَهَا عِلْمٌ وَ مَعْرِفَةٌ وَأَصْبَحَتْ مَقْصَدَ الطُّلَّابِ لِلنُّورِ
تِيهِي «مُنَسْتِيرُ»! بِالأَعْلَامِ فِي أَلَقٍ يَا خَيْرَ مُغْتَرَفٍ مِنَ الْمَغَازِيرِ
فِي الْفِقْهِ وَالشِّعْرِ وَالآدَابِ قَدْ بَرَزُوا بِالْعِلْمِ قَدْ شُهِرُوا مِثْلَ«ابْنِ كَثِّيرِ»[16]
أَوِ«الْجَدِيدِيِّ»[17] فِي عِلْمِ التَّصَوُّفِ أَوْ «مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي زَيْدٍ الْمُنَسْتِيرِي»[18]
فَالْعِزُّ يُبْنَى بِعَزْمَاتِ الرِّجَالِ وَقَدْ أَنْجَبَتْ سَادَاتِهِمْ مِنَ الأَمَازِيرِ[19]



(15) «السامور» هو المبالغ في السمر (16) هو «أبو عبد اللّه بن عبد السلام بن كثّير الْمنستيري الْهواري» (676 ــ 749 هــ) وقد اشتهر بالتدريس بِــ«جامع الزيتونة» بــ«تونس» وانتصب قاضيا بها سنة 734 هــ وبقي بمنصبه 15 سنة وتَخرّج على يديه العلامة «ابن خلدون» والفقيه «ابن عرفة» . (م.4).(17) هو الْمتصوّف الْمبرّز «مُحمد بن عبد اللّه السبائي الْحديدي» توفّي ــ«مكّة» سنة 786هــ وله زاويتان بــ«القيروان» و«الْمهدية»وهو مؤسس الطريقة الغريانية.(م.4). (18) هو الْمرابط « مُحمد بن أبي زيد الْمنستيري» تتلمذ عن « الْحديدي» وأخذ عنه الطريقة الغريانية،وتولّى مشيخة الرباط على عهد « أبي فارس عزّوز» الّذي أسند إليه الأوقاف ليصرفها على أهل العلم فأخرج أملاك الرباط للأوقاف العامّة ووسّع «الْجامع الكبير».(م.4) (19) أمَازِير النّاس أي أفاضل النّاس .

نهاية الْحفصيين

لِكُــلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ مَنْـقَـصَةٌ ... وَالْحُكْمُ لِلَّهِ فِي إِنْــفَــاذِ مَقْدُورِ

مَا مَاتَ«عَزُّوزُ»[1] حَتَّى دَبَّ فِي خَلَفٍ ... مَا مَــزَّقَ الشَّمْــلَ مِنْ حِقْدٍ وَ تَكْدِيرِ

مَا كَادَ «مُنْتَــصِرٌ»[2] يَبْنِي مَآثِرَهُ ... حَتَّى ارْتَمَى مُكْرَهًافِي حَرْبِ تَخْوِيرِ

ثَارَ الأَعَارِبُ فِي أَقْصَى الْبِلَادِ وَجَا ... ؤُوا فِي مَرَابِــعِــهَا شَرَّ الْمَنَاكِيرِ

فَـــقَامَ يَرْدَعُــهُمْ لَكِنَّــهُمْ غَلَبُو ... هُ فَانْثَنَى خَائِبًا فِي ثَــوْبِ مَقْهُورِ

وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِ «عُثْمَانُ»[3] يُنْقِذُهَا ... وَأَسْكَنَ الْحَرْبَ لَكِنْ بَعْدَ تَدْمِيرِ[4]

فَشَا وَبَاءٌ فَكَــانَ النَّاسُ فِي هَرَجٍ ... وَالْمَوْتُ يَدْرُسُهُمْ دَرْسَ الْبَيَادِيرِ

وَمَاتَ«عُثْمَانُ»فَاسْتَوْلَى خَلِيفَتُهُ[5] ... لَكِنَّــهُ مَا نَجَامِنْ فَتْكِ كُــولِيرِ

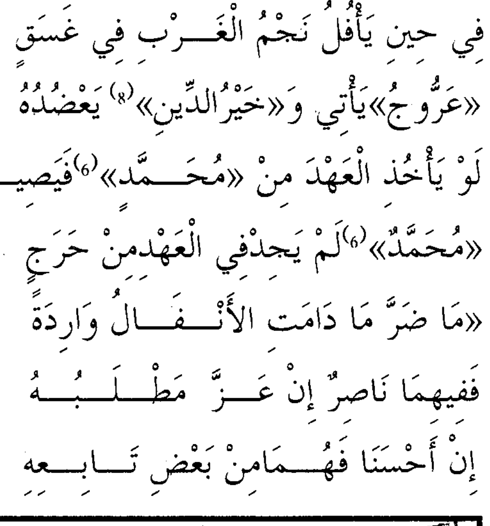
«مُحَمَّدٌ»[6] بَعْدَهُ قَدْ جَاءَ يَجْبُرُهَا ... لَكِنَّ مَكْسُــورَهَا لَيْسَ لِــتَجْبِيرِ

وَالأَمْرُ لِلَّهِ فِي تَــصْرِيفِ مَوْئِلِهَا ... وَالعَبْدُ فِي سَيْــرِهِ رَهْنُ الْمَقَادِيرِ

---

(1) هو «أبو فارس عبد العزيز (عزّوز)» تولّى سنة 796هـــ/1314م بعد أبيه «أبي العبّاس أحْمد الأوّل»، وتوفّي بـــ«جبال أوراس» في يوم عيد الأضحى 10 ذي الْحجّة سنة 837هـــ / 28 ماي 1433 م وأوصى لِحفيده (2) «مُحمد الْمنتصر» حفيد « عبد العزيز الْمذكور» بقي في الْحكم عاما وبعض أشهر وقامت عليه حروب الأعراب لكنّه تَمكّن من إنشاء«الْمدرسة الْمنتصرية» وبناء زاوية الشيخ «أحْمد بن عروس». وتوفّي سنة 839هـــ/ 1435م. (م.7و8). (3) «أبو عمرو عثمان» هو أخ «مُحمد الْمنتصر» وأمّه رومية تولّى بعد أخيه وتوفّي عن سنّ عالية سنة 893هـــ/ 1488م. (4) الْمقصود تدمير أسوار «تلمسان» سنة 880هـــ/ 1475م.(م.2و7). (5) هو «أبو زكريّاء الثالث» تولّى بعد جدّه «أبي عمرو عثمان» وتوفّى سنة 899هـــ/ 1494 م بالطاعون.(م.2و7). (6) هو «أبو عبد الله مُحمد» ابن أخ «أبي زكرياء الثالث» تولّى الْملك سنة 899هـــ/ 1494 م بعد وفاة عمّه «أبي زكرياء الثالث»ومات سنة 932 هـــ/1528م وتولّى بعده ابنه «الْحسن» الذي استنجد بالإسبان ضد «خير الدين».(2و7).

فِي حِينِ يَأْفُلُ نَجْمُ الْغَــرْبِ فِي غَسَقٍ   تَشِعُّ فِي شَرْقِــهَا شَمْسُ امْبرَاطُورِ[7]
«عَرُّوجُ»يَأْتِي وَ«خَيْرُالدِّينِ»[8] يَعْضُدُهُ   فِي الْبَحْرِ قَرْصَــنَةً فِي شَكْلِ مَأْمُورِ
لَوْ يَأْخُذ الْعَهْدَ مِنْ «مُحَــمَّد»[6]فَيَصِيــــرُ الأَمْرُ مُــؤْتَــلِفًا مِنْ غَيــرِتَعْكِيرِ
«مُحَمَّدٌ»[6]لَمْ يَجِدْفِي الْعَهْدِمِنْ حَرَجٍ   مَادَامَ فِي مَأْمَــنٍ مِنْ كُلِّ مَحْــذُورِ:
«مَا ضَرَّ مَا دَامَتِ الأَنْــفَــالُ وَارِدَةً   وَالْبَحْرُ مُعْــتَــكَرُ الأَعْمَاقِ وَالْــغُورِ
فَفِيهِمَا نَاصِرٌ إِنْ عَــزَّ مَطْــلَــبُــهُ   وَفِيهِــمَا مَلْــجَــأٌ يَوْمَ الأَعَــاصِيرِ
إِنْ أَحْسَنَا فَهُــمَامِنْ بَعْضِ تَــابِــعِهِ   أَوْ أَخْطَــآ، لَمْ يُلَمْ مِنْ سُوءِ تَدْبِيرِ»



(7) هي بداية «الْخلافة العثمانية» على يد «مُحمد الفاتح» فاتح «القسطنطينية» سنة 857هـ/ 1453م.والوقت الآن زمن «سليم الأوّل» وغزواته في أوروبّا الشرقية.(م.7). **(8)** «عرّوج وخير الدّين» أخوان من أصل يوناني (مِدِّللي) من جزر «بَحر إيــجة» (الأرخبيل) قدما على «مُحمد الْحفصي» وأعطياه خُمس غنائم قرصنتهما فأطلق أيديهما في البحر. (م.7)

استقلال الْمنستير عن الْحفصيين

ضَاعَ الأَمَانُ بِبَحْرِ الأَمْنِ .كَيْفَ تُرَى ... يُغْنِي الْـوَلاَءُ لِسُلْـطَانِ الصَّرَاصِيرِ
لَوْكَانَ يَصْـلُحُ كَـانَ الأَمْرُ فِي يَدِهِ ... لاَ فِي يَدِ الْعِلْـجِ مِنْ آفَاقِ «إِيجِير»[1]
أَمَّا«الْمُنَسْتِيرُ»فَانْـشَـقَّتْ عَلَيْهِ وَقَدْ ... كَانَ الَّذِي عَـزَمَتْ مِنْ دُونِ تَأْخِيرِ
مَادَامَ سُلْطَانُ«حَفْصٍ»لَيْـسَ مُقْتَدِرًا ... عَلَى حِمَايَتِهَا مِنْ جَوْرِ «كُورْسِير»[2]
هَذِي مَرَاكِـبُـهَا فِي الْبَحْرِ جَارِيَةٌ ... وَالأَمْـنُ فِي لُـجِّـهِ لَيْسَ بِمَوْفُورِ
فَلْتَحْمِ حَـوْزَتَهَا فِي ظِـلِّ حَـامِيَةٍ ... خُـصَّتْ بِحَـضْـرَتِهَا بِكُلِّ تَقْدِيرِ
بِــ«الآسِتَانَة» تَمْـثِـيلاً وَ مَرْتَـبَةً ... لَمْ تُلْفِ أَمْثَـالَهَا «أُمُّ الْحَوَاضِيرِ»[3]
وَالْحُكْمُ فِي عَشْرَةٍ مِنْ خَيْرِ سَاكِنِهَا ... وَالرَّأْيُ مَشْـورَةٌ فِي عُمْـقِ تَدْبِيرِ

****

«مُحَمَّدٌ»[4]مَاتَ فَاسْتَوْلَى بِهَا«حَسَنٌ»[5] ... أَسَاءَ مِنْ بَعْدِ إِحْسَانٍ وَتَـعْـمِـيرِ
وَلَمْ يَعُدْ قَادِرًا عَنْ دَفْـعِ مَظْلَـمَةٍ ... أَوْ ضَبْطِ نَفْسِهِ فِي اجْتِنَابِ عَـاثُورِ
مَا لَمْ يَزَلْ «حَسَنٌ» فِي سُوءِ سِيرَتِهِ ... مُسْـتَهْـتِرًا خَـائِرًا فِي غَيْرِ تَفْكِيرِ

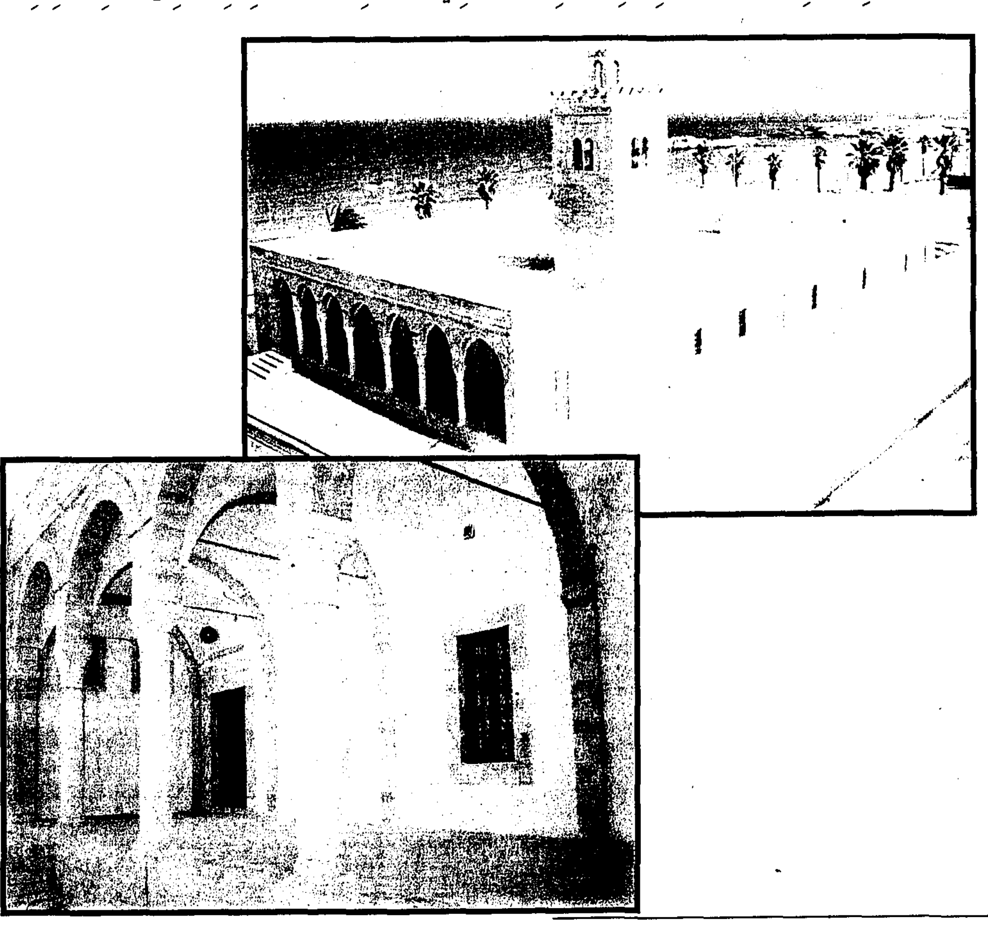
(1) «إيــجير» الْمقصود به بَحر «إيــجة » أو «الأرخبيل» وهو اسم هذا البحر في القديم وهو بحر«اليونان» . (2) «كُورْسِيرِ» Corsaire أي قرصان (3) وكان ذلك منذ 1517 م إذ كان «للمنستير» سفيرها الْخاص بــ«إسطنبول» (الآستانة)ولَم يكن ذلك «لأم الْحواضر» أي «تونس العاصمة». (م.4و8). (4) هو «أبو عبد الله مُحمد» الْمذكور آنفا تولّى الْملك سنة 899هــ/ 1494 م ومات سنة 932 هــ/1528م وتولّى بعده ابنه «الْحسن» (2و7).(5) هو «الْحسن بن أبي عبد اللّه مُحمد» تولّى سنة 932هــ وأضاع ملكه منهزما من «تونس» أمام «خير الدين» سنة 935هــ/1529 م.(م.7).

لَمْ تُلف قُـدَّامَـهَا إلاَّ تَـنَصُّـلَهَا خَلْعًا لِطَـاعَـتِه [6] مِنْ كُلِّ تَقْرِيرِ

تَـعْويلُهَا لَمْ يَكُنْ إلاَّ عَلَى ثِقَـةٍ فِي نَفْـسِهَا زَمَنَ الإظْـلاَمِ وَالنُّورِ

تَعَاوَنَتْ مَعَ«دَرْغُوثَ»[7]عَلَى حَسَنٍ وَرَدِّ عُـدْوَانِه بِالْـحِصْـنِ وَالْمِيرِ

فَكَانَ ذَلِكَ مِنْ أَسْـبَابِ مِنْعَـتِهَا فِي سَاعَةِ الْعُسْـرِ مِنْ غِلٍّ وَمِنْ نِيرِ



(6) وكان هذا الأستقلال سنة 1534م.(م.4و8). (7) «درغوث باشا» أو «الرايس درغوث» كان غازيا بَحريّا فتعاونت معه «الْمنستير» على حِمايتها وهو الّذي افتكّ «القيروان» من أيدي الإسبان سنة 958هـ/ 1551 م وسَمّى بها «حيدر باشا » نائبا عنه.(م.7).

تنازع الإسبان والأتراك

«عَـرُّوجُ»لَمَّا أَتَى هَذَاالشَّمَالَ سَعَى وَافْتَكَّ مُحْتَصَـنًا مِنَ «السِّبَنْيُورِ»[1]

رَأَى«سُـلَيْمَانُ»[2]فيه تَـابعًا لَبِقًا تُرْجَى مُـوَالاَتُهُ فِي دَفْعِ مَحْذُورِ

أَقَـرَّهُ،وَدَعَـا أَخَـاهُ أَنْ يَطَـأَ «الْـحَفْصِيَّ»[3] فِي دَارِهِ «أُمِّ الْحَوَاضِيرِ»

فَاجْتَازَ يَطْـلُـبُهَا[4]؛وَفَرَّ صَـاحِبُهَا فَجَـازَهَا مُعْـلِـنًا تَأْمِينَ يَنْفُورِ[5]

وَاسْتَنْفَرَ«الْحَسَنُ»الأَعْرَابَ فَاجْتَمَعُوا يَـبْغُونَ نُصْـرَتَهُ رَغْمَ الْـمَخَاطِيرِ

لَكِنَّهُمْ فُوجِـئُوا بِالنَّارِ تَحْـصُدُهُمْ مِنْ مِدْفَعٍ كَـاسِحٍ صَلْدَ السَّنَاوِيرِ[6]

فَلَوَّحُوا بِأَمَانٍ؛مُسْـرِعِيـنَ كَمَـنْ قَدْ فَـازَ بِالـنَّفْسِ مِنْ أَنْيَابِ سَبُّورِ

فَاسْتَقْدَمَ «الْحَسَنُ»الإِسْبَانَ فَانْطَلَقُوا فِي حَمْلَةٍ زَعْزَعَتْ قَلْبَ الْعَـنَاتِيرِ

قَدْ قَادَهَا «شَرْلَكَانُ»[7] نَفْـسُهُ أَمَلاً أَنْ يَمْلِكَ الْقُطْرَ حَوْزًامِثْلَ«بَالْـيِيرِ»

فَاحْتَـلَّهَا[8]مُرْجِعًا حُكْمَ الشَّقِيِّ بِهَا لَكِنْ بِـأَشْرَاطِـهِ فِي ذِلٍّ مَقْهُورِ

---

(1) هي مدينة« الْجزائر» وقد أصبحت مركزا له ولأخيه «خير الدّين»؛وكلمة«سبنيور» هي الإسبان باللهجة التونسية. (م.7). (2) هو «سليمان القانوني» عاشر «آل عثمان» تولّى سنة 1520 إلى 1566 وهو أعظم ملوك «آل عثمان» له 13 حَملة في « أوروبّا» وهو الّذي أصدر القوانين ودوّنها وأعطى لـ«فرانسوا الأول ملك فرنسا» امتيازات خاصّة خاف منها «شرلكان» وأحجم عن مهاجَمة « فرنسا» . (م.15). (3) « الْحفصي» هو «الْحسن الْحفصي» ملك «تونس» و «أم الْحواضير» هي «الْحاضرة تونس».(4) وكان ذلك سنة 935 هـ / 1529 م.(م.4و8). (5) «الينفور» هو شديد النفور وهو كناية عن الْهارب والْخائف. (6) السناوير جمع سنوّر وهو مجمع الدروع الصلدة (7)«شارلكان» أو«كارلوس» أو «شارل الْخامس» إمبراطور «إسبانيا» في القرون الوسطى وكان قد افتكّ «جزر البليار» وأنْجد «الْحسن الْحفصي» ضدّ «خير الدّين» آملا في ضمّ «تونس» إلى مَملكته فقاد الْحملة بنفسه ،(8) واحتل تونس وأرجع «الْحسن الْحفصي» (الشقي) للحكم ،وكان ذلك سنة 942 هـ/ 1535 م.(م.7) .

ثَارَ ابْنُهُ (9) فَأَتَى مُسْتَنْقِذًا بَلَدًا   مُسْتَبْسِلاً صَامِدًا لِلْعَسْفِ وَالْجُورِ
فَاسْتَرْجَعَ الْمُلْكَ،لَكِنْ فَرَّ وَالِدُهُ   فِي سَمْلِ عَيْنَيْهِ لَمْ يَحْظَ بِتَقْدِيرِ
وَهَانَ قَدْرُهُ فِي كُلِّ الْبِلاَدِ إِلَى   أَنْ صَارَ أُضْحُوكَةً بَيْنَ الصَّعَارِيرِ[10]
بِالْقَيْرَوَانِ رَأَى ذُلَّ الْمَهَانَةِ مِنْ   أَطْفَالِ عَرْفَةَ[11] فِي عَزْفِ الْمَزَاهِيرِ
«كُنَّا أُسُودًا تَهَابُ النَّاسُ صَوْلَتَنَا   وَجَاءَنَا زَمَنٌ نَخْشَى مِنَ الْعِيرِ»[12]
بَكَى عَنْدَمًا، وَرُوحُهُ انْزَعَجَتْ   مِنْ جِسْمِهِ أَسَفًا مِنْ سُوءِ مَقْدُورِ
وَمَاتَ مِنْ كَمَدٍ فِي غُرْبَةٍ وَأَسًى   مِنْ دُونِ مَا أَمَلٍ فِي الْعَفْوِ وَالْخَيْرِ.

---

(9) هو «حَميدُو أبو العباس أحْمد» ولي سنة 942هـ/1535 م بعد أبيه «الْحسن» ومات بـ«صقلية» سنة 980 هـ/ 1572 م .(م.7).(10) من ذلك أن بعض مضيّفيه أمره بأن يعزف له على الْمزهر بعض الألْحان التي يُجيدها فصار مغنّيا يستجدي قوته، وهذا نهايةفي النكاية بِملك مَخلوع.(11) هو عرفة الشابّي جدّ الشابيين وصاحب الطريقة الصوفية الشابية، وكان الإسبان يسمّونه ملك القيروان.(12) «العير» هو الحمار، والبيت كما قاله الحسن صاحبه من البحر الطويل: وَكُنَّا أُسُودًا وَالرِّجَالُ تَهَابُنَا   أَتَانَا زَمَانٌ فِيهِ نَخْشَى الأَرَانِبَا

الإحتلال الإسباني

لَكِنَّ «أَحْمَدَ»[1] لَمْ يَسْطِعْ حِمَـايَتَهَا رَغْمَ الْبَلاَءِ وَرَغْمَ الْصَّـبْرِ فِي الضِّيرِ
فَلَمْ يَكَدْ يَنْـتَهِي مِنْ خَضْـدِ شَوْكَتِهَا
وَجَيْشُ«كَارْلُوسَ»حَلَّ بِـ«الْمُنَسْتِيرِ»[2]
فَحَدَّ مِنْ زَحْفِهِمْ[3]أَبْطَـالُ نَجْدَتِهَا بِـ«مَنْزِلِ الْحَرْبِ»فِي صَبْرِالْكَوَاسِيرِ
مِنْ بَعْدِهَا أَخْرَجُوهُمْ مِنْ مَدِينَـتِهِمْ هَرْشَ الْكِـلاَبِ بِأَعْقَابِ الْسَّنَانِيرِ[4]
وَجَاءَ مِنْ بَعْـدُ«دُرِّيَـا»[5] يُنَاوِئُهُمْ يَرُومُ إِخْضَاعَهُمْ لِحُكْمِ صَـارُورِ[6]
وَبَعْدَ أَنْ جَـالَدُوا حَـقَّ الْجِلاَدَ أَتَى «دَرْغُوثُ»يُنْجِـدُهُمْ عَوْنَ النَّحَارِيرِ
أَرْسَى بِمِيـنَـائِهِمْ وَ شَـدَّ أَزْرَهُمُ وَنَالَ أَعْـــدَاءَهُمْ دَاءُ الْعَوَاذِيرِ[7]
وَازْرَقَّ فِي الـرَّايَةِ الْهِـلاَلُ مُؤْتَلِقًا فِي أَبْيَضٍ نَاصِعٍ بِالنِّـصْفِ يَحْمُورِ
كَانُوا بِهَا سَـادَةً يُهَـابُ جَانِبُـهُمْ وَكَانَ مَا ادَّخَـرُوا حُسْنَ الْمَفَاخِيرِ
مِنْ بَعْـدِهَا عَـادَ«دُرِّيَا»يُكَاثِرُهُمْ[8] مِنْ بَعْدِ كَسْـرَتِهِ، بِالْجُنْدِ وَالْمِـيرِ
فَجَالَـدُوهُ وَأَغْـرَقُـوا سَـفَـائِنَهُ وَجَـاءَهُ مَـدَدٌ مِنْ أَرْضِ «إِيبِيرِ»
وَمَاتَ قَائِدُهُمْ«جَلُّولُ»[9] فَاضْطَرَبُوا وَقَامَ خَائِنُهُمْ بِفِـعْـلِ «شغِّيرِ»[10]

---

(1) «أحْمد» هو «أحْمد بن الْحسن الْحفصي الّذي خلع أباه وتولّى الْملك بعده » (2) أي أن أحْمد لَم يستطع حماية الْمنستير وكان ذلك سنة 1540 م.(م.4و8). (3) وكانت هذه الواقعة سنة 1541م. (م.4و8). (4) أي تتبعوا آثارهم بالأذى طردا (5) «دريا» هو «أندريه دريا» القائد الإسباني الّذي هاجم «الْمنستير» سنة 956هـ/1549م في مُحاولة لإخضاعها لِحكم الْحفصيين. (م.4و5و8). (6) «الصّارور» هو الّذي لَم يَحجّ أو لَم يتزوّج فهو كناية عمّن لَم يقم بفعل برّ قطّ .(7) «العواذير» جَمع «عاذور» وهو داء يصيب الْحلق ، وهو هنا كناية عن شدّة الضيق وبلوغ الْهلاك (8) كان ذلك في شهر سبتمبر 1550م.(م.4و8). (9) هو «أحْمد جلّول» شيخ الرباط وقائد جنده توفّي =

بِفَتْحِ بَابٍ أَمَامَ الزَّاحِفِينَ، وَقَدْ قَامَ النِّسَاءُ بِأَفْعَالِ الْمَغَاوِيرِ
أَمْسَكْنَ أَسْلِحَةً لاَ خَابَ مُمْسِكُهَا وَخُضْنَ مَعْمَعَةَ الْغُرِّ الْعَنَاتِيرِ
لَكِنَّهُمْ غُلِبُوا وَافْتُكَّ حِصْنُهُمُ وَكُبْكِبُوا أَسَفًا بِالْغَدْرِ وَالزُّورِ
وَعَاثَ قَاهِرُهُمْ فِي النَّاسِ وَالْحُرُمَا تِ الْغُرِّ فَانْعَفَرَتْ تَحْتَ الْمَحَافِيرِ
وَ جَرَّدُوا أَهْلَهَا مِنْ كُلِّ أَسْلِحَةٍ كَمُدْيَةِ الْمَطْبَخِ الْفُطْرَى لِتَقْشِيرِ[11]
وَدَوْلَةُ الْغَدْرِ مَا كَانَتْ مُعَمِّرَةً لَكِنَّ لاَ مَهْرَبًا مِنْ خَطٍّ مَقْدُورِ

****

قَامَ السَّفِيرُ لَدَى السُّلْطَانِ مُلْتَمِسًا رَدَّ الْعُدَاةِ عَلَى ثَغْرِ«الْمُنَسْتِيرِ»
أَجَابَهُ مُرْسِلاً يَدْعُو مُعَادِيَهُ لِكَفِّ عُدْوَانِهِ مِنْ دُونِ تَأْخِيرِ
لَكِنَّ«كَارْلُوسَ»لَمْ يُنْصِتْ لِمَطْلَبِهِ وَاخْتَارَ فِي صَلَفٍ شَرَّ التَّدَابِيرِ
فَاخْتَارَهُ عَاصِفٌ مِنْ رِيحِ عَسْكَرِهَا وَجَاءَهُ قَاصِفٌ فِي غَمْرَةِ الْغُورِ
فَارْتَدَّ مُنْهَزِمًا يَجْرِي بِلاَ مَهَلٍ قُوَّاتُهُ انْدَحَرَتْ فِي قَعْرِ مَوْهُورِ[12]
وَقِيلَ لَمْ يُفْلِتِ الْمَأْفُونُ مِنْ غَرَقٍ بَلْ صَارَ جِسْمُهُ مِنْ قُوتِ الدَّنَافِيرِ[13]

= فجأة.(م.4و8). (**10**) «الشّغِّيرُ» هو عديم الأخلاق ؛وقد فتح أحد الْخونة باب البحر (باب غدر) فتمكّن الإسبان من دخول الرباط.(م.4و8). (**11**) تروي الْحكايات الشعبية أنه انتزع سلاح الأهالي حتى مدية الْمطبخ فقد علّقوا لهم مدية في رأس النهج ويتداول الناس عليها لقضاء شؤوهم بِحضور الْجندي الإسباني ، وتقول القصة أيضا أن الأهالي تَمكنوا من التسلح بالْحطب وإخفاء السلاح في أحْماله وهكذا تَمكنوا من الإنقلاب عليه ،وهذا وإن بدا كالأسطورة إلا أنه ليس غريبا على الشعب التونسي.و(الفُطرى) مؤنث (أفطور) وهي السكين الْمتشققة التي لا تصلح لتقشير الْخضر. (م.الذاكرة الشعبية) . (**12**) «الْموهور» الذي لا قاع له. (**13**) «الدنافير» جمع «دنفير» بلهجة «الْمنستير» وهو حيوان الدّلفين البحري.

حكم الدايات

مِنْ بَعْدِ مَا سَقَطَتْ أَسْوَارُ«مَهْدِيَة»[1]   أَلْقَــوْا بِأَحْمَـــالِهَا عَلَى «الْمُنَسْتِيرِ»

قَالَ الْخَلِيفَةُ [2]: يَا«فَرْحَاتُ»أَنْتَ لَهَا   كُنْ بَايَهَا[3] وَاجْــتَهِدْ فِي شُغْلِ تَعْمِيرِ

وَاعْمَــلْ عَلَى صَوْنِهَا مِنْ كُلِّ نَائِبَةٍ   وَاحْذَرْ إِصَــابَــتَهَا مِنْ كُلِّ مَحْذُورِ

وَاجْعَلْ بِهَا مَنْصِبًا تَــزْهُو سَــنَاجِقُهُ   وَاعْقِدْ لَهَا عَسْــكَرًا وَاكْمِلْ بِنَا السُّورِ

وَاجْعَلْ إِلَى«سُوسَةَ» يَرْقَى لَهَا وَطَنٌ   وَاخْــفِــرْ سَــوَاحِلَهُ بِــالنَّارِ وَالْمِيرِ

وَاصِــلْ تَوَسُّعَهُ حَتَّى«صَفَاقُسَ»وَاجْــعَلْ فِي خَفَــارَتِهِ جُنْــدَ«الْيَنَاشِيرِ»[4]

وَجَدَّ«فَرْحَاتُ»فِي تَحْقِــيقِ نَهْضَتِهَا   بِجِــدِّ بَايٍ يَرَى الْبَــدْرَبِسَــاهُورِ[5]

حَتَّى اسْتَوَتْ دُرَّةً فِي تَاجِ مَنْ صَنَعُوا   مِنْ مَجْدِهَا عِــبْــرَةً عَبْرَ الأَعَاصِيرِ

لَكِنْ بِــ«تُونِسٍ»بَاشَا لَمْ يَكُنْ رَجُلاً   مَحْــمُــودَ عَاقِبَةٍ مِنْ كَثْرَةِ الْجُورِ

فَثَارَ أَجْــنَادُهُ يَبْــغُونَ مَــقْتَلَهُ   وَهَاجَ هَائِجُــهُمْ حَــتَّى الْمَفَــاهِيرِ[6]

فَأَجْمَعُوا قَتْلَهُ ، لَكِنْ جَــمَــاعَتُهُ[7]   قَامُوا بِتَعْــوِيضِهِ بِالدَّايِ فِي الدُّورِ[8]

(1) وكان ذلك على أيدي الإسبان سنة 1554 م.(م.8). (2) «الْخليفة» الْمقصود به خليفة الْمسلمين السلطان العثماني. (3) «فرحات» كان باي الْمنستير سنة 1579م وقد عمل على تحصينها حتّى ترث الدور التي كانت تقوم به «الْمهدية» (4) «الينَاشير» Janissaires وهم «الينيشيرية»أو «الأنكشارية» وهم الْجنود الْجدد من غير الْجنود النظاميين كانوا من جُملة الْجيش العثماني، ولما فسد أمرهم أبادهم السلطان «مَحمود الثاني» سنة 1826م. (5) «الساهور» الكثرة (6) «الْمفاهير» لَحم الصدر وهو كناية عن بلوغ الأمر نهايته (7)جماعته هم «الديوان» هو مَجلس الْحكم ومقره بــ«القصبة بتونس».وهو شبه الْحكومة اليوم، و«الْدور» هنا أي النوبة أوالْمهمة وهو مُخالف لِمعنى «الْدور» (8) في «مَجامع الْدور» أي الْمباني، لذلك لا يكون تكرارا في القافية بل يكون جناسا تاما على بعد الْمسافة بين اللفظتين.(م.2).

فَنَصَّبُوا بَعْــدَهُ «عُثْمَانَ»[9] دَايَهُـمُ إذْ كَانَ أَبْصَــــرَهُمْ بِحُسْنِ تَدْبِيرِ
فَسَنَّ «مِيزَانَهُ»[10] لِلْعَدْلِ مُحْتَكَمًا وَعَمَّرَ الْــقُطْــرَ بِالْعُمْرَانِ وَالْخيرِ

(9) «عثمان» هو «عثمان داي» أوّل داي استقلّ بالْحكم عن البلوكباشية سنة 1007هـ /1598م فسنّ القوانين لتنظيم الْحياة وخلفه صهره«يوسف داي».(م.2و7). (10) «الْميزان» هو مَجموعة القوانين التي سنّها «عثمان داي» لبسط العدل في إيالته وسَماها الْميزان.(م.7).

الْمنستير في حكم الدايات

نَالَ «الْمُنَسْتِيرَ» مِنْهَا حِرْزُهَا بِسلاَ ... حِ الْمدْفَـعِـيَّة تَحْصِينًا لِمَحْذُورِ
حَيٌّ «الْهِلاَلِيِّ»[1] زَادَ فِي رَحَابَتِهَا ... وَبِـ«السَّبَاطِ»[2]عَلَتْ مَجَامِعُ الدُّورِ
«لِلشَّرْعِ»دَارٌ عَلَى الْيَـمِينِ ، قِبْلَتِهَا ... لِلْـ«ـبَاي»دَارٌ عَلَى الْيَسَارِ بِالْجِيرِ
حَيٌّ «مُـرَادٍ»[3] زَهَا قُـدَّامَهَا أَلِقًا ... بِـ«ـجَامِـعٍ» عَامِرٍ بِالْعِلْمِ وَالنُّورِ
حَيٌّ «طَرَابُلُسَ» نَالَ حَظْوَةً وَسَـنًا ... وَسَوَّرُوهُ وَ«بَـابَ الْغَرْبِ» بِالسُّورِ
وَزَادَ أَسْوَاقَهَا نَوْعًـا وَتَـوْسِـعَةً ... مَا كَـانَ«دَانِقُهَا»[4] قَبْـلاً بِمَوْفُورِ
أَحْيَاؤُهَا ازْدَهَرَتْ بِنَقْـشٍ أَنْدَلُسٍ ... حَتَّى غَـدَتْ سِمَةً عِنْدَ الْمَغَاضِيرِ
«بُولاَقُ»[5] أَعْلَى بِهَا تُرْسَانَةً وَبَنَى ... أَبْـرَاجَهَا جَـاهِـدًابِجِـدٍّ تَعْمِيرِ

(1) «حي الْهلالي» هوجزء من أجزاء «حومة الشراقة»ولعله أقدمها،كان بجانب «السور الأول» يفصله عن الْمدينة «زقاق صالِح» الذي يبدأ من ساحة «باب الدرب» و«سوق اللفّة » ويَمرّ ملاصقا للسّور القديم من الداخل وينتهي إلى«سوق البلد» بـ«جامع البلد» أو جامع لاز، وفي منعرجه قبل الْمسجد مقام ولي باسْم «سيدي الدهماني» وفتحة صغيرة في سورٍ قديم يُدخل منها إلى«حي الْهلالي» تسمى«سيدي الْهلالي». (2) «حي السباط» وهو الْجزء الثاني من «حومة الشراقة» وكان له مدخل خارج السور من فتحة فتحت وليس بابارسْميا، ويظهر أنها فتحت في إحدى الْحربين العالَميتين تسهيلا للهروب ،ثُمّ وقع تهذيبهاوسُمّيت بـ«باب البنات» ؛و مدخل من الْمدينة من سباط سُمّي «سباط الحكم» وسُمي «دار الباي» ،وبه «دارالشرع» التي ما زالت إلى الآن وهي مقر«جَمعية صيانة الْمدينة» ؛و«دار الباي» ولعلها الدارالتي كان ينزل بها باي الأمْحال عند زيارة الْجهة، ولعلها ماكان يسمى «دار العمل» أي مقر العامل أو القايد قبل أن يقع هدمها بعد الإستقلال (3)«حي مراد» هو ما يسمى الآن بـ«حومة الْجبانة»،و«الْجامع» هو «الْجامع الْمرادي الْحنفي» الذي أقيم على أنقاضه «جامع بورقيبة» الْحالي. (4) «الدانق» هو بعض العملات الْمتداولة في ذلك العهد،كما كان وحدة وزن تساوي سُدُسَ درهم أي 0,520 غراما. (5) «بولاق» هو البلوكباشي أي الأمير الأكبر بـ«تونس» الذي يُمثل السلطة العثمانية وهذا البلوكباشي هو «حسن» الذي تولى بناء الترسخانة بـ«الْمنستير» ببرج «سيدي مسعود »سنة 1612م. (م.4و8).

وَالدَّايُ«يُوسُفُ»[6]لَمْ يَبْخَلْ بِتَحْصِينِهَا أَحَاطَ أَرْبَاضَهَا الْكُلَّ بِتَسْوِيرِ
وَزَادَ بَهْجَتَهَا بَابُ«بُرَيْقِشَةٍ»[7] فِي نَقْشِهِ قَدْ بَدَتْ بَعْضُ التَّصَاوِيرِ
تُنْبِئُ دَارِسَهَا عَنْ وَقْتِ نَقْشَتِهَا إِنْ لَمْ يَجِدْ مَأْرَبًا مِنْ قَوْلِ نِحْرِيرِ
وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِ«الأُسْطَا مُرَادُ»[8]بِمَا زَادَ الْهَنَاءُ بِهِ غَلْقُ الْمَخَامِيرِ
عَمَّ الرَّخَاءُ فَكَانَ الْخُبْزُ مِنْ سَعَةِ الْأَرْزَاقِ يَأْكُلُهُ كُلُّ الْجَمَاهِيرِ[9]
وَاللَّحْمُ فِي شِدَّةِ الإِمْحَالِ مُنْتَشِرٌ تَكْفِي لِتَحْصِيلِهِ بَعْضُ النَّوَاصِيرِ[10]
أَوْلَى«الْمُنَسْتِيرَ» شَيْئًا مِنْ عِنَايَتِهِ فَزَادَ أُسْطُولَهَا بَعْضَ الْعَمَائِيرِ[11]
وَضَاقَ مِينَاؤُهَا بَعْدَ الرَّحَابَةِ بِالْأَمْتَاعِ وَالتَّجْرِ شَأْنَ الْبَنَادِيرِ[12]
سَمَّى عَلَيْهَا أَمِيرًا خَيْرَ فِتْيَتِهِ وَهْوَ«أَبُو الْقَاسِمِ الْبَايُ الْمُنَسْتِيرِي»[13]

---

(6) «يوسف داي» هو صهر «عثمان داي» تولى من بعده سنة 1019هـ/1610م وسعى في ترقّي البلاد وأحدث عديد الأسواق وقوّى الأساطيل التونسية.وفي عهده نصبت قناصل الدول الأوروبية خوفا من صولاته ومات سنة 1047هـ/1637م. (م.7و8). (7) «باب بريقشة» هو ما سُمّي بـ«الباب الْجديد ومنه «سوق الباب الْجديد» وسُمّي فيما بعد وإلى الآن «باب بريقشة» و«بريقشة» تصغير لـ«برقاشة» وهو نوع من السمك الْملون بنّي اللون وقد تجد به خطوطا زرقاء ، امتازت «الْمنستير» بطهيه وأكله إلى جانب «الشركاو»، وكان يباع في هذا المكان.(م.8). (8) هو «الأسطا مراد رايس بن عبد اللّه» قام بخطة الداي بعد وفاة «الداي يوسف» وكانت بيده رئاسة البحر وتوفي سنة 1050هـ 1640م وبعده أخذ أمر الدايات في التراجع وأصبح النفوذ للبايات.(م.7و8) . (9) بلغ ثَمن رغيف الْخبز بزنة 36 وقية أي كيلو غرام واحد نَاصرياواحدا، واللحم في قلب الشتاء رطله بناصري. وهذا رخاء كبير.(م.2).(10) «النواصير» جَمع «نواصر» جَمع «ناصري» وهي عملة ذلك الوقت وهي ذات قيمة زهيدة.(م.2).(11) «العمائير» جَمع «عمائر» وهذه هي جَمع «عمارة» وهي قطعة (الْمركب) البحرية أو الغراب.(12) البنادير جمع بندر وهو المدينة الساحلية ومقر التّجّار. (13) هو «بلقاسم الْمنستيري» كان بايا بـ«الْمنستير» وقبطان بَحرها ، تولّى من قبل «الأسطى مراد داي » وعظم أمره في مدة الداي «مُحمد لاز» بمعاونة «كشك مراد» مَملوك الداي «مُحمد لاز» ونكب «بلقاسم» في ولاية «مصطفى لاز» على يد الباشا «عبد الرحْمان» في حدود سنة 1070هـ.(م.2).



تدهور الدايات

وَهَانَ مِنْ بَعْدِهِ الدَّايَاتُ وَانْقَلَبُوا جِسْمًا بِلاَ نَفَسٍ أَوْ وَهْمَ تَصْوِيرِ
صَارَتْ مَصَالِحُهُمْ نَهْبًا لِمَنْ غَلَبُوا عَنْ أَمْرِهِمْ بِحِجًى أَوْ حُسْنِ تَدْبِيرِ
قَامَ «أَبُوالْقَاسِمِ» الْقُبْطَانُ يَطْلُبُهَا لِنَفْسِهِ رَاكِبًا مَرْكُوبَ مَغْرُورِ
فَـ«كُشْكُ»[1]لَمْ يَكُنِ الأَقْوَى بِقُرْبِهِ مِنْ
دَايَاتِهِمْ أَوْعَدِيمَ الْغَدْرِ وَالزُّورِ
وَكَادَ يَأْخُذُهَا،لَكِنْ تَدَارَكَهُ الْبَاشَا بِضَرْبَتِهِ فِي الْعُمْقِ وَالْغُورِ
«طَابَاقُ»[2]مَاوَطِئَتْ رِجْلاَهُ قَصْبَتَهُ حَتَّى غَدَا غَاضِبًا جَيْشُ«الْمُنَسْتِيرِ»
لَكِنَّ أَعْقَابَهُ لَمْ يَهْدَؤُوا وَبَقَوْا يَرْجُونَ سَانِحَةً لِثَأْرِ مَوْتُورِ
فَثَارَفِي وَجْهِهِ خَلْعًا لِطَاعَتِهِ وَرَامِيًا بَعْثَهُ بِكُلِّ تَقْعِيرِ[3]
فَأَرْسَلَ الْجَيْشَ يَبْغِي رَدَّهُمْ أَمَلاً فِي طَاعَةٍ لَمْ تَعُدْ مِنْ حُسْنِ تَدْبِيرِ
«أَبُوخُرَاسَانَ»[4] قَادَ الْجَيْشَ عَنْ ثِقَةٍ فِي كَسْرِ عِزَّتِهَا فِي كُلِّ تَهْوِيرِ
لَكِنَّهَا لَمْ تَلِنْ بَلْ زَادَ قَسْوَتَهَا رَمْتُهُ عَنْ قَوْسِهَا فِي غَيْظِ مَقْهُورِ
فَانْهَارَ فِي ذِلَّةٍ يَرْجُو تَعَطُّفَهَا وَصَارَ فِي جَيْشِهِ ضِمْنَ الْمَحَاقِيرِ

---

(1) «كشك» هو«كشك مراد» مَملوك الداي «مُحمد لاز» الذي عاون «أبي القاسم المنستيري» حتى طمع في الوثوب على الملك (2) «طاباق» هو «مُحمد داي» الذي ثار عليه «حَمودة باي الْمرادي»، ووقفت في وجهه «الْمنستير» مناصرة «حَمودة باي».(م.2). (3) «التقعير » في الكلام هو البحث عن الكلمات الأكثر دلالة وهنا كناية عن السباب والإستهزاء. (4) «أبو خراسان» هو قائد جيش الداي الذي حاصر«الْمنستير» وانكسر أمام أسوارها سنة 1647م.(م.2و8).

وَعَادَ مُنْكَسِرًا يَجْتَرُّ خَيْبَتَهُ يَهْذِي بِفَاقِرَةٍ حَلَّتْ وَشَاقُورِ

وَانْهَارَأَعْدَاؤُهَا فِي حَرْبِهَا وَذَوَوْا وَنَالَهُمْ نُوَبٌ مِنَ الْغَضَافِيرِ

وَسَاقَ«حَمُّودَةُ»[5]الأَجْنَادَ يَحْفِزُهَا مُيَمِّمًا طَالِبًا «أُمَّ الْحَوَاضِيرِ»

فَحَاصَرَ الدَّايَ حَتَّى ذَلَّ شَامِخُهُ وَبَاتَ مُنْهَزِمًا يَهْذِي كَمَقْرُورِ

لَمْ تُغْنِهِ رَشْوَةُالأَجْنَادِ فِي مَلَقٍ بِنَفْلِ رَاتِبِهِمْ بَعْضَ النَّوَاصِيرِ

(5) «حَمودة» هو «حَمودة (أو مُحمد)باي الْمرادي بن مراد باي الأول مؤسس الأسرة الْمرادية»، تولى منصب الباي عن أبيه الباشا سنة 1041 هـ/1631م مباشرة بعد وفاة «الأسطا مراد داي» بسنة، وتَحصل على الباشاوية سنة 1068هـ/ 1658م وعقد لأولاده على النواحي وتوفي سنة 1076هـ 1665م ، وخلفه ابنه «مراد الثاني». (م.2.و7).

الدولة الْمرادية

وَعِنْدَمَا ذَهَبَ «الأُسْطَا» وَأَعْقَبَهُ الدَّا ... يَاتُ فِي ضُعْفِهِمْ مِنْ سُوءِ تَدْبِيرِ
سَعَى «مُرَادٌ»[1] لَدَى السُّلْطَانِ يَطْلُبُهُ ... تَقْلِيدَهُ لَقَبَ الْبَاشَا بِتَقْرِيرِ
فَحَازَهُ، وَغَدَا يَرْنُو إِلَى أُفُقٍ ... لَمْ يَرْقَهُ أَحَدٌ قَبْلاً بِتَفْكِيرِ
مُؤَسِّسًا دَوْلَةً فِي نَسْلِهِ تَبَعًا ... مِنْ دُونِ أَنْ يَخْضَعُوا فِي الأَمْرِ لِلْغيرِ
وَقَلَّدَ الإِبْنَ بَايًا فِي جِبَايَتِهَا ... فَقَامَ «حَمُّودَةٌ»[2] جَادًّا بِتَشْمِيرِ
وَخَاضَ مِنْ أَجْلِهَا بَعْضَ الْحُرُوبِ عَلَى ... مَنِ احْتَمَى عَاصِيًا بِالْقَفْرِ وَالْغُورِ
أَتَى «الْمُنَسْتِيرَ» كَيْ يَرْتَاحَ مِنْ تَعَبٍ ... أَعْيَاهُ فِي حَرْبِهِ ضِدَّ الصَّعَارِيرِ
أَلْفَى بِهَا نَاصِرًا لاَ يَشْتَكِي أَبَدًا ... مِنْ وَقْعِ وَاقِعَةٍ أَوْ نَقْرِ نَاقُورِ
فَنَاصَرَتْ وحَمَتْ أَجْنَادَهُ فَغَدَا ... مِنْ نَصْرِهَا غَالِبًا يَسْطُو بِأُظْفُورِ
لَمَّا اعْتَلَى دِسْتَهُ لَمْ يَنْسَ مُكْرِمَةً ... فَزَادَ أَرْبَاضَهَا حِصْنًا بِتَسْوِيرِ
مِنْ غَرْبِهَا زَادَهَا رَبْضًا وَتَوْسِعَةً ... حَتَّى غَدَتْ دُرَّةً فِي عَيْنِ نَاظُورِ

---

(1) «مراد» هو «مراد باي الأول» من أصل كورسيكي وهو أب العائلة الْمرادية أسلم على يد سيده «رمضان باي» وتدرّج في الْمناصب حتّى أصبح قائد عساكر «الداي يوسف»، وتدرّج بعده في الْمناصب حتى سنة 1041هـ 1631م حين تَحصّل على لقب الباشا فتخلّى عن الأمْحال لإبنه «مُحمد» وهو «حَمودة باي».(م.7). (2) «حَمودة» هو «حَمودة (أو مُحمد)باي الْمرادي بن مراد باي الأول مؤسس الأسرة الْمرادية»، تولى منصب الباي عن أبيه الباشا سنة 1041 هـ/1631م مباشرة بعد وفاة «الأسطا مراد داي» بسنة، وتَحصل على الباشاوية سنة 1068هـ/ 1658 م وعقد لأولاده على النواحي وتوفي سنة 1076هـ 1665م ، وخلفه ابنه «مراد الثاني». (م.2.و7).

وَلّى بِهَا نَجْلَهُ «الْحَفْصِيَّ»[3] عَنْ ثِقَةٍ فِي عَوْنِـهَا دَائِمًا بِالْجُنْدِ وَالْمِيرِ

وَجَاءَ تَقْلِيـدُهُ بَاشَا، لِيَخْـلُـفَهُ «مُرَادُ»[4] فِي جَيْشِهِ مِنْ دُونِ تَأْخِيرِ

وَمَاتَ مُنْشَـرِحًا فِي عِزَّةٍ وَ رِضًا وَالشَّـعْبُ مُغْتَبِطٌ، بَلْ جِدُّ مَسْرُورِ

وَكَانَ دَايُهُمُ[5] قَدْ شَاخَ وَارْتَبَكَتْ أَحْـوَالُهُ ، فَغَدَا فِي حِلْمِ عُصْفُورِ

فَكَانَ فِي خَلْـعِـهِ خَيْرٌ لأُمَّـتِهِ لَوْكَـانَ فِي حُكْمِهِمْ رَأْيٌ لِنِحْرِيرِ

لَكِنَّ غَايَتَـهُمْ فِي مَنْصِبٍ وَ جَلاَ لِ خَلْـفَهُ دَائِـمًا شَـرُّ الْمَحَاذِيرِ

فَبَعْدَهُ «مُنْتَشَالِي»[6] الدَّايَ قَدْ خَلَعُوا وَنَصَّبُوا «لاَزَ»[7] كَيْ يَطْغَوْا بِتَدْبِيرِ

فَفَرَّ مِنْ بَيْنِهِمْ «مُحَمَّـدٌ»[3] وَ أَتَى بِـ«الْقَيْرَوَانِ» أَخًا مِنْ أَجْلِ تَحْذِيرِ

فَأَضْمَرَا حَرْبَـهُمْ فِي دَارِهِمْ أَمَلاً فِي رَدِّ غَـاشِيَةِ الأَطْمَاعِ وَالزُّورِ

وَانْتَشَرَ الْخَوْفُ فِي كُلِّ الْبِلاَدِ،وَقَدْ كَانَتْ مُوَاجَهَـةً مِنْ دُونِ تَوْقِيرِ

كَانَتْ عَوَاقِـبُـهَا لِلْبَايِ خَالِصَةً وَأَصْبَحَ الدَّايُ فِي أَثْوَابِ مَهْزُورِ[8]

وَالنَّاسُ عَادُوا إِلَى أَشْـغَالِهِمْ بِأَمَا نٍ مِنْ «مُرَادٍ» وَقَدْ جَدُّوا بِتَشْمِيرِ

---

(3) هو «مُحمد الْحفصي ابن حَمودة باي الْمرادي» تولّى ولاية «منصب الساحل» و«سنجق القيروان» سنة 1658م.(م.7و8). (4) «مراد»هو «مراد الثاني» أكبر أبناء «حَمودة باي» ،تولى الْحكم بعده منذ 1665 م فخضد شوكة الثائرين ، ونازعه الأنكشارية فهدم عليهم قشلتهم وجعلها مدرسة هي «الْمدرسة الْمرادية »التي تولّى إدارتها فيما بعد الشيخ «مُحمد زيتونة الْمنستيري» في فجر الدولة الْحسينية .وتوفي مراد هذا سنة 1086هــ 1675م وترك الْملك لابنيه «مُحمد وعلي». (م.7و 9). (5) هو الداي «الْحاج شعبان خوجة» وخلعه «مراد باي»سنة 1082هــ.(م.2). (6) «منتشالي» داي ضعيف نصبه «مراد باي الثاني» لكن أهل الفساد خلعوه ونصبوا مكانه «علي لاز» سنة 1083هــ.(م.2).(7) «لاز» هو «علي لاز» وهو ليس «لاز الأول» فهم «مُحمد لاز» توفي سنة 1063 هــ ثمّ «مصطفى لاز» توفي سنة 1075هــ و«علي لاز» هو الثالث .(م.2و7).(8) «مهزور» مطرود ومنبوذ.

وَتَوَّجَ الْكُلَّ «فَرْمَـــانٌ»[9] أَتَى عَجِلاً سَمَّـــاهُ بَاشَا عَلَى «أُمِّ الْحَوَاضِيرِ»

فَعَيَّنَ الدَّايَ«مَامِي»[10] مِنْ صَنِيــعَتِه لِـــيَأْمَنَ الأَمْرَ فِي الأَنْجَالِ بِالْخيرِ

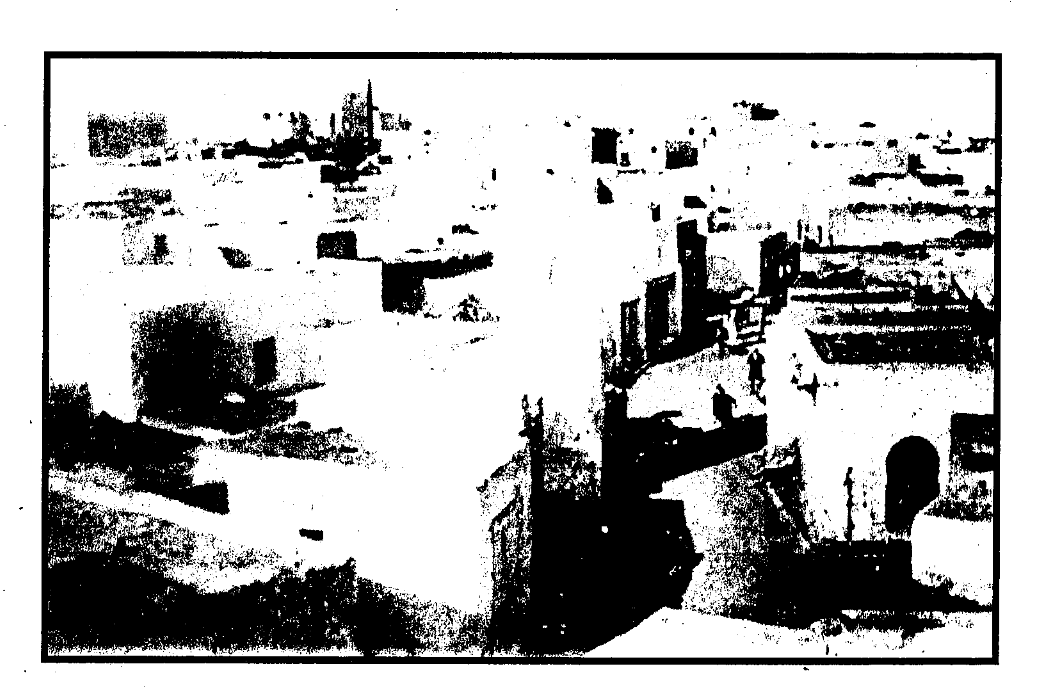
ثَارَ«أَبُوالْقَاسِمِ الشَّوْكِيُّ»[11]فِي جَبَلِ الـــثُّوَّارِ«وَسْــلاَتَ»فِي جَمْعِ الْبَرَابِيرِ

فَعَاجَ يَخْضِدُهُ مُسْــتَفْــتِــحًا وَأَبَا دَ الثَّـــائِرِينَ بِهِ فِي سَطْـــوِ سَابُورِ

وَهَاجَ فِي«تُونِسَ» الأَتْـــرَاكُ بَعْدَهُمُ فِي قِشْــلَةٍ جُعِلَتْ لِجُنْدِ «يَنْشِيرِ»

فَهَدَّ قِشْلَــتَــهُمْ وَشَـــادَ مَوْضِعَهَا لِلنَّاسِ مَــدْرَسَــةً لِلْــعِلْمِ وَالنُّورِ

وَمَاتَ مُغْــتَــبِطًا فِي أَوْجِ عِــزَّتِهِ فِي سِرْبِهِ آمِــنًا حُكْــمَ الْمَقَادِيرِ



(9) «الفرمان» هو القرار الذي يتّخذه الباب العالي. (10) كان الداي آنئذٍ «مَامِي جَمَل» وهو صنيعة «مراد باي الثاني».(م.2و7). (11) ثار «أبو القاسم الشوك» بِـــ«جبل وسلات» فقاتله «مراد» سنة 1674م 1085هـ حاصره وافتتح الْجبل عنوة. (م.2.و7).

صراع الأخوين

وَنَصَّبُوا نَجْلَــهُ «مُحَمَّدًا» [1] بِرِضًا   لَكِــنَّــهُمْ نُكِسُوا بِنَقْضِ تَــقْرِيرِ

«مُحَمَّدٌ» [2] عَــمُّــهُ أَغْرَى أَخَاهُ بِهِ   سَعَى لَدَى دَايِــهِمْ [3] بِكُــلِّ تَغْــرِيرِ

وَالدَّايُ وَافَــقَــهُ وَ لَمْ يَجِــدْ مَانِعًا   مِنْ كَسْرِ شَوْكَــتِــهِمْ مِنْ بَعْدِ تَجْبِيرِ

وَصَارَ «حَفْصِيُّــهُمْ»بَايًا وَ قَدْ خَلَعُوا   «مُحَمَّدًا» بَعْــدَ أَنْ حَادُوا عَنِ النُّورِ

وَسَارَ مَخْلُوعُهُمْ «لِلْكَافِ»فِي حَشَدٍ   يُــعِــدُّ عُــدَّتَهُ لِقَفْــزِ عَــتُّــورِ

نَادَىالْمُنَادِي فَلَبَّى النَّــاسُ دَعْوَتَهُ   وَجَــاءَهُ مَــدَدٌ مِنْ كُلِّ مَعْــمُورِ

لَمَّا رَأَى عَــمُّــهُ مَا هَالَهُ انْخَلَعَتْ   مِنْ قَلْبِهِ عَــزْمَةُ الْغُــرِّ الْمَغَــاوِيرِ

وَصَارَ فِي هَــلَعٍ يَخْشَى مُعَاتَــبَةً   وَ بِالْغَنِيــمَةِ لَــمْ يَعُــدْ بِمَغْرُورِ

عَنْــهُ نَضَى كِسْوَةَ الْحُكَّامِ مُعْتَرِفًا   بِحَقِّ غَــالِــبِهِ فِي الْحُكْمِ وَالدُّورِ

سَارَتْ مَرَاكِــبُــهُ فِي الْبَحْرِ هَارِبَةً   لِلآسْتَا نَةِ مِنْ خَــوْفِ الدَّوَاغِيرِ [4]

وَجَازَ «نَجْلُ مُــرَادٍ»«تُونِسًا» جَذِلاً   إِذْ نَــالَ بُغْيَــتَهُ مِنْ بَسْطِ مَمْعُورِ [5]

أَلْقَى أَخَاهُ «عَــلِــيًّا» فِي مُضَايَقَةٍ   حَتَّى غَدَا عَاجِزًا فِي شِبْهِ مَحْجُورِ

بِبَعْضِ آطَامِهِمْ فِي ضِيــقٍ مُظْلِمَةٍ   لَمْ يُلْفِ فِي قَعْــرِهَا شَيْئًا مِنَ النُّورِ

---

(1) هو «مُحمد باي بن مراد الثاني» الذي ولي الأمر بعد أبيه ثم عزله الديوان في رجب 1086هـ/أكتوبر 1675م وسَمى مكانه عمّه «مُحمد الْحفصي» ، فثار «مُحمد» عليه و احتمى بـ«الكاف» ثم بـ«الْمنستير» ضد أخيه «علي باي» سنة 1678م، ومات بعد أخيه «علي»في سنة 1108هـ 1696م.(م.2و7). (2) هو «مُحمد الْحفصي بن حَمودة باي الْمرادي» تولّى ولاية «منصب الساحل» و«سنجق القيروان» سنة 1658م.(م.7و8).(3) هو الداي «مامي جَمل» (4) «الدواغير» جَمع) «داغرة»وهي المصيبة تهجم على الإنسان هجوما (5) «الْممعور» هو الْمقطّب غضبا.

فِي غَيْبَةِ الْبَايِ وَافَى الْمَوْتُ بَعْضَهُمُ وَمَا اسْتَطَاعَ «عَلِيٌّ» دَفْنَ مَقْبُورِ
فَحَزَّ فِي نَفْسِه تَضْيِيقُ أَنْفَاسِه وَالْحِقْدُ مَصْدَرُهُ الإِمْعَانُ فِي الْجُورِ
وَفَرَّمِنْ سِجْنِه،وَكَانَ وُجْهَتَهُ عَنَّابَةٌ مُبْحِرًا مِنْ غَيْرِ تَأْخِيرِ
أَعَانَهُ «أَحْمَدُ الشَّلْبِيُّ»[6] عَنْ طَمَعٍ فِي نَصْرِهِ بَعْدَ أَنْ يَحْظَى بِتَأْمِيرِ
وَنَالَ مَأْرَبَهُ ، وَكَانَ مُنْزِلَهُ «شَيْخُ الْحَنَانشَة»[7]الأَبْطَال فِي الضِّيرِ
فَكَوَّرُوا جَمْعَهُمْ فَوْرًا لِنُصْرَتِه وَقَادَهُمْ غَازِيًا فِي غَيْظِ مَوْتُورِ
جَبَى«سبَنْيُولُ»[8] مِنْ «عَمْدُونَ»نَاحِيَةً لِحَاجَةِ الْجَيْشِ مِنْ ذُخْرٍ وَمِنْ مِيرِ
وَسَارَ مُتَّخِذًا «وَسْلَاتَ» مُحْتَصِنًا يَحْمِيهِ مِنْ كُلِّ مَا يَخْشَى مِنَ الضِّيرِ
لَمَّا أَتَى خَبَرُ الأَحْشَاد «تُونسَ» لَمْ يَشْغَلْ «مُحَمَّدَ» أَمْرٌ غَيْرُ تَشْمِيرِ
وَسَارَ فِي جَيْشِه، «وَسْلَاتُ» وُجْهَتُهُ مُصَمِّمًا فَتْحَهُ بِالنَّارِ وَ الْقِيرِ
وَكَادَ يَفْتَحُهُ لَوْلاَ مَدَافِعُ قَدْ دَوَّتْ بِعَسْكَرِهِ فِي شِبْهِ مَغْدُورِ
وَدَبَّ فِي جَيْشِهِ وَهْنُ الْعَزَائِمِ فَانْحَلَّتْ مَحَازِمُهُ مِنْ ذُعْرِ مَذْعُورِ
فَكَانَ تَصْمِيمُهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ وَ ارْتَدَّ مُنْهَزِمًا يَهْذِي كَمَسْحُورِ[9]

---

(6) هذا الداي هو «أحْمدشلبي» وهو الذي ساعد «علي باي» على ركوب البحر إلى «بلد العناب» ؛وقد بلغ «مُحمد باي» أنه اعصوصب بـــ«الْحاضرة » فراسل أخاه «عليا» واصطلحا وقاتلا الداي الثائر لكنه هزمهما وقوي أمره، ثُمّ كرّا عليه.(م.2و7).(7)شيخ الْحنانشة» هو «سلطان بن منصّر بن خالد»،لَما فرّ «علي باي» من سجنه التحق بـــ«الْجزائر» وتزوج ابنة شيخ «الْحنانشة»واستعان به على طلب الولاية من أخيه والتف حوله جيش كبيرمن «الْحنانشة» (وهم إحدى القبائل العربية الْجزائرية) والعرب ونزل بهم«جبل وسلات». (م.2و7).(8)هو «مصطفى سبنيول» قائدجيوش «علي باي» وقد جبى مَحلّة تابعة لِـــ«مُحمد باي» قرب «عمدون» للتزود بِمالِها لعسكره. (م.2و7).(9) انكسر «مُحمد باي» أمام أخيه في«جبل وسلات»وانعزل إلى «القيروان» في ذي قعدة سنة 1087هــ1676 م.(م.2و7).

إمارة عليٍّ الْمرادي

أَمَّا«عَلِيٌّ»فَقَدْ تَمَّتْ إِمَارَتُهُ وَسَارَ فِي جَيْشِهِ بِالطَّبْلِ وَالصُّورِ
طَارَتْ إِلَى«تُونسَ»الأَنْبَاءُ عَنْ عَجَلٍ فَارْتَاعَ أَعْيَانُهَا مِنْ وَقْعِ مَحْذُورِ
وَغَيَّرُوا دَايَهُمْ(1) وَاسْتَقْبَلُوهُ بِمَا يَلِيقُ مِنْ بَهْرَجٍ فِي حَفْلِ تَأْمِيرِ
وَجَازَ تُونِسَ لَمْ يُلْفِ مُعَارَضَةً أَوْ مَنْ يُصَادِمُ مِنْ كَبْشٍ وَلاَ ثُورِ
لَمَّا اسْتَقَرَّ،وَصَارَ الأَمْرُ فِي يَدِهِ دَعَتْهُ هِمَّتُهُ دَعْوَى الْحَيَادِيرِ
أَعَدَّ عُدَّتَهُ لِلْحَرْبِ مُتَّجِهًا «لِلْكَافِ»يَأْخُذُهَامِنْ كَفِّ صُعْرُورِ
فَخَابَ مَأْمُولُهُ فِي قَصْفِهَا هَدَرًا مِنْ بَعْدِأَنْ أَسْقَطَ الْبَعْضَ مِنَ السُّورِ
لَمْ يُلْفِ فِيهَاأَخَاهُ أَصْلَ مِحْنَتِهِ فَهَاجَ هَائِجُهُ كَفَوْرَةِ الْجِيرِ
إِذْ جَاءَهُ خَبَرٌ أَنَّ«الْجَرِيدَ» عَصَى وَ صَارَ فِي حُكْمِهِ يُعْزَى إِلَى الْغِيرِ
«مُحَمَّدٌ» حَازَهُ وَالنَّاسُ حَوْلَهُ قَدْ نَادَوْا بِنُصْرَتِهِ بِالْجَيْشِ وَالْمِيرِ
فَسَارَ فِي إِثْرِهِ لِـ«قَفْصَةَ» حَرِدًا يَرْجُو مُلاَقَاتَهُ فِي غَيْظِ مَمْعُورِ
لَكِنْ إِلَى«تُونِسٍ» عَاجَ مُرَاوِغُهُ فِي جَمْعِهِ دَاخِلاً مَشْيَ الظَّوَافِيرِ
أَعَادَ «مَامِي» إِلَى الدِّيوَانِ دَايَهُمُ فَعَادَ فِي قَصْرِهِ يَمْشِي كَبَخْتِيرِ
وَبَعْدَهُ جَاءَ «سَاقُسْلِي»(2) لِيَخْلُفَهُ فَعَاشَ مُغْتَبِطًا عَيْشَ الْمَقَاصِيرِ
دَايًا عَلَى بَلَدٍ ضَاعَتْ ضَوَابِطُهُ لاَ أَمْنَ فِيهِ سِوَى كُلِّ الْمَحَاذِيرِ

---

(1) لَماسَمع «أهل الْحاضرة» بانتصار «علي باي» خلعوا الداي «مامي جَمل»وولّوا مكانه «مُحمد بيشارة». (م.2و7). (2) هو الداي «ساقسلي » الذي جاء بعد «مامي جَمل» . (م.2و7).

كَيْفَ الْهَـنَـاءُ لِشَخْـصٍ بَاتَ يَطْلُبُهُ مَنْ ضَاقَ قَلْبُهُ مِنْ أَنْـفَـاسِ مَوْتُورِ
سَارَ «سِـبَنْـيُـولُ» فِي الأَجْنَادِ يَطْلُبُهُ وَحَاصَرَ «الْقَصْبَةَ» الشَّـمَّـاءَ بِالضَّيرِ
وَأَطْلَقَ الْيَدَ فِي أَرْجَـائِـهَا نَـهَـبًا فَخَرَّ شَامِـخُـهَا مِنْ غَيْـرِ تَعْكِيرِ
بِهَا الدَّايُ[2] قَدْ طَـالَتْ مَـسَـرَّتُهُ وَالآنَ، قَدْ جَـاءَهُ هَمُّ الْفَـوَاقِـيرِ
هَذَا «سِبَنْـيُـولُ» قَـدْ جَاءَ، وَهَدَّدَهُ فَفَرَّ مِنْ حِينِهِ خَوْفَ الْـعَـوَاقِـيرِ
غَابَتْ مَسَـرَّتُهُ كَالْـحُلْمِ يُطْـرِدُهُ قَصْفُ الرُّعُودِ وَ إِبْـرَاقُ الأَعَاصِيرِ
وَسَارَ فِي أَهْلِهِ يَبْغِي النَّـجَاةَ، وَ قَدْ آلَى عَلَى نَفْـسِهِ تَحْـرِيمَ تَكْـرِيرِ
سُرَّ «عَلِيٌّ» بِجُـنْـدِ النَّصْرِ فَانْفَرَجَتْ كَفَّاهُ يَنْـفُـلُـهُمْ بَعْضَ النَّـوَاصِيرِ
وَذَاعَ فِي النَّـاسِ أَقْوَالٌ بِلاَ أُسُـسٍ وَعَمَّهُمْ قَـلَـقُ الإِرْجَافِ وَ الزُّورِ
أَيْنَ اخْتَفَى بَـايُـهُمْ «مُحَمَّدٌ» هَرَبًا بَعْدَ الَّذِي قَدْ جَرَى مِنْ عَقْرِ عَاقُورِ[3]
وَالنَّاسُ مِنْ خَوْفِهِمْ ضَاعَتْ مَصَالِحُهُمْ وَ بَاتَ عَيْشَـهُمُ خَـوْضُ الْفَوَاقِيرِ

(3) «عاقور» ما يعقر الظهر فيضنيه.

عليٌّ يُعاقب الْمنستير

هَذَا«عَلِيٌّ» أَتَى «بِالْفَحْصِ» فِي عَدَدٍ دَوَّتْ مَكَاحِلُهُ فِي السَّهْـــلِ وَالْغُوْرِ
لاَقَــاهُ فِي جَيْشِهِ أَخُــوهُ فَانْهَزَمَتْ أَجْنَــادُهُ شَيَــعًا مِنْ بَعْدِ تَكْوِيرِ
فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ عَادَ الْعَمُّ مِنْ سَفَرِ الــــتَّشْــرِيقِ فِي كَفِّهِ «فَرْمَانُ» تَأْمِير[1]
عَادَ«عَلِيٌّ» إِلَى «أُمِّ الْحَوَاضِرِ» كَيْ يَلْقَى بِهَا عَمَّهُ «الْحَفْصِيَّ» فِي الْخيرِ
وَبَعْدَهَا كَوَّرَ الأَجْنَــادَ يَحْــشِدُهَا فِي سَيْرِهِ قَــاصِدًا حِصْنَ «الْمُنَسْتِيرِ»
إِذْ جَــاءَهُ خَــبَرٌ: أَنَّ أَخَــاهُ بِهَا فَــثَارَ فِي غَــضَــبٍ نَــارًا بِتَنُّورِ
وَظَنَّ أَنَّ أَخَـــاهُ فِي حِمَــايَــتِهَا فَسَـــامَهَا غَــاضِبًا أَقْسَى الْفَوَاقِيرِ
وَعَاثَ فِيهَا فَــسَــادًا قَاطِعًا شَجَرًا فِي سَوْرَةٍ طَــرَأَتْ مِنْ سُوءِ تَخْبِــيرِ
فَغَاضَهَا أَنْ تَرَى أَرْزَاقَــهَا قُطِعَتْ فِي غَضْبَةِ الْحَاقِدِ الْمَوْصُوفِ بِالْجُورِ
آلَتْ عَلَى نَفْسِهَا أَنْ تَسْتَجِيبَ لِمَنْ يَبْغِي هَــزِيمَــتَهُ بِالــذُّخْرِ وَ الْمِيرِ
فِي حَرْبِهَا لَنْ يَــرَى إِلاَّ مُــنَاجَزَةً حَتَّى يَفِيءَ إِلَى الإِصْــلاَحِ وَالْخيرِ
وَجَاءَ هُ نَــبَأٌ بِتَــأَنَّ غَــائِــظَــهُ أَوَى إِلَى «جِرْبَــةَ » لِوَثْبِ تَعْكِيرِ
فَسَارَ يَــطْــلُــبُــهُ فَهْدًا وَرَاءَ غَزَا لٍ عَزَّ مَهْــرَبُهُ فِي الْغِيلِ وَ الْغُــورِ
فَفَرَّ مِنْ وَجْهِهِ لِــبُــرْقَةٍ قَــتَــلَتْ مَنْ جَــاءَهَا غَــافِلاً بِالآلِ وَالضِّيرِ
أَمَّا «عَلِيٌّ »فَعَــادَ وَهْــوَ فِي حَرَدٍ يَشُــنُّ غَــارَاتِهِ فِي كُلِّ مَعْــمُورِ

(1) رجع «الْحفصي» من الآستانة بالباشاوية فأخذ البيعة لنفسه سنة 1089هـ 1678م حتى قدم ابن أخيه «عليّ» فسلمه إياها.(م.2و7و8).

بـــ«الكَافِ» قِيلَ أَخُوهُ عَادَ مُحْتَمِيًا فَكَرَّ يَطْـلُـبُهُ مِنْ دُونِ تَـأْخِـيرِ
وَحَرْبُـهُمْ بَقِـيَتْ عَـامًا مُؤَجَّجَةً وَالنَّاسُ قَدْ ضَـجِرُوا مِنْ أُمِّ صَبُّورِ[2]



(2) «أمّ صبّور» كنية الداهية العظيمة.

الْمنستير تُناصر مُحمّدا

ثَارَتْ«سَعِيدٌ»[1]مِنَ الإِرْجَافِ وَانْطَلَقَتْ

فِي شَنِّ غَارَاتِــهَا مِنْ «رَأْسِ إِيدِيرِ»[2]

إِلَى«الْمُنَسْتِيرِ» فَرَّتْ عِنْدَمَا انْكَسَــرَتْ

وَأَمْرُهَا قَدْ غَــدَا فِي خَطٍّ عُجْــرُورِ

«مُحَمَّدٌ» لَمْ يَجِدْ حِصْنًا يَقِيهِ مِنَ الْــــأَعْــدَاءِ فِي زَحْفِهِمْ غَيْرَ«الْمُنَسْتِيرِ»

وَافَى«سَعِيــدًا» بِهَا فَصَارَ فِي سَعَةٍ مِنْ خَوْفِ أَعْــدَائِهِ فِي أَمْنٍ مَخْفُورِ

أَعَدَّ أَسْــوَارَهَا بِالنَّارِ مُحْــتَــسِبًا لِكُلِّ طَــارِئَــةٍ تَــأْتِي بِمَــحْذُورِ

عُمْرَانُهَا ، بَعْدَ أَنْ وَفَّتْ بِمَا وَعَدَتْ زَهَا كَبَــارِقَــةٍ فِي لَــيْلٍ دَيْجُورِ

هَذَا «عَلِيٌّ»أَتَى يَبْغِي إِجَــاعَــتَهَا حَتَّى تُصِيــخَ لأَمْرِ الْقَــهْرِوَالْجُورِ

بِقَطْعِ زَيْــتُــونِهَا وَقَمْــعِ سَاكِنِهَا بِقِــلَّــةِ الرِّزْقِ وَالإِيقَاعِ فِي الضِّيرِ

«مُحَمَّــدٌ» جَاءَهَا يَبْغِي حِمَايَتَهَا مِنْ بَطْــشِ ظَالِمِهَا بِالْغَدْرِ وَالزُّورِ

«مُحَمَّدٌ» بَأيُــهَا فَمَنْ يُــنَازِعُهَا فِــي مَنْحِ جِيرَتِــهَا لِكُلِّ مَوْتُورِ؟

وَلْيَشْرَبِ الْخَلَّ مَنْ كَانَتْ مَسَرَّتُهُ فِي رُؤْيَةِ النَّــاسِ فِي حُزْنٍ وَقَاشُورِ

لَمَّــا أَتَى خَبَرُ الأَحْشَادِ صَارَ«عَلِــــيٌّ» فِي مَحَلَّــتِهِ فِي غَيْظٍ مَقْهُورِ

---

(1) «سعيد»هي قبيلة (أولاد سعيد)وقد كانوا دائما ثائرين وفي هذا الوقت انتشروا في «الوطن القبلي» وفي «الساحل» واعصوصبوا بــ«رباط المنستير» عندما دخله «مُحمدباي» مُحتميا سنة 1678م.(م.2).(2) «رأس إيدير» رأس أدار وهو الوطن القبلي أي شبه جزيرة شريك.

وَسَــارَ فِي جَيْــشِهِ يَبْــغِي أَخَاهُ فَلاَ يُثْــنِيتِهِ عَنْ عَــزْمِهِ نُــصْحُ النَّحَارِيرِ
بِــ«سُوسَةَ» نَزَلَتْ أَجْــنَادُهُ، وَلَقَــدْ سَارَتْ طَلاَئِــعُتهَا إِلَى «الْمُنَــسْتِيرِ»
فَلَمْ يَجِدْ مَنْــفَــذًا فِيــهَا لِيَدْخُــلَهَا وَصَــارَ يَرْمُــقُهَا غَيْظًا بِتَــشْــزِيرِ
فَقَامَ أَعْــيَــانُهَا يَسْــعَوْنَ بَيْــنَهُمَا كَيْ يَنْتَهِي الْخُلْفُ، لَكِنْ دُونَ تَــأْثِيرِ
قَامَتْ«سَعِيدٌ»بِمَكْرِالْحَــرْبِ طَالِــبَةً تَرْكَ الْمَمَرِّ لِتَسْــلِيــمٍ وَ تَهْــجِــيرِ
تَرَاجَعَ الْبَايُ فِي حَــزْمِ الْعُــتَاةِ وَ قَدْ تَأَخَّرَ الْجَيْــشُ عَنْ بَــوَّابَةِ السُّورِ
وَعِنْــدَمَا نَكَثَ الأَعْــرَابُ مَا غَزَلُوا قَادَ الْجُيُوشَ إِلَى«أُولَى الْحَوَاضِيرِ»[3]
وَعَــادَ فِي عَــجَلٍ دُونَ مُنَــاجَزَةٍ مُسْتَــقْــبِــلاً عَمَّهُ بِكُلِّ تَقْدِيرِ
مُسْتَلْهِمًا رَأْيَهُ فِي عَقْدِ هُــدْنَتِــهِمْ فَالْحَرْبُ قَدْ دَمَّرَتْ عَيْشَ الْجَمَاهِيرِ
أَمَّا أَخُوهُ،فَــعَزَّتْ نَفْــسُهُ ضَــجَرًا مِنْ طُــولِ غُرْبَتِهِ فِي الْحَرْبِ وَالضِّيرِ
فَاسْتَنْجَدَ الْعَوْنَ مِنْ أَهْلِ«الْجَزَائِرِ»فِي ضِــيقِ الَّذِي أَيَّسَ النَّفْسَ مِنَ الْخيرِ
فَجَاءَهُ عَاجِلاًمِنْ جَيْــشِــهِمْ مَــدَدٌ يَــبْــغِي مُنَازَلَــةَ الأَنْدَادِ بِالْــغُورِ
فَقَــادَهُمْ زَاحِفًا عَلَى جُــيُوشِ أَخِيــهِ قَــاصِــدًا مَحْــقَهُ بِكُــلِّ تَدْبِيرِ



(3) «أولى الحواضير» المقصود بها «القيروان» كما المقصود بــ«أم الحواضير» «تونس العاصمة».

وئام بعد الصدام

فِي«تُونِسَ»اعْصَوْصَبَ الدَّايُ[1]عَلَى أَمَلٍ
أَنْ يَأْخُــذَ الأَمْــرَ سَهْــلاً دُونَ تَأْمِيرِ

فَاصْطَلَحَ الأَخَوَانِ عِنْــدَمَا رَأَيَــا ضَــيَاعَ مُلْكِهِمَا فِي الْخُلْفِ وَالضَّيرِ
فَأَجْــمَــعَا حَرْبَهُ، لَكِنَّهُ فَــطِــنٌ وَلَمْ يَكُــنْ حَائِرًا ، بَلْ جِــدَّ مَوْتُورِ
ذَاقَا الأَمَرَّيْنِ مِنْ حَرْبٍ يَشِيبُ لَهَا الْــــوِلْدَانُ فِي الْمَهْدِ وَالأَطْفَالُ فِي الدُّورِ
وَارْتَدَّ جَيْشُهُمَا فِي الْحَرْبِ مُنْكَسِرًا وَصَارَ مَأْمَــنَــهُ حِصْنُ «الْمُنَسْتِيرِ»
آوَتْهُ نَاصِرَةً فِــي غَيْــرِ مَــا سَأَمٍ فِي فَرْحَــةٍ بِلِقَا الإِخْوَانِ فِي الْخَيرِ
وَرَاسَلاَ«خُوجَةً»[2] فِي بَعْثِ نَجْدَتِه فَــبَاتَ مَبْــعُوثُهُ قَدْ جَدَّ فِي السَّيرِ
وَهَبَّ فِي نَجْدَةِ الْمَوْتُورِ مُشْــتَرِطًا بَــعْــضَ الْغَنَــائِمِ إِنْ فَازَا بِــتَقْدِيرِ
وَحَــارَبَا الدَّايَ حَتَّى فَرَّ مُكْتَــفِيًا بِالأَوْبِ لِلــدَّارِ مَعْ لُطْــفِ الْمَقَادِيرِ
وَجُدِّدَتْ بَيْــعَةُ الإِثْنَيْنِ فِي كَنَفِ الْــــإِقْبَالِ حَتَّى غَــدَتْ فِي خَيْرِ تَيْسِيرِ
وَعَادَتِ الــنَّاسُ فِي الأَفْرَاحِ رَاتِعَةً مِنْ خَوْفِهِمْ أَمِــنُــوا وَغَــدْرِ مَغْدُورِ
إِلاَّ« عَلِــيًّا» قَضَى غَدْرًا، وَبَعْدَهُ عَا دَ الأَمْــرُ مُــؤْتَلِفًا مِنْ بَــعْدِ تَشْطِيرِ

---

(1)هو الداي «أحْمد شلبي» طمع في الْملك لنفسه وحارب الأخوين ودحرهما حتّى استنجدا عليه بِمتولّي الْجزائر فأنْجدهما (2) «خوجة» هو «إبراهيم خوجة» متولي« الْجزائر »آنذاك . رَاسَلَهَ الأخوان «مُحمد باي» و«علي باي» فأنْجدهما وتَمكنا من دحر الداي «أحْمد شلبي» سنة 1096هـــ 1685 وجددت البيعة للأخوين مقاسَمة .(م.2و7) .

نهاية الْمراديين

لَمَّا صَفَا الْحُكْمُ لِلْبَاقِي وَ دَانَ لَـــهُ ... بِالْطَّاعَةِ النَّاسُ مِنْ كُلِّ الْعَشَـــائِرِ

«مُحَمَّدُ بْنُ شُكُرٍ»[1] هَاجَ مَطْمَـــعُهُ ... فِي مُلْكِ أَصْهَارِهِ مِنْ دُونِ تَوْقِـــيرِ

«مُحَمَّدٌ» صَدَّهُ ،لَكِنَّهُ انْـــهَـــزَمَتْ ... أَجْنَادُهُ فَاحْتَمَى حِصْنَ «الْمُنَسْتِيرِ»

فَــجَمَّعَتْ جَيْشَهُ ، وَ اشْتَدَّ سَاعِدُهُ ... وَعَـــادَ ثَـــانِيَةً لِحَــرْبِ تَعْــكِيرِ

فَــفَرَّ خَائِنُهُ لِــ«ـــفَاسَ» مُنْهَزِمًا ... وَالْبَايُ عَـــادَ إِلَى «أُمِّ الْحَوَاضِيرِ»

وَسَارَفِي هُـــدْنَةٍ مَعَ «الْجَزَائِرِ» حَـــتَّى مَاتَ فِي غَمْرَةِ الأَحْدَاثِ وَالْخُورِ

«رُمْضَانُ»[2] لَمْ يَتَّبِعْ آثَارَ مَنْ ذَهَبُوا ... بَلْ سَلَّ مِنْ خُرْقِهِ سَوْطَ الْمَقَامِيرِ[3]

حَتَّى غَدَا مُبْغَضًا، وَالنَّاسُ تَــرْهَبُهُ ... لاَ يُرْتَجَى مِنْهُ إِلاَّ سُوءُ تَدْبِـــيرِ

لَمْ يَرْعَ لاِبْنِ أَخِيهِ ذِمَّـــةً وَ سَعَى ... لِسَمْلِ عَيْنَيْــهِ تَنْــكِيلاً بِتَـــوْغِيرِ

«مَزْهُودُ»[4] أَرْكَبَهُ شَرَّ الْمَرَاكِبِ فِي ... تَضْيِيعِ مَمْلَــكَةٍ بَيْـــنَ الْجَحَادِيرِ[5]

فَــقَـــامَ «بُو بَالَةٍ مُرَادُ»[6] يَقْتُلُـــهُ ... وَيَعْتَلِي عَـــرْشَـــهُ بِالْقَهْرِ وَالْجُورِ

---

(1) هو«مُحمد بن شُكر» ثار على صهره «مُحمد باي» سنة 1105هـ 1684م فحاربه «مُحمد باي» لكنه انهزم ففر إلى «الْمنستير» التي جَمعت له جيشا رجع به إلى «الْحاضرة» وهزم الثائرَ الذي هرب إلى«فاس» ومات بها ، وكان ذلك سنة 1106هـ /1694م.(م.7). (2) «رمضان» هو «رمضان باي بن مراد الثاني» تولّى بعد أخيه «مُحمد باي» لكنه كان خاملا متعسّفا حتى أثار الْحفائظ، فوثب عليه ابن أخيه «علي» وهو «مراد الثالث» وقتله وأخذ مكانه سنة 1110هـ 1698م.(م.7).(3) «الْمقامير» جَمع مقمور وهو الشر والكريهة ، يقال :(وقعت بين مقمورين) أي بين شرّين (4)مزهود كان مغنيا لدى رمضان باي وقد عاث فسادا في مدّة حكم سيده مع زميله عبد النبي.(5)الجحادير جمع جمع جحدر وهو الرجل الضعيف الرأي. (6) «مراد» هو «مراد الثالث أبو بالة بن علي بن مراد باي الثاني بن حَمودة بن مراد الأول» كان سفاكا للدماء وكان عصبي الْمزاج ،ولعلّ نقمته كانت بسبب اغتيال أبيه فأورث ذلك في قلبه حقدا على الرعية ،وثار على عمّه «رمضان باي» سنة 1110هـ 1698م وقتله وتولّى مكانه .

كَمْ نَكْبَةٍ وَقَعَتْ مِنْ جُوعِ«بَالَته»[7] فِي رَأْسِ مُتَّهَمٍ بِالْحَقِّ وَالزُّورِ
لَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ بَرْدًا لِحُرْقَتِهِ مِنْ ثَأْرِ وَالِدِهِ فِي النَّاسِ مَهْدُورِ
أَهْلُ «الْجَزَائِرِ»[8] قَامُوا بَعْدَ هُدْنَتِهِمْ فَسَارَ فِي حَرْبِهِمْ بِقَلْبِ عَتُّورِ
فَفَرَّ أَجْنَادُهُمْ مِنْ هَوْلِ مَاوَجَدُوا لَكِنَّهُمْ رَجَعُوا فِي كَرٍّ تَعْكِيرِ
فَعَادَ مُنْهَزِمًا مَنْ كَانَ مُنْتَصِرًا وَقَادَهُ حَنَقٌ مِنْ غَيْظِ مَقْهُورِ
فَخَانَهُ حِلْمُهُ وَالْغَيْظُ يَمْلَؤُهُ فَصَبَّ جَامًا عَلَى «أُولَىالْحَوَاضِيرِ»
وَعَاجَ مِنْ بَعْدِهَا يَبْغِي الرِّبَاطَ و قَدْ هَاجَتْ هَوَائِجُهُ فِي غَيْرِ تَفْكِيرِ
قَامَ«الشَّرِيفُ»[9]لَهُ وَاغْتَالَهُ وَسَطَا سَطْوًا عَلَى عَرْشِهِ مِنْ دُونِ تَأْخِيرِ
وَهَكَذَا دَوْلَةٌ مِنْ«تُونِسَ» انْقَرَضَتْ وَصَارَ أَصْحَابُهَا مِنَ الْمَقَابِيرِ
لاَ حَوْلَ إِلاَّ بِرَبِّ الْعَرْشِ وَارِثِهَا وَالنَّاسُ لَنْ يَهْرُبُوا مِنَ الْمَقَادِيرِ

---

(7) «البالة» هو سيف عريض النصل، قيل أنه كان لا يهدأ له بال ولا يتمكن من النوم إلاّ إذا رأى دما بشريا مسفوحا، فإن لم يَجد من يقتل صاح:«البالة جاعت» فيؤتى له بأيٍّ كان ولو بريئا ليقتله فيهدأ . (8) وحارب «مراد الثالث أبو بالة» الْجزائريين سنة 1112هـ 1700م فهزم صاحب «قسنطينة»، لكن هذا الأخير كرّ وفتك بجيش «مراد الثالث» في «سطيف» فعاد «مراد» مدحورا ودخل إلى«القيروان» وعبث بِمعالمها وبقي عابثا مَجنونا حتى قتله «إبراهيم الشريف» بِمواطأة الْجند في 3 مُحرم 1114 هـ 6 جوان 1702م.(م.7). (9) «الشريف» هو «إبراهيم الشريف» أصله من جند الأتراك بـ«الْجزائر» جاء مع «مُحمد ابن شُكُرْ» إلى« تونس» وانْخرط في خدمة «مُحمد باي» حتى أصبح آغا. وهو الذي أوقع بـ«مراد باي الثالث» وقتله. فبايعه الْجند وانتصب بـ«تونس» وأولى «قاره مصطفى» دايا ، ثم عزله وتقلّد هو وظيفته وأصبح يصدر الأوامر والْمراسيم باسم «إبراهيم باي داي» ثم جاءه لقب الباشا من الخلافة فاصبح يوقع «الباشا إبراهيم باي داي»واتّخذ «حسين بن علي تركي»كاهية له ، انتصر في حرب «طرابلس» سنة 1116 هـ 1704م ولكنه فشل في حرب «الْجزائر» وانهزم ثم وقع أسيرا سنة 1117 هـ 1705م ، فخلفه كاهيته «حسين بن علي تركي» مؤسس الدولة الْحسينية .(م.7)

بداية الدولة الْحسينية

سَارَ«الشَّرِيفُ»إِلَى حَرْبِ«الْجزَائِرِ»مُغْتَـــرًّا بِعَسْـــكَرِهِ فِي ثَـــوْبِ بَخْـــتِيرِ
«حُسَـــيْنُ»[1] ثَبَّطَهُ لَكِنْ تَهَـــوُّرُهُ أَعْمَاهُ فَانْــزَجَّ فِي هَـــوَانِ تَأْسِيرِ
وَبَايَـــعُوا «ابْنَ عَلِيٍّ»[1] بَعْدَهُ خَلَفًا فَجَدَّ فِي شَـــأْنِهَا بِكُـــلِّ تَـــشْمِيرِ
وَصَارَ تَرْتِيـــبُهُ عَلَى الْبُـــكُورَةِ مِيـــــــرَاثًـــا يُـــوَرِّثُهُ الأَبْــنَاءُ بِالـــدُّورِ
بِذَلِكَ انْخَلَـــعَتْ أَضْرَاسُ طَامِعِهِمْ فِي حَـــوْزِ مَمْـــلَكَةٍ بِالْغَدْرِ وَالزُّورِ
وَقَامَ مِنْ تَـــــوِّهِ يَبْنِي الْمَآثِرَ مِنْ تَنْـــظِيفِ سَاحَاتِهَا مِنَ الْمَخَـــامِيرِ
وَيَبْتَنِي «نَخْلَةً»[2] لِلْعِلْمِ قَدْ بَسَقَتْ فَـــقَامَ يُخَـــلِّدُهَا «سَعَادَةُ»[3] الْخيرِ
وَكَانَ «زَيْتُونَـــةٌ»[4] لِلْحَقِّ يَرْشُدُهُ قَدْ يَمْزِجُ الـــنُّصْحَ تَبْشِيرًا بِتَحْذِيرِ

---

(1) «حسين» هو «حسين بن علي تركي» من عائلة كريتية (كندية) تقلّد أبوه علي رئاسة الْمتطوّعين من الأعراب ، ونشأ «حسين» في كنف البايات من بني مراد ، وتدرج في الوظائف إلى خزندار إلى آغا الصبايْحية الترك . واتّخذه «إبراهيم الشريف» كاهية لأعماله . فلمّا أسر «الشريف» بـــ«الْجزائر» بايعه الناس بايا في 20 ربيع الأول سنة 1117 هــ /03جويلية 1705م بديوان الْمدافعية بـــ«القصبة» فرتب الأمر وراثيا في عائلته كابرا عن كابرا لقطع كل الأطماع وبذلك انقرضت رتبة الدايات.(م.7). (2) هي مدرسة «نَخلة» الْحسينية التي بناها حسين بن علي وأشاد بذكرها الشيخ مُحمد سعادة الْمنستيري في أشعاره,(3) «سعادة» هو الشيخ«مُحمد سعادة» الْمنستيري الأديب الشاعر الذي عاش في أواخر الدولة الْمرادية وأوائل الدولة الْحسينية وُلد سنة 1088 هــ وعاش 83 سنة وتوفي سنة 1171 هــ في عهد الأمير مُحمد الرشيد بن حسين بن علي ؛ ومن مؤلفاته «قرّة العين» فيكون معاصرا للشيخ «مُحمد زيتونة». (4)«زيتونة» هو الشيخ «مُحمد زيتونة الْمنستيري» الكفيف الْمولود سنة 1081 هــ الْمتوفي سنة 1138 هــ شيخ «الْمدرسة الْمرادية» وقد كان مقرّبا «للحسين بن علي» مؤسس الدولة الْحسينية و يترل هذا الأخيرعند رأيه ، وحضر جنازته ورفع نعشه بنفسه إلى« الْحلاّز».وكان لا يُخالفه ، ويتغاضى عن تَحامُلاته . لكنه خالفه مرّة بإظهارالكبر فغضب الشيخ ووقع بينهماوحشة؛ فلما توفي الشيخ انقلب على الباي ابن أخيه وربيبه «علي باشا». (م.9، مُحمد الْهادي العامري).

فَكَانَ لاَ يَأْتَلِي جُهْدًا لِمَنْفَعَةٍ لَكِنَّ عِفَّتَهُ فَوْقَ التَّقَادِيرِ
لَكِنْ«حُسَيْنُ» أَبَى وَعْظَ الصَّدِيقِ بِمَا يُبْقِي مَحَبَّتَهُ بَيْنَ الْجَمَاهِيرِ
وَالشَّيْخُ حَذَّرَهُ مِنْ سُوءِ عَاقِبَةِ الْإِخْلاَفِ فِي وَعْدِهِ أَقْوَى التَّحَاذِيرِ
قَدْ كَانَ ذَا نَظَرٍ، وَالْيَوْمَ فِي بَطَرٍ مِنْ دُونِمَا حَذَرٍ يُلْقِي بِتَصْعِيرِ
وَصَوْلَةُ الْحُكْمِ تُعْمِي كُلَّ ذِي نَظَرٍ فَيَرْتَمِي بَطَرًا فِي كُلِّ مَحْذُورِ
فَأَخْلَفَ الْوَعْدَ فِي عَهْدِ الرَّبِيبِ بِمَا أَثَارَ نِقْمَتَهُ مِنْ حِقْدٍ مَوْتُورِ
أَقَامَهَا فِتْنَةً كَادَتْ تُدَكُّ بِهَا أَرْكَانُ دَوْلَتِهِ طَيَّ الْعَجَارِيرِ[5]
لَوْلاَ تَدَارَكَهَا مِنْ بَعْدِهِ خَلَفٌ صَارَتْ مَآثِرُهُمْ حَلْيَ الدَّفَاتِيرِ



(5) «العجارير» واحدها العجرور وهو خطوط الرمل ترسُمها الرّياح.

ولاية علي بن حسين

لَمَّا تَوَلَّى «عَلِيٌّ»[1] أَمْـــرَدَوْلَــتِــه   وَسَادَ فِي عَـــهْدِه الأَمَـــانُ بِالْخير

لَمْ يَنْسَ مَنْ وَقَـــفَتْ فِي دَعْمِ دَوْلَتِهِمْ   بِالْخَيْرِ وَالْمَـــالِ وَالأَقْوَاتِ وَالْمِيرِ[2]

حَـــبَا «الْمُنَسْتِيرَ» مِنْهُ بِالْـــتـــفَـــاتَتِه   مُؤَسِّـــسًا جَامِـــعًا لِلدِّينِ وَالنُّورِ[3]

أَقَـــامَ مِنْ فَوْرِه لِـــ«لْمَازِرِيِّ»[4] مَقَا   مًا شَامِخًا وَحَمَى الأَحْيَاءَ بِالسُّورِ[5]

ضَمَّتْ «فِرَنْسَةُ» «كُرْسِيكَا» لِحَوْزَتِهَا   وَاسْتَرْجَعَتْ أَهْلَـــهَا مِنَ الْمَآسِـــيرِ

لَكِنَّ «تُونِـــسَ» مَا أَصْغَتْ لِمَـــطْلَبِهَا   وَأَعْرَضَتْ عَـــنْـــهُ تَعْرِيضًا بِتَحْقِيرِ

لَكِنَّ «بَارِيـــسَ» حَرَّكَتْ سَفَائِنَهَـــا   فِي الْبَحْرِ قَاذِفَـــةً مَرْسَى «الْمُنَسْتِيرِ»

وَدَارَتِ الْحَرْبُ، لَكِنْ هُدْنَةٌ عُقِدَتْ   فِي «قَصْرِ بَارْدُو» بِتَحْدِيدِ الْمَخَاسِيرِ



(1) هو «علي باي الثاني بن حسين بن علي تركي» رابع البايات الْحسينيين وفي عهده هاجم الأسطول الفرنسي مرسى «الْمنستير» في 1184هـ 1770م . ولكن الْهدنة لَم تبطئ بل أبرمت في «باردو» في سنتها . ثم خرجت الإعانة «للدولة العثمانية» ضد «روسيا» في حرب القرم سنة 1185هـ 1771م .(م.7).(2) وقفت المنستير مع علي باي وأخيه محمد الرشيد في محنتهم مع حسن باي الجزائري عند استرداد ملكهم من ابن عمّهم علي باشا(أحمد بن أبي الضياف،اتحاف أهل الزمان)(3)تقول بعض الْمصادر أنه «الْمسجد الْحنفي» أي «جامع بورقيبة» الآن.(4) هو «مقام الْمازري» الْموجود إلى الآن والذي دخلت عليه تحويرات أنقصت منه بعض الأفنية بعد الإستعماروقد استعمل هذا الْمقام في التدريس لسنوات طويلة قبل إحداث الْمعاهد العصرية. (5) هي أسوار «الربط» و«باب تونس» و«باب الكرم» .

المنستير في الدولة الْحسينية

كَفَى«الْمُنَسْتِيرَ» فَخْـــرًا أَنَّهَا دَعَمَتْ بِفِكْرِهَا دَوْلَــةً فِي الأَعْــصُرِ الْقُورِ

أَرْسَى دَعَائِمَهَا الأَبْنَاءُ فَانْــتَــشَرَتْ أَخْبَارُهَا بِالرِّضَا فِي كُــلِّ مَعْمُورِ

فَوَسَّعُوا رَبْضَهَا فَامْــتَــدَّ، واتَّسَعَتْ وَازْدَادَ عُمْــرَانُهَا، يَا خَيْرَ تَعْمِيرِ!

رَبْضٌ جَدِيدٌ عَــلاَ،فَكَانَ مُتَّــسَعًا قَامُوا بِتَحْـصِيــنه بِالْبَابِ وَالسُّورِ[1]

أَبْوَابُــهَا بَلَــغَــتْ عَدًّا ثَــمَــانِيَةً كَيْ تَغْتَــدِي جَنَّةً تَخْتَــالُ بِالْحُورِ

رَاجَتْ صِنَاعَــتُهَا فِي غَيْرِ مَوْطِــنِهَا وَجَابَ صُنَّــاعُهَا أَقْــصَى الْمَعَامِيرِ

مِنْ صُنْعِ أَسْلِحَة بِالْــبُرْجِ، أَوْ شَبَك لِلصَّيْدِ أَوْ سُــفُــنٍ شَــتَّى الْمَقَادِيرِ

أَثَــاثُــهَا أَصْــبَحَتْ فَخْرًا حِيَازَتُهُ أَوْ صُنْـــعُ أَبْوَابِهَا مِنْ حُسْنِ تَنْجِيرِ

أَسْــوَاقُــهَا ازْدَهَــرَتْ بِكُلِّ مُبْتَكَرِ مِنْ صُنْــعِ أَبْنَائِهَا الْغُــرِّالْمَــبَاكِيرِ

مِنْ صَاغَــةِ ذَهَبِ دَقَّتْ صِنَــاعَتُهُ أَوْ نَحْت مَرْمَرَةٍ ، أَوْ رُوحِ تَقْــطِيرِ

مِنْ صُوفِ أَغْنَامِهَا فِي السُّوقِ أَغْطِيَةٌ دَقَّتْ حِيَاكَتُهَا مِنْ كَفِّ «مسْتِيرِي»

أَوْ بُــرْنُـــسٌ جَلَــلٌ تُرْجَى مَهَابَــتُهُ تَفْصِيــلُهُ جَيِّدٌ فِي حُسْنِ«بِشْمِير»[2]

أَوْ سَــرْجُ سَابِحَةٍ مِنْ حُسْنِ صَنْعَتِهِ بَاهَــتْ بِهِ زَمَــنًا أَحْــلَى الْمَيَاثِيرِ

---

(1) هذا الربض هو «حومة الربط» الْحالية والباب هو «باب تونس» الْحالي وكذلك «باب الكرم » اتفق الْجميع على أن أبواب الْمنستيرسبعة إلاّ أهم يَسقطون «باب البنات» لحداثته مع أنه كان به برج وقد فتح مدرسة صناعية للبنات في أواخر أيام الإستعمار الفرنسي سُمي« باب البنات» وبه تصبح الأبواب ثَمانية مثل أبواب الْجنّة وهي:«باب القشلة» «باب الْخوخة» «باب الكرم» «باب تونس» «الباب الغربي» «باب بريقشة» «باب البنات» «باب السور». (2) «بِشْمِير» هوحاشية تصنع من حرير أوخيوط أونسيج آخر يطرز بها أطراف البرنس أو الْجبّة.

أَوْ حَبْكُ بِرْذَعَةٍ مِنْ حَشْوِهَا وَثِرَتْ ... وَامْتَازَ إِتْقَانُهَا بِشَدِّ «تَسْمِير»[3]

أَوْ صُنْعُ مَجْرُورَةٍ تَجْرِي بِهَا عَجَلٌ ... تَدُورُ فِي«كُوبِهَا»[4] دَوْرَ النَّوَاعِيرِ

تَجْتَازُ فِي سَيْرِهَا كُلَّ الْبِلاَدِ بِمَا ... شَاءَ الْحَرِيفُ مِنَ الأَنْقَالِ وَالْخِيرِ

غِرْبَالُهَا رَائِجٌ مِنْ أَجْلِ حِبْكَتِه ... لَيْسَتْ تُنَافِسُهُ صِنَاعَةُ الْغِيرِ

سِلاَلُهَا سَعَفُ الرُّسْتَاقِ أَوْ قَصَبٌ ... مِنْ دِقَّةِ الصُّنْعِ لَمْ تَخْضَعْ لِتَسْعِيرِ

أَمَّا مَعَاصِرُهَا فَاسْأَلْ زَنَادِلَهَا ... كَمْ مَطَرٍ[5] أَنْتَجَتْ أَوْزَيْت«فِيتُورِ»[6]

فَصَارَ صَابُونَهَا مِنْ صُنْعِ مَعْمَلِهَا ... تَخَالُ رَغْوَتَهُ نَثْرًا مِنَ النُّورِ

غَلاَّتُهَا اشْتَهَرَتْ، يَاحُسْنَ طَالِعِ مَنْ ... يَحْظَى بِنُكْهَتِهَا مِنْ دُونِ تَغْرِيرِ

لَوْلاَ الْمَلاَمَةُ شَبَّهْتُ الْجِنَانَ بِهَا ... تَعْبِيرُمُقْتَصِدٍ خَيْرٌ مِنَ الزُّورِ

تُفَّاحُهَا فَاحَ فِي الأَرْجَا لَهُ نَبَأٌ ... فَاخْتَارَهُ الْبَايُ مِنْ ضِمْنِ الْمَآثِيرِ

عَبِيرُهُ يَأْسِرُ الآنَافَ، يَجْعَلُهَا ... تَنْسَى الْعُطُورَ وَ تَنْسَى كُلَّ تَبْخِيرِ

مَنْ لَمْ يَذُقْ طَعْمَهُ لَمْ يَدْرِ قِيمَةَ مَا ... أَرْوِيهِ عَنْ ثِقَةٍ مِنْ غَيْرِ تَحْبِيرِ

كَمْ رَدَّ مُدْنِفَةً مِنْ بَعْدِ أَنْ فَقَدَتْ ... فِي حُبِّهَا أَمَلاً لِبِشْرِ تَبْشِيرِ[7]

فَعَادَ إِشْرَاقُهَا فِي الْوَجْهِ مُنْتَشِرًا ... يَحْكِي الصَّفَا أَلَقًا مَعْ حُسْنِ تَفْتِيرِ

---

(3) «التسمير» هو عمل من صناعة الحشو سواء كان في الحشايا أو البراذع أو السرج وهو شدّ الحشو إلى الحشيّة بخياطة تمنع انسيابه إلى جانب دون آخر. (4) «الكوب» وهي كلمة (كوبو) غير عربية وهي قلب العجلة الذي يدور فيه المحور (المغزل) وتنغرز فيه (الراويات) وهي الأشعة. (5) «مطر» هي وحدة كيل السوائل في القديم وهو مقدار 24 لترا من الزيت. (6) «الفيتورة » هي بقايا الزيتون بعد عصره ، فيعاد عصرها بطرق أخرى لإستخراج زيت يصنع منه الصابون. وما زال المعمل يشتغل إلى حين كتابة هذه الأبيات. (م.4). (7) إشارة إلى القولة المعروفة «التفاح اللي يفوح يرد العقل والروح»

وَمِشْمِــشٍ عَطِــرٍ لَوْ لاَ نَــوَاتُــهُ لَمْ … تَسْعَدْ بِهِ لِــثَّةٌ ، فِي الْبَــلْعِ مَيْسُورِ

أَمَّا مَــطَابِــخُهَا فَاحْذَرْ لِنَفْسِكَ مِنْ … أَنْفَــاسِ نُكْهَــتِهَا أَسْــرَ الْمَنَاخِيرِ

أَجْــيَالُهَا لَمْ تَــزَلْ تَرْوِي مَــذَاقَتَهَا … عَلَى تَعَاقُــبِــهِمْ بَيْنَ الْمَغَاضِيرِ[8]

فِي الصَّيْفِ سَرْدِيــنُهَا أَطْبَاقُهُ نَشَرَتْ … عَنْ عَدِّهَا وَ اعْتَصَتْ عَنْ كُلِّ تَقْدِيرِ

شِرْكَاوُهَا[9] انْــفَرَدَتْ فِي صَيْدِهِ فَغَدَا … رَمْــزًا يُمَــيِّــزُهَا فِي كُلِّ مَعْمُورِ

تَمُــرُّ أَسْــرَابُــهُ تَــرُودُ جَــائِــعَةً … بِالْقُرْبِ مِنْ شَاطِئٍ بَحْثًا عَنِ الْمِــيرِ

تُرْمَى لَهَا جُبْنَةٌ بِالْخُبْــزِ قَدْ مُــزِجَتْ … فَــتَــرْتَمِي نَــهَــمًا كَكُلِّ مَغْرُورِ

وَالْكُبُّ[10] يَرْصُدُهَا مِنْ تَحْتُ يُخْرِجُهَا … فِي لَمْحَةٍ خَارِجًا مِنْ فَوْقِ شَخْتُورِ[11]

إِعْــدَادُهُ فِــكْرَةٌ قَدْ قَــــلَّ عَارِفُهَا … خُصَّــتْ بِحِكْمَتِهَا نِسَا «الْمُنَسْتِيرِ»

فِي لَــذَّةٍ أَسَرَتْ مَــنْ ذَاقَ نُكْــهَتَهُ … فِي صُدْفَةٍ مَرَّةً ، وَلَــوْ عَلَى الْــفُورِ

إِمَّا فَطَائِرَ فِي الْمِقْــلاَةِ قَدْ دُحِــيَتْ … أَوْ بِالْفَــــلاَفِلِ إِذْ يُطْهَى بِتَفْوِيرِ[12]

تِلْكَ «الْمِسَلَّةُ»[13] كَالشِّرْكَاوِ طَبْخَتُهَا … رَغْمَ الْمَــنَاقِرِ مُدَّتْ كَالشَّوَاجِيرِ[14]

---

(8) «الْمغَاضير» جَمع «مغضور» أي عاش في خصب وخفض من العيش من الغضارة (9) «شركاو» سَمك صغير أصغر من خنصر اليد فإذا بلغه صار خشنا غير مرغوب في أكله ، وأكله اختصاص في أهل الْمنستير. (10) «الكبُّ» هو كيس من الشبك جيّد العيون يُعقَدُ بطريقة مُخالفة للعقد العادي للشباك ،ويصطاد به خاصّة الشركاو كما يصطاد بشباك أخرى تسمّى «أمبارة». (11) «الشختور» قارب صيد صغير بِمجذافين سريع وخفيف يطلق عليه بدارجتنا «شكيف» (12) «التفوير» من فوّر يُفوّر تفعيل فار يفور وهو طريقة الطبخ بالبخار فتوضع الأطعمة في كسكاس(آنية مثقوبة عدّة ثقوب لتمرير البخار) على قِدْر بها ماء أو مرق فتغلي القدر ويخترق البخار ما في الكسكاس فينضج. (13) المسلّة سمك مغزلي جيد وطويل وذو منقار طويل كمسلّة الخياط (المخيط الطويل) وفقراته عظامه زرقاء اللون ويعظم في شهر أيار(مسلة مايو). (14)الشواجير جمع شواجر وهي الرماح المشرعة.

أَمَّا «مسَلَّةُ مَايُو»فَـــهْيَ قَــدْ عُرِفَتْ   مِثْلَ الأَوَابِد[15] مِنْ أَصْلِ الدَّهَارِير[16]

أَمَّا بَرَاقِشُهَا [17] بِالكُسْكُسِ اشْتَهَرَتْ   أَوْ مَرْقَة حُصِرَتْ[18] مَعْ بَعْضِ تَبْهِيرِ

حَتَّى يُــذَاقَ بِــهَا طَعْمُ الْبَرَاقِشِ، لاَ   طَعْمَ الْبَــهَارَاتِ، أَوْ تُــرْمَى بِتَقْصِيرِ

لَمبُوكَةٌ«بِالْقَنَطْسِي»[19] كَانَ مَصْيَدُهَا   إنْ سُوِّيَتْ أَطْرَدَتْ جُوعَ الْمَفَاطِير[20]

وَالتُّـــنُّ مِنْ صَيْدِهَا ، مِنْ أَجْلِ وفْرَتِه   يُطْــهَى بِمَعْمَلِهَا فِي شُغْــلِ تَصْبِيرِ

مِيــنَاؤُهَا لَمْ يَــزَلْ تَــرْسُو بِهِ سُفُنٌ   تَغْــدُو مُحَمَّــلَةً مِنْــهُ بِــتَصْــدِيرِ

زَيْــتًا وَمِــلْحًا وَحَلْــفَاءً مُصَنَّــعَةً   وَغَــيْــرَ مَصْنُوعَة أَوْ نِصْفَ تَحْضِيرِ

لِكُلِّ شَيْءٍ أَمِينٌ لِلــرَّقَــابَــةِ وَالتَّــجْوِيدِ فِي صُــنْعِهِ مِثْلَ الْبَنَــادِير[21]

فِي البَحْرِ كَمْ سُفُنٍ بِالْحَاجِّ قَدْمَخَرَتْ   يَسْــعَوْنَ فِي عَــمَلٍ بِالْحَجِّ مَبْرُورِ

لاَ غَرْوَ أَنْ يَخْرُجَ الْحُجَّاجُ مِنْ حَرَمٍ   حَجًّا إِلَى الْحَــرَمِ الْمَكِّــيِّ لِلْخَيْرِ

فَيَرْجِــعُونَ بِغُــنْمٍ دَاعِمٍ عَــمَــلاً   بِالإِسْــتِــقَــامَةِ مِنْ تَــوْبٍ وَتَكْفِيرِ

يُعْطُونَ فِي غَــدَقٍ مِنْ خَيْرِ مَاقَطَفُوا   طُــلاَّبَــهُــمْ دُونَ مَــا شُحٍّ وَتَقْتِيرِ

فَالْعِلْمُ كَاتِــمُــهُ لِلــنَّــارِ تُلْجِمُهُ   يَصْلَى بِهَا حِقَــبًا فِي غَــيْــبَةِ النُّورِ

فَهْوَ الَّذِي حَجَبَ الأَنْوَارَ فِي صَلَفٍ   فَلْيُلْقَ فِي قَعْرِ أَطْــبَــاقِ الدَّيَــاجِيرِ

(**15**)الوحوش التي تطارد في الغابة (**16**) الدّهارير: أول الزمان في الماضي وهي صيغة لا مفرد لها (**17**) «البراقش» من بَرْقَشَ أي زيّن بألوان مُختلفة والبراقش جمع قلة من برقاش(اسم النوع) وبرقاشة (اسم الفرد) وهو سَمك يبلغ طوله من 10 إلى 20 صنتيمترا يغلب عليه اللون البني إما داكنا أو فاتحا حسب مكان الصيد وبه خطوط زرقاء وسوداء واضحة بذاتها (**18**) «حُصِرَتْ» يُقَال (حَصَرْتُ الْمرقةَ) أي أقللت مرقها وهي بذلك تكون ألذّ. (**19**)القنطسي بالقاف البدوية ظُلّة من جريد النخل ترمى على سطح الماء فيجتمع تحتها سمك اللمبوكة فيؤخذ بالشباك (**20**)المفاطير جمع مفطر وهو الصائم حين فطره . (**21**)البنادير جمع بندر وهي المدينة التجارية الساحلية.

وَ«قُلَّـــةٌ»[22] بَــــرَزَتْ لِلْخَيْرِ سَاعِيَةً لِـــدَفْعِ غَـــائِـــلَةٍ عَـــنْ كُلِّ مَعْسُورِ
أَمْوَالُهَا جُمِّـــعَتْ فِي غَيْرِمُعْتَـــسَفٍ مِنْ قَطْرَةِ الزَّيْتِ فِي أَعْـــقَابِ تَقْطِيرِ
صَـــارَتْ هَنَاشِرُهَا لِلـــنَّاسِ مُزْدَرَعًا يَجْـــنُـــونَ مِنْ حَبِّهَا كَيْلَ الْقَنَاطِيرِ
مُحْتَرَثٌ بَعْضُهَا ، وَبَعْضُهَا قَصَبٌ[23] فِي رَعْيِهِ أَمَلٌ فِي الْخِصْـــبِ وَالْخَيرِ
فَكَانَ مِنْ بِـــرِّهَـــا بِـــرٌّ بِسَاكِنِهَا فِي وَفْرَةِ الْخِصْبِ أَوْفِي جَدْبٍ تَقْتِيرِ

(22)«قُلّة» هي «جَمعية القلّة» التي تكوّنت مثل صندوق تضامن بين الْمنستيرين و وقع حلها بأمررئاسي في فيفري 1958 وأحيلت أملاكها إلى«بلدية المنستير»، وكان آخر رؤسائها السيد«صالح نابي» أطال اللّه أنفاسه.(م.20). (23) كانت الأرض في نظام الْمراح تزرع فتسمّى مُحترثا وتترك للرعي فتسمّى قصبا، و بالرعي يقع تسميدها فتنتج في العام القابل إنتاجا أجود (م.20 أرشيف جَمعية القلة).

انْحلال الدولة الْحسينية

يَا دَوْلَةً عَــمَّـــرَتْ بِالْفِكْرِ رَكَّــزَهَا وَالنُّصْحَ أَمْحَضَهَا فِكْرُ«الْمُنَسْتِيرِي»[1]

قَــرْنَيْنِ دَامَتْ وَ نِصْفَ الْقَرْنِ نَافِلَةً سَــارَتْ مَــحَامِدُهَا فِي كُلِّ مَعْمُورِ

كَمْ خَصْلَة سَجَّلَ التَّارِيخُ مُفْــتَخِرًا فِي سُـودِ أَوْرَاقِهِ خَــطًّا مِنَ الــنُّورِ

دُسْتُــورُهَا أَوَّلٌ فِي الْكَــوْنِ قَاطِبَةً «عَهْدُ الأَمَانِ»حَوَى حَــقَّ الْجَمَاهِيرِ

وَالرِّقُّ؟.إِلْغَــاؤُهُ أَحْــكَامُهُ صَدَرَتْ وَصَــارَ فِي ذِكْــرِهِ طَــيَّ الْمَغَابِيرِ

لَكِنَّــمَا سُــنَّــةُ الأَكْــوَانِ مَاضِيَةٌ وَبَالِغُ الأَوْجِ مَاضٍ نَحْوَ تَقْــــصِيرِ

فَبَعْدَ عِــزَّتِــهَا وَبُــعْدِ هِــمَّــتِهَا فِي الْكَوْنِ شَــامِــخَــةً بِكُلِّ مَأْثُورِ

شَاخَتْ وَدَبَّ سُقَامُ الْوَهْنِ فِي جَسَدٍ أَبْلاَهُ كَــرُّ الْجَــدِيــدَيْنِ بِتَمْــرِيرِ

وَعِنْدَمَا أَفَلَتْ وَانْحَلَّ ما عَــقَــدَتْ كَانَ مُقَــوِّضَهَا « نَجْلُ الْمُنَسْتِيرِ»[2]



(1) هذا الْمفكّر «الْمنستيري» هو الشيخ« مُحمد زيتونة» الْمذكور آنفا. (2) «نَجل الْمنستير» هو الزعيم الرئيس «الْحبيب بورقيبة».

ثورة الساحل1864م

لَمَّا رَأَى «الْبَايُ»[1] نَقْصًا فِي خَزَائِنِه ... مِنْ كَثْرَةِ اللَّهْوِ وَالإِنْفَاقِ فِي الضَّيرِ

دَعَا بِطَانَةَ سُوءٍ طَالِبًا نَظَرًا ... وَالشَّهْدُ لاَ يُجْتَنَى مِنْ عُشِّ زُنْبُورِ

فَزَادَهُ صَلَفًا مَنْ جَاءَ يَنْصَحُهُ ... وَلَمْ يَجِدْ مُخْلِصًا يَهْدِيهِ لِلْخَيرِ

وَسَارَ أَجْنَادُهُ يَجْبُونَ فِي عَسَفٍ ... مِنْ دُونِمَا رَادِعٍ عَنْ فِعْلٍ مَحْظُورِ

فَأَجْحَفُوافِي مُكُوسِ السُّوقِ وَابْتَدَعُوا ... إِعَانَةً لَمْ تَكُنْ إِلاَّ لِتَبْذِيرِ

لَيْسَتْ سِوَى جَشَعٍ مِنْ دُونِمَا وَرَعٍ ... لِرَدِّ عَادِيَةٍ أَوْ نَصْرِ مَقْهُورِ

قَامَتْ «مُنَسْتِيرُنَا» فِي ثَوْرَةٍ غَضَبًا ... مِنْ جَوْرِ حُكَّامِهَا فِي عُمْقِ تَفْكِيرِ

جَالَتْ مَشَائِخُهَافِي الرَّأْيِ،ثُمَّ ارْتَأَوْا ... إِعْلاَنَ عِصْيَانِهَا مِنْ دُونِ تَأْخِيرِ

فَأَمْسَكَتْ جُنْدَهَا عَنِ اللِّحَاقِ بِمَنْ ... لَمْ يَحْفَظُوا حَقَّهَا فِي مَنْعِ تَسْخِيرِ

وَأَوْصَدَتْ بَابَهَا فِي وَجْهِ ثَائِرِهِمْ[2] ... وَرَتَّبَتْ حَرَسًا فِي شُرْفَةِ السُّورِ

وَجَاءَ«عُصْمَانُ»[3]بَاغِيًا كَسْرَشَوْكَتِهَا ... مُحَاوِلاً جَرَّهَا لِفِعْلِ شِغِّيرِ[4]

لَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ فِي سُورِهَا ثَلَمًا ... مِنْهُ يَمُرُّ إِلَى قَلْبِ الْمَعَايِيرِ

«أَبُو النَّجَاةِ»[5] أَتَى يُرِيدُ عَوْدَتَهُمْ ... لِطَاعَةِ الْبَايِ لَكِنْ دُونَ تَثْمِيرِ

(**1**)هو«مُحمد الصادق باي» الذي وقع الإحتلال الفرنسي في عهده سنة1881 م.(**2**) الثائر هو علي بن غذاهم **الذي** لم تشاركه المنستير في ثورته رغم التزامن وقد أوصدت بابها في وجه أجناده.(**3**) هو «الفريق عصمان» **الّذي تولّى عمل** «الْمنستير»في أوائل القرن التاسع عشروحاول إذلال أهلها وبنى قصرا على ضفاف «الكحلية» الآن (**والْمكان مازال** يعرف«بدار الفريك»وابتنى به مدرسة أراد أن يُجبرالنّاس على ارتيادها لكنهم أبوا فأهان **شيخهم وأذلّه**) . (م.4و5).(**4**) «شغِّير» مخادع ومنافق وخائن لأهله.(**5**) هو اللواء «أبو النجاة سليم» مبعوث الباي **لاستمالة الْمستيريين** إلى صف الباي. (م.4و5).

فَــلاَنَ ثَانِــيَـــةً يَــدْعُو لِسَــيِّــــدِه لَكِنَّــهُ لَمْ يَــفُزْ مِنْــهُمْ بِقِطْــمِيرِ
بَلْ صَاحَ فِي وَجْهِهِ شَعْبٌ أَبِيٌّ، أَبَى إِذْلاَلَهُ دَائِــمًا بِالنَّــهْبِ وَالْجُــورِ
وَ عَادَ مُصْــــطَحِبًا مِنْ سُوءِ طَـــالِعِه خِــــزْيًا وَسُخْــرِيَةً وَ قَــرْعَ تَقْعِيرِ
مِنْ بَعْدِه«حَسَنُ الْمَقْرُونُ»[6] جَاءَ رَجَا ءً شَــرْحَ مَا طَلَــبُوا ، فَهْمًا بِتَنْوِيرِ
فَقَالَ مُفْتِيِّهُمْ[7]:«مَا كَانَ مَطْــلَبُــنَا إِلاَّ عَــدَالَــتَــكُمْ فِي رَفْعِ دَيْجُورِ
إِنَّ الْوَزِيرَ[8] طَغَى فِي حُكْمِه وَغَــدَا كَشَــوْكَةٍ غُرِزَتْ فِي حَلْقِ مَذْعُورِ
وَالظُّلْمُ مِنْ شَــأْنِهِ رَجُّ الْعُرُوشِ إِذَا لَمْ يَلْقَ مِــنْ نَاصِرٍيُخْشَى لِمَقْــهُورِ
وَالْحُكْم أَفْــسَدَهُ الْمَمْلُوكُ فِي بَطَرٍ إِذْ لَمْ يَكُــنْ هَمَّـــهُ حَقُّ الْجَمَاهِيرِ
بَلْ كُلُّ مَطْــلَــبِه إِرْضَــاءُ سَيِّــدِه حَتَّى يَرَى الْعَدْلَ مِنْ طَيْشِ الْمَغَارِيرِ
كَــذَا الْمَمَــالِيكُ لاَ تُرْجَى مَوَدَّتُهُمْ إِلاَّ الْقَــلِيلَ وَ لَوْ كَــانُوا مِنَ الْحُورِ
وَالنَّاسُ مِنْ ظُلْمِهِمْ ذَاقُوا الْبَلاَءَ وَكَمْ ضَاعَتْ حُقُوقٌ لَهُمْ فِي خَطِّ عُجْرُورِ
لاَ يَخْدِمُ الْوَطَنَ الْمَحْــبُوبَ غَيْرُ بَنِيــــهِ خِــدْمَــةً دُونَ أَطْمَاعِ الصَّعَارِيرِ
هَذِي مَطَالِــبُــنَا نَرْجُو تَحَــقُّقَهَا فِي قُــطْــرِنَاعَاجِلاً مِنْ حُسْنِ تَدْبِيرِ
وَلاَؤُنَا دَائِــمًا لِلْبَــاي نَضْــمَــنُهُ لَكِنْ كَــرَامَــتُــنَا فَــوْقَ الْمَعَايِيرِ»
خَــفَّ الْــوَزِيرُ وَنَادَى فِي بِطَانَتِهِ: أَنِ ارْكَــبُوا عَاجِلاً إِلَى «الْمُنَسْتِيرِ»

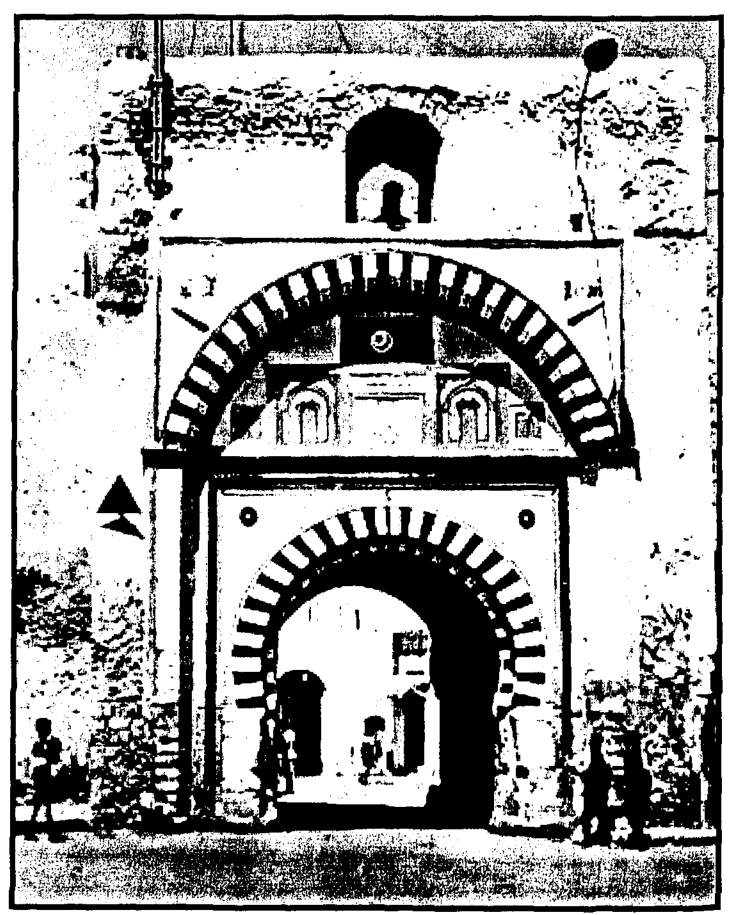
---

(6) هو «حسن المقرون» الذي أوفده الباي فزار «الْمنستير» في 26 سبتمبر 1864م ليستفسر عن مطالبها. (م.4و5).
(7) هو الْمفتي «مُحمد بوزقرو الجدّي» الذي بيّن لِمبعوث الباي مطالب «الْمنستير» في إقصاء «مصطفى خزندار» وإبعاد الْمماليك وتولية التونسيين مَحلهم في الوظائف الْحكومية. (م.4و5و8). (8) هو «مصطفى خزندار» وزير السوء لدى «الصادق باي».(م.4و5و8).

فَكَانَ«زَرُّوقُ»(9) مَنْ وَافَى بِأَخْذَته مُتَّخـــذًا ضِــدَّهَا أَقْسَى التَّدَابيرِ

فَصَبَّ نِقْمَتَهُ فِي الـــشَّعْـــبِ يَنْهَبُهُ بالــرُّعْب يَسْحَقُهُ بالْحَقِّ وَالـــزُّورِ

وَسَاقَ أَعْيَانَهُمْ لِلْـــسِّجْنِ يَحْبِسُهُمْ وَالْبَعْـــضُ صَارَ فَقِيدَ الأَهْلِ وَالدُّورِ



(8) «زرّوق» هو الجنرال «أحْمد زروق» قائد عساكر الباي وصنيعة الوزير «مصطفى خزندار» ؛والأخذة هي اسم المرة من(أخَذَ)،قال تعالى: {فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (10) الحاقة} و تطلق على النكبة أو الشدّة وما زالت الذاكرة الشعبية تطلق على هذه الحادثة (أخذة زروق) و تسمى أيضا مثل هذه النكبات (تتريكة) نسبة إلى الترك حيث إن أوّل ما عرف منهم المجتمع التونسي عرف القراصنة .(م.4و5و8).

الإستعمار الفرنسي

مَازَالَ لَمْ يَنْدَمِلْ جُرْحُ الْمُصَابِ بِمَا ... أَتَاهُ «زَرُّوقُ» مِنْ ظُلْمٍ وَتَفْقِيرِ

حَتَّى غَدَا أَهْلُهَا فِي شَرٍّ مَخْمَصَةٍ[1] ... وَأَرْضُهَاأَجْدَبَتْ مِنْ غَيْضٍ تَنْضِيرِ

قَامَتْ «فِرَنْسَا» بِغَزْوِ الْقُطْرِ قَاهِرَةً ... شَعْبًا بِأَكْمَلِهِ بِالْعَسْفِ وَالْجُورِ

وَقَامَ أَبْطَالُهَا بِالدَّفْعِ مَا وَسِعُوا ... وَهْنًا عَلَى وَهَنٍ مِنْ حَظٍّ عِثِّيرِ

لَكِنَّهُمْ كُبْكِبُوا فِي الأَسْرِ وَ انْكَمَشُوا ... فِي طَيٍّ مَا وَجَدُوا مِنْ بَعْدِ تَنْشِيرِ

فِي«السَّاحِلِينَ» وَفِي«مُعْتَمَرٍ»وَجَدُوا ... أَضْعَافَ قُوَّتِهِمْ فِي الْعَدِّ وَالْمِيرِ

بِالرَّغْمِ مِنْ جَهْدِهِمْ فِي ضُعْفِ قُوَّتِهِمْ ... كَانُوا لَنَا مَثَلاً فِي الصَّبْرِ لِلضَّيْرِ

نَالُوا مِنَ الشَّرَفِ الأَعْلَى مُسَامَتَةً ... قَلَّتْ نَظَائِرُهُمْ فِي الأَعْصُرِ الْقُورِ

رَغْمَ الْبَسَالَةِ لَمْ يَحْظَوْا بِتَكْرِمَةٍ ... مِنْ بَعْدِ نَكْسَتِهِمْ غَيْرِ الْعَزَائِيرِ[2]

وَقَامَ أَعْدَاؤُهُمْ يَسْعَوْنَ فِي حَنَقٍ ... لِخَنْقِ أَنْفَاسِهِمْ، كَيْلَ السَّنَادِيرِ[3]

فَأَغْلَقُوا سُوقَهُمْ وَ كَانَ مُزْدَهِرًا ... يَغْشَاهُ قُصَّادُهُ مِنْ كُلِّ مَعْمُورِ

وَأَفْلَسُوا أَهْلَهُمْ فِي مَالِهِمْ فَغَدَوْا ... مِنَ الْمَعَاوِيزِ مِنْ بَعْدِ الْمَيَاسِيرِ

فَزَوَّدُوا فَقْرَهُمْ فِي غَيْرِ مَخْمَصَةٍ ... وَهَوَّنُوا أَمْرَهُمْ بِالْكِذْبِ وَ الزُّورِ

وَأَكْرَمُوا نَذْلَهُمْ كَيْ يَرْكَبُوا غَرَرًا ... فَيُرْغِمُوا أَنْفَهُمْ لِلذُّلِّ وَالنِّيرِ

فِي بَلْدَةٍ قَدْ رَأَتْ عِزَّ الأُبَاةِ وَذُلَّ ... الْقَهْرِفِي أَنَفٍ مِنْ كُلِّ تَحْقِيرِ

---

(1) إشارة إلى مَجاعة «بوبراك». (2) جمع (عزائر) وهي العيدان الباقية من الشجر (لاواحد له).(3)كيل السنادير (كيل السندرة) القتل الذّريع.

فَقَامَ مَنْ بَقِيَتْ فِي كَفِّهِ فَضْلَةٌ ... يَرْجُو مُشَارَكَةَ الإِخْوَانِ فِي الْخَيرِ
وَهَكَذَا انْتَعَشَتْ بَعْدَ الْخُمُودِ كَمَا ... يَحْيَا اللَّهِيبُ بِنَفْخٍ مِنْ فَمِ الْكِيرِ
هَبُّوا لِنَجْدَتِهَا، لَكِنَّهُمْ عَجَزُوا ... لَهْفِي عَلَى مَاجِدٍ فِي الْعَجْزِ مَأْسُورِ!
وَقَامَ أَصْحَابُهَا يَرْجُونَ نَجْدَتَهَا ... بِبَذْلِ مَا قَدَرُوا مِنَ التَّدَابِيرِ
وَعَارَضَتْ دَوْلَةُ الطُّغْيَانِ مَدَّ خُطُو ... طٍ لِلْقِطَارِ بِهَا رَغْمَ التَّقَارِيرِ
كَيْ لاَ يَكُونَ لَهَا حَظُّ الْكِرَامِ وَلاَ ... يَبْقَى لِسَاكِنِهَا غَيْرُ الْمَحَاقِيرِ
وَسَوَّدَتْ خَائِنًا يَرْجُو تَمَلُّقَهَا ... فِي قَوْمِهِ نَاهِدًا مِثْلَ الْغَضَافِيرِ
مُسْتَأْسِدًا كَالَّذِي يَسْعَى لِنِعْمَتِهِمْ ... وَمَارِغًا أَنْفَهُ قُدَّامَ عَتُّورِ
لَكِنَّهُمْ ، قَدْ سَعَوْا فِي ضُعْفِهِمْ وَبَنَوْا ... ذِكْرًا سَرَى نَشْرُهُ فِي كُلِّ مَعْمُورِ
فَزَيْتُهُمْ قَدْ غَدَا فِي الْكَوْنِ قَاطِبَةً[4] ... أَغْلَى الزُّيُوتِ وَأَعْلَى فِي الْمَقَادِيرِ
أَبْطَالُهُمْ فِي غِمَارِ الْحَرْبِ قَدْ بَرَعُوا ... فِي دَفْعِ عَادِيَةٍ أَوْ نَصْرِ مَقْهُورِ[5]
وَبَعْدَمَا أَهْمَلَ الْمُحْتَلُّ صِحَّتَهُمْ ... وَصَارَ مَرْضَاهُمُ فِي شِدَّةِ الضِّيرِ
قَامُوا يَرُومُونَ مُسْتَشْفًى يُعَالِجُهُمْ ... يَبْنُونَ حِيطَانَهُ بِالصَّخْرِ وَ الْجِيرِ[6]

---

(4) إشارة إلى حصول «الْمنستير» على الْجائزة الأولى في الْمعرض العالَمي بــ«نيويورك» سنة 1922. (م.أرشيف بلدية الْمنستير). (5) إشارة إلى بعض أبطال «الْمنستير» الذين جندهم «فرنسا» في الْحرب العالَمية الأولى ضدّ أعدائها وسقطوا شهداء منهم«عامر بوزقرو»سنة 1916 وقد أقام له الْمجلس البلدي حفلا تذكاريا لتأبينه. (م.مَحاضرجلسات بلدية الْمنستير). (6) فعلا بني هذا الْمستشفى على أرض «سانية الساقوسي» باتّفاق رئيس البلدية العامل« الطاهر العجيمي» و السيدرئيس جَمعية الأوقاف أمام الباي« مُحمد الناصر»سنة 1905 ووقع تدشينه سنة1911 وهو الْمستشفى الْجامعي الْحالي، وألّف الشيخ « مُحمد مَخلوف» بالْمناسبة كتابه «الْمازرية» الذي قام بطبعه فيما بعد الْمرحوم «عبد الله الزناد» ، وبقيت إدارة الْمستشفى بيد البلدية إلى سنة 1959 ،حيث تم تعويضه مع الدولة بمساكن الثكنة.(م.20).

حَتَّى اشْمَخَرَّ وَ بَاتَ النَّاسُ فِي فَرَحٍ بِحفْظ صِحَّتِهِمْ مِنْ كُلِّ تَعْكِيرِ
وَصَارَ جِيرَانُهُمْ يَبْغُونَ عِنْدَهُمُ دَفْعًا لأَدْوَائِهِمْ وَكُلِّ مَحْذُورِ
وَصَارَ تَعْلِيمُهُمْ مَسْخًا لِشَخْصِيَةٍ لَمْ تَنْفَصِمْ أَبَدًا طُولَ الأَعَاصِيرِ
فَالضَّادُفِي مَكْتَبِ التَّعْلِيمِ مُهْمَلَةٌ لَمْ تَحْظَ فِي صَفِّهِ بِأَيِّ تَقْدِيرِ
وَالنَّاسُ إِنْ حَنَقُوا لاَ يَمْلكُونَ سِوَى حِفْظِ الْحَيَاة وَلَوْفِي بَعْضِ تَكْدِيرِ
ذَلَّتْ نُفُوسُهُمُ وَانْقَادَ أَكْثَرُهُمْ لِلْوَاقِعِ الْمُرِّ مِنْ قَهْرٍ وَغشْمِيرِ[7]
وَالدِّينُ يَرْزَحُ تَحْتَ الْفَقْرِطَالِبُهُ وَالْجَهْلُ عَمَّ جَمِيعَ النَّاسِ بِالضِّيرِ
حَتَّى الشَّهَادَةُ أَضْحَى نُطْقُهَا عَسِرًا كَأَنَّ قَائِلَهَا قُدَّامَ مَحْضُورِ[8]
فَقَامَ «عُثْمَانُ»[8]فِي وَجْه كَنِيسَتِهِمْ وَشَادَ مَدْرَسَةَ الْقُرْآنِ وَالخَيرِ
فَجَذَّرَ الطِّفْلُ فِي الدَّرْسِ عُرُوبَتَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَرْتَقِي فِي«جَامِعِ النُّورِ»[9]
غَذَّى الْفُؤَادَ بِإِخْلاَصٍ لِمَوْطِنِه حَتَّى غَدَا مُدْرِكًا زَوْرَ الزَّعَارِيرِ[10]
لَكِنَّهُمْ نُكِبُوا فِي هَدْمِ مَرْفَإِهِمْ وَخَافَ مُوسِرُهُمْ مِنَ الْعَوَاقِيرِ

---

(7)الغشْمير: الشدّة، أخذته بالغشمير أي بالشدّة (8)المحضور هو الذي نزل به الموت أي في حالة احتضار. (9)«عثمان» هو«الْحاج عثمان هنية» من سكان «الباب الغربي» ولدحوالي 1845، أسّس مقرّ «الْمدرسة القرآنية» أمام الكنيسة بـ«الربط» سنة 1918م وحبّسها للتعليم القرآني واللغة العربية ،ولعلّ من طريف ما ورد في نصّ التحبيس أن الْمحبّس اشترط أن يقرأ التلاميذ كلّ يوم سورة « الإخلاص» ، فكان مديرها الأول الْمرحوم الشيخ « مَحمود عباس»، ومديرها الأخير الْمرحوم « مُحمد الْهادي العامري» ،حيث وقفت عن التدريس في أكتوبر 1958 ؛ وعمّر «الْحاج عثمان» 80 سنّة وتوفي في 30 أكتوبر 1925 م وسجل وفاته الْمرحوم الشيخ «مُحمدصالح عباس». ويظهر أن الْمدرسة أسّستها سنة 1909 جَمعية القلّة في مكان آخر وانتقلت لهذا الْمكان بعد أن حبسه الْحاج عثمان(م.5 و4). (10)«جامع النور» **الْمقصود** به جامع الزيتونة الْمعموروفروعه ومنها فرع الْمنستير(11) زور الزعارير: ميل واعوجاج، والزعارير (جمع زعرور) **الرجل السيّء** الخلق .

فَطَالَـبُوا أَنْ يُقَـرُّوافِي مَـدِينَـتِهِمْ سِـيَـاحَةً[12] عَـلَّهَا تَـأْتِي بِتَوْفِيرِ

فَأَسَّـسُواثَكْنَةً فِي جَنْـبِـهَا غُرِزَتْ لِقَمْـعِ سُكَّانِهَا بِالْقَـهْرِ وَالْجُورِ

وَحَـارَبُوا دِينَـهَا بِكُـلِّ مَخْبَـثَةٍ بِدَعْـمِ حَانَـاتِهَا أَوْفَتْـحِ مَاخُورِ

حَتَّى يَمِيعَ شَبَابُ الْمُسْلِـمِينَ وَتَخْـبُو نَخْوَةٌ فِيهِمُ فِي إِثْـرِ تَخْدِيرِ

بَيْنَ الرِّبَاطِ وَبَيْنَ الْجَامِعِ انْتَصَـبَتْ دُورُ الْخَـنَاءِ بِتَـشْجِيعٍ وَتَأْطِـيرِ

لِلّٰهِ كَيْفَ الْتَقَى طُهْـرٌ بِعُهْـرٍ بِسَا حِ الْمُسْلِمِينَ، فَضَاعَ الْبِرُّ فِي الزِّيرِ

(12)بعد أن هدم« الألمان » «ميناء الغدير» أثناء الحرب العالمية الأولى، و بعد رفض سلطات الإحتلال مرور السكة الحديدية منذ 1907م طالب المجلس البلدي بإقرار «المنستير» مدينة سياحية منذ 1922 م ،بعد تهيئة «طريق القراعية» عن طريق السخرة البلدية (أي تسخير النّاس للعمل بدون أجر) سنة 1919م فلم تقع الإجابة بل تمّ انتزاع أراضي «الحماري» من أصحابها عنوة لبناء ثكنة للحرس المتجول سنة 1932 م (م .20 أرشيف بلدية المنستير) هذه الثكنة هي الآن مقر العيادات الخارجية وكلية الطب ، وقد عملت قبل ذلك مدرسة لترشيح المعلّمين .

حادثة التجنيس

وَنَازَعَ الْبَدْوُ فِي حَــقِّ التَّمَلُّكِ فِي إِنْــزَالِ رَاتِــعِهِمْ عُشْبَ الْهَنَاشِيرِ
وَأَصْدَرَ الْحَاكِمُ الْحُكْمَ الظَّلُومَ بِمَا يَقْضِي بِتَمْــلِيكِهِمْ بِالْغَدْرِ وَ الزُّورِ
وَلَمْ يَكُــنْ حُكْــمُهُ إِلاَّ مُــرَاكَنَةً مُخَالِفًا شَــرْعَــهُ،بِكُــلِّ تَــزْوِيرِ
وَالصَّدْرُضَاقَ بِمَنْ قَدْجُرِّعَتْ غُصَصًا وَالْعِزُّ يَدْفَعُهَا : « قُومِي! أَلاَ! ثُورِي!
مُنْذُ الْقَــدِيمِ بَنَى الأَبْــنَاءُ عِــزَّهُمُ فَانْتَهِجِي نَهْجَهُمْ،فِي دَرْبِهِمْ سِيرِي!
فَالْعِزُّ لاَ يُشْــتَرَى إِنْ ذَلَّ صَــاحِبُهُ وَالْمَوْتُ آخِذُهُ فِي الشَّرِّ وَالْخيرِ.»
فَثَارَ فِي صَدْرِهَا كَالْقِدْرِ مِنْ غَضَبٍ يَغْــلِي وَيَعْــلُو لَظًى إِلَى الْمَنَاخِيرِ
لاَ! لاَ«فَرَنْسَا»، فَإِنَّ الشَّعْبَ مُنْطَلِقٌ فِي رَدِّ قَمْــعٍ بِأَصْلاَبِ السَّمَاهِيرِ
هَذِي مُظَاهَرَةٌ بِالْعُنْفِ قَدْ وُسِمَتْ مِنْ بَعْدِأَنْ يَئِسُوا مِنْ رَدِّ«هَنْشِيرِ»[1]
فَأَغْلَقُوا بَابَهُمْ فِي وَجْهِ مَنْ عَمَدُوا إِلَى افْــتِــكَاكِ حُقُوقِهِمْ بِتَزْوِيرِ
وَقَاطَعُوا مَكْتَبَ التَّعْــلِيمِ عَنْ ثِقَةٍ بِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَجْــلَى التَّــعَــابِيرِ
وَمَاتَ طِفْلٌ أَبُوهُ كَانَ مُعْــتَــنِقًا جِنْسِيَّةَ الظَّــالِمِ الْمَوْسُومِ بِالْجُورِ
هَزَّتْهُمُ نَخْوَةُ الإِسْــلاَمِ أَنْ يَقِفُوا كَيْ يَمْنَــعُوا دَفْنَهُ جَنْبَ الْمَعَاطِيرِ
فَاسْتَنْجَدَالْوَالِدُ الْمَغْبُونُ شُرْطَــتَهُمْ فَأَمْسَكُوا يَدَهُمْ عَنْ خَرْقِ هِجِّيرِ[2]
أَنْ يَدْفِنَ الْمَيْتَ طُغْيَانًا بِمَقْــبَرَةِ الْــإِسْلاَمِ مُجْــتَــرِقًا كُلَّ الْمَــعَايِيرِ

---

(1) هو «هنشير دخيلة العلالشة » الذي كان من أملاك «قلّة الْمنستير» ثمّ ادعى ملكيته بعض الأعراب فحكم سنة 1905 م لفائدة «جَمعية القلّة» ؛ ولكن في الْمحكمة الْمختلطة سنة 1932 م حكم بتسجيله لفائدة الأعراب . وأثار هذا حفيظة الْمنستيريين. (م.أرشيف جَمعية القلة بالْمنستير). (2) «الْهِجّير» هو الدّأب والعادة.

فَالدَّفْنُ فِيهَا لِمَنْ حَادَتْ عَـقِيـدَتُهُ ... مُحَجـَّـرٌ بِنُصُـوصٍ دُونَ تَحْوِيرِ

وَالطِّفْلُ شَـرْعًا عَلَى أَشْـرَاطِ وَالِدِه ... مَا دَامَ لَمَّا يَصِـلْ لِسِـنِّ تَخْيِيرِ

وَخَابَ مَأْمُـولُهُ، فَعَاجَ يَطْـلُـبُـهُ ... مِنْ عَامِلٍ[3] جَائِرٍ بِالْحِقْدِ مَغْـيُورِ[4]

فَمَا رَأَى مَانِـعًا وَاخْـتَارَ فِي صَلَفٍ ... رُكُوبَ جَامِحَةٍ فِي حُمْقِ مَـثْبُورِ

وَجَـاءَهُ مَـلَأٌ مِـنْـهُمْ يُحَـذِّرُهُ ... مِنْ قُبْحِ فِعْلَـتِه أَوْ سُوءِ تَقْـدِيرِ

فَزَادَهُ أَنَـفًا تَـحْـذِيـرُهُـمْ وَأَبَى ... إِلاَّ مُكَـابَرَةً فِي طَيْـشِ مَغْرُورِ

لَكِنَّ أَبْطَالَهَا لَمْ يَذْعَـنُوا وَ بَدَتْ ... فِيهِـمْ مُنَـاجَزَةُ الْغُرِّ الْعَنَـاتِـيرِ

لَمَّـا رَأَى الأَمْـرَ قَدْ دَارَتْ دَوَائِرُهُ ... وَ بَاتَ مُرْتَـقِـبًا وُقُوعَ مَحْذُورِ

ضَاقَتْ بِهِ سُبُلُ التَّـفْكِـيرِ فِي وَجَلٍ ... وَخَافَ مِنْ حَـادِثٍ يُنْبِي بِتَعْكِيرِ

وَخَافَ مِنْ صَوْلَةِ الأَحْـرَارِ تَأْخُذُهُ ... نَادَى بِـوَيْلٍ وَإِتْعَـاسٍ وَ تَثْـبِيرِ

فَجَـاءَهُ مَدَدٌ مِنْ جَيْـشِ سَيِّـدِه ... فِي أُهْبَةٍ لِلِّـقَا مِنْ مَـدْرَجِ السُّورِ

بِالْحُمْقِ أَشْـعَـلَـهَا حَرْبًا مُؤَجَّجَةً ... قَدْخَاضَهَاالشَّعْبُ مَكْشُوفَ الْمَنَاحِيرِ

سِلاَحُهُ مِنْ حَصًى لاَ نَصْـرَ يُؤْمَلُ مِنْـهُ غَيْـرَ أَنَّـهُ تَعْـبِيرُالنَّـحَـارِيرِ

رَامُوا تَأَخُّـرَهُ فَأُمْـطِـرُوا مَطَـرًا ... مِنَ الْحَصَىكَالْمَطَـارِيدِ الْمَهَازِيرِ[5]

«قُـرِّيشُ»[6] أَطْلَقَ نَارًا مِنْ مُسَدَّسِه ... فَطَاحَ«شَعْبَانُ»[7] فِي فُوَّارِ نَاعُورِ[8]

---

(3) هذا العامل هو «حسن السقا»عامل« الْمنستير».(م.4). (4) « مَغْيُور» مَسْقِيّ بلبن «الغيار» وهو لبن الأم الْحامل بطفل جديد وهو لبن ضارحسب تقاليد العائلة التونسية.(5) «الْمهازير» جَمع «مهزور» وهو الْمطرود الْمنفيّ. (6) «غريش» أو «ڤريش» هو قائد فرقة الْمشاة الفرنسية بـــ«قشلة قصر الرباط» 1933م.(م.4). (7) هو «شعبان بن صالِح البحوري يدعى خرفوشة» أوّل شهداء التجنيس في 7 أوت 1933م.(م.4).(8) « الناعور» هو العرق الفائر من الدم.

تَرَاجَعَ النَّاسُ بِالتَّــدْرِيجِ حَتَّى خَلَتْ   لِلْقبِّ [9] مَــقْــبَــرَةٌ ذَلَّتْ بِمَقْبُورِ
وَسَادَمِنْ بَعْــدِهَا جَوُّالْكَــآبَةِ فِي   أَرْجَائِهَا مُــنْــذِرًا بِــشَرٍّ مَنْظُورِ
وَأُعْلِنَتْ حَــالَةُ الْحِصَارِ وَ انْطَلَقَتْ   حَمْــلاَتُ قَمْعٍ وَتَمْشِيطٍ وَتَطْهِيرِ
مَحَــاكِمٌ نُصِبَتْ تَدِينُ مَنْ عَمَدُوا   أَوْكَانَ مُشْــتَــبَهًا فِيهِمْ بِتَــوْغِيرِ
تَأَثَّرَ النَّاسُ بِالأَحْــدَاث فَانْدَفَــعُوا   تَضَامُنًا فِي مَسِيــرَاتٍ وَتَشْــهِيرِ
فَاضْطُرَّت السُّلُطَاتُ أَنْ تَقُومَ بِــمَا   يَمْتَصُّ فِي رَأْيِــهَا غَيْظَ الْجَمَاهِيرِ
وَحَارَأَشْــيَاخُهَا فِي حَلِّ مُعْضِــلِهَا   وَانْــزَاحَ آخِــرَهَا غَيْمُ الدَّيَــاجِيرِ
«قُــرِّيشُ» يُبْعَدُ لِلصَّحْرَاءِ مُنْتَــبَذًا   تَخْبُو بِبُعْــدِهِ ثَارَاتٌ لِمَــوْتُــورِ
وَلْيُطْلَقِ الآنَ مَنْ تَــمَّ اتِّهَامُـــهُمُ   وَلْيُعْــزَلِ الْعَامِــلُ الْمَأْفُونُ بِالضَّيرِ
وَ جَاءَهُ خَبَرٌ بِالْعَــزْلِ فَانْغَــرَسَتْ   فِي قَلْــبِهِ شَوْكَــةٌ كَوَقْعِ سَاطُورِ
لَمْ يَسْتَطِعْ هَــضْمَهُ فَانْــهَارَمُنْتَحِرًا   وَكَانَ فِي نَعْــيِهِ أَحْــلَى التَّبَاشِيرِ
وَقَامَ نُخْبَــتُــهُمْ بِالشُّكْرِ تَرْفَــعُهُ   لِلْبَاي عَنْ ثِقَةٍ فِي الْعَدْلِ وَ الْخِيرِ
قَادَ«الْحَبِيبُ» [10] خُطَاهُمْ فِي مُخَاطَبَةٍ   هَشَّ لَهَا الْبَايُ مَبْسُوطَ الأَسَــارِيرِ
لَكِنَّ ذَلِــكَ لَمْ يُعْجِبْ غَرَانِــطَةً [11]   غَابَتْ عَلَيْــهِمْ أَسَــالِيبُ الْعَبَاقِيرِ
فَوَجَّهُوا لَوْمَهُمْ فِي غَــيْرِ مَوْضِعِهِ   لِلْكَاتِبِ الْعَــامِّ [12] تَلْــوِيحًابِتَحْذِيرِ
فَانْشَقَّ عَنْهُمْ وَ فِي الأَعْمَاقِ مَوْجِدَةٌ   خَوْفَ انْــزِلاَقٍ إِلَى شَرِّالْمَحَاذِيرِ

(9) «القبّ» هو رئيس القوم الذي مدار أمرهم عليه،نقول في المنستير«أبيْ قُب»ونقصد«السيد» استهزاءً. (10)هو الزعيم الحبيب بورقيبة. (11) هم أعضاء الحزب الحر الدستوري القديم وسمّوا هكذا لأن مقرّهم كان بنهج غرناطة بالعاصمة. (12)كان الحبيب بورقيبة الكاتب العام للجنة التنفيذية للحزب آنذاك.

وَقَامَ يَدْعُــو لِتَجْــدِيدٍ وَتَعْــبِــئَةَ   لِخَــوْضِ مَعْرَكَةٍ مِنْ أَجْلِ تَحْرِيرِ
مِنْ بَلْدَةٍ وُسِمَتْ مِنْ يَــوْمِ أَنْ بُنِيَتْ   بِنُصْــرَةِ الْحَــقِّ أَوْ تَعْزِيرِ مَحْقُورِ
إِسْلاَمُــهَا مَــالِكِيٌّ فِي تَــفَتُّــحِهَا   لِسَــانُهَا ذَرِبٌ، وَالْحِزْبُ دُسْتُورِي
فَكَانَ مَا كَانَ مِنْ عَسْفٍ وغَطْرَسَــةٍ   وَكَانَ مَا كَانَ مِنْ نَفْيٍ وَتَهْــجِيرِ
حَتَّى غَلَى غَضَبٌ فِي قَلْبِ مَنْ أَنِفُوا   أَنْ يَرْكَــنُوا فَرَقًا لِلظُّلْمِ وَالزُّورِ
فَأَشْــعَلُوا نَارَهَا فِي كُــلِّ مِنْطَــقَةٍ   وَهَبَّ أَبْــطَــالُهَا فِي قَفْزِ سَــابُورِ
لِلْحَرْبِ صَارُوا دُعَاةً رَغْمَ قِلَّــتِهِمْ   حَرْبُ الْعِصَــابَاتِ مِنْ خَيْرِ التَّدَابِيرِ
وَالأَمْنُ ضَاعَ، وَعَادَ الْقَوْمُ فِي خَطَرٍ   وَالشَّعْبُ مُضْطَرِبٌ وَالْكُلُّ فِي الضَّيْرِ

ليلة الرعب

فِي لَيْلَةِ الرُّعْبِ[1]وَالإِظْلاَمُ مُنْعَـقِدٌ دَوَّتْ بَنَــــادِقُهَا مِنْ أَسْطُحِ الدُّورِ
مِنْ ذُعْرِنَا عُقِدَتْ أَفْـــوَاهُــنَا فَرَقًا خِلْنَا الْفَــــنَاءَ أَتَى وَ نَفْخَةَ الصُّورِ
فَالرَّعْدُ بَعْدَالْفَضَا فَوْقَ السُّــطُوحِ دَنَا يَهُــدُّ أَعْصَـــابَنَا مِنْ دُونِ تَحْذِيرِ
وَالْبَرْقُ مُسْتَسْلِمًا خَلَّى الطَّــرِيقَ إِلَى بَارُودِهِمْ قَائِلاً :« لَيْسَتْ أَعَاصِيرِي؟
تَوْمَاضُ بَارِقَتِي بُشْــــرَى وَلَيْسَ نَذِيـرَالشُّؤْمِ فِي الصَّيْفِ،لاَلَيْسَتْ تَبَاشِيرِي»
فَالنَّاسُ قَدْ ضَجِرُوا مِنْ جَوْرِ ظَالِمِهِمْ أَلْقَى مَقَــانِـعَــهُ عَنْ وَجْهِ مَسْعُورِ
«الْــقَـــاوِرِيُّ»[2]سَطَا فِي الشَّعْبِ يُرْجُفُهُ
يَرْجُــوـمَذَلَّـتَــهُ بِالْعَسْــفِ وَالْجُـــورِ
فَهَذِهِ عُصْـبَةٌ حَمْــرَاءُ مَافَــتِـئَتْ تَغْــتَالُ مَنْ يَنْتَمِي لِلْحِزْبِ دُسْتُورِي
وَتِلْكَ شِرْذِمَةٌ بِالْغَــدْرِقَــدْ وُسِمَتْ بَاعَتْ ضَــمَـــائِرَهَا مِنْ غَيْــرِتَقْدِيرِ
فَهَبَّ أَحْـــرَارُهَا لِلـــذَّوْدِ عَنْ حُرُمٍ فِي دَوْسِــهَا الْمَوْتُ أَهْوَنُ الْمَحَاذِيرِ
وَ جَنْدَلُوا حَــرَسًا قُــدَّامَ ثَكْــنَتِهِ كَيْ يُوقِــظُوا نَائِمًا عَنْ حَقٍّ مَقْهُورِ
كَانُوا بَغَوْا أَحَــدَ الْبَـــاغِينِ عَنْ ثِقَةٍ مِنْ أَنَّ فِي قَتْــلِهِ أَجْــلَى التَّــعَابِيرِ

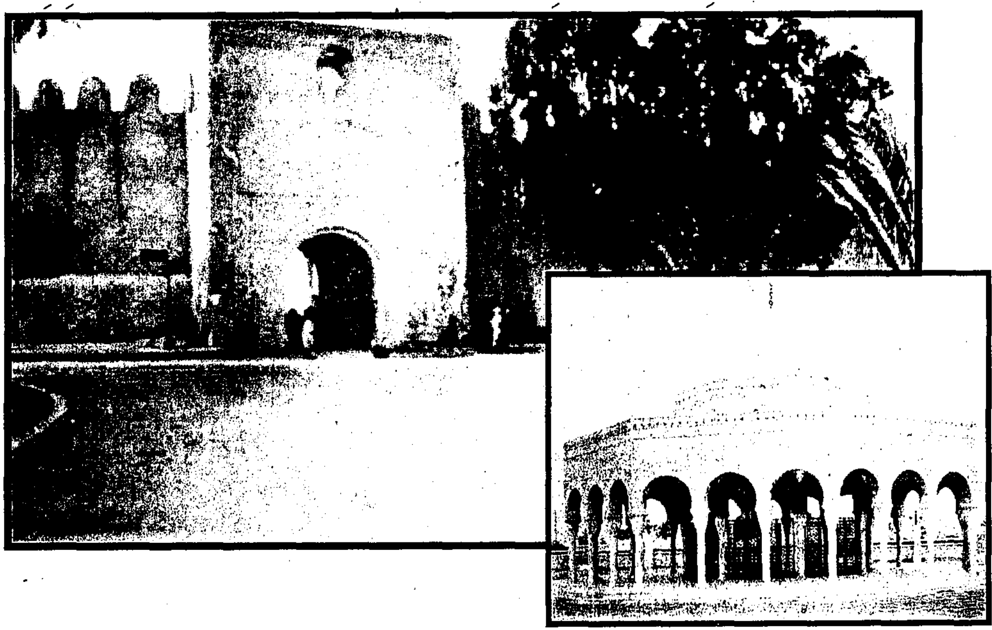
(1) «ليلة الرعب» هي ليلة من ليالي «الْمنستير»، التاريــخية بالتحديد في 31 أوت 1953 وقد غلى مرجل الْحقد بين التونسيين والْمستعمرين فهاج هائج الْحرس الْمتجوّل وزرع الرعب في الْمدينة وقتل غدرا أربعة من خيرة أبنائها (الْحاج سعيد الْمرشاوي وأحْمد الغــندري ومصطفى بن جنات وعبد السلام تريمش. (2)الــقـــاوري هي الكلمة الشعبية التي تطلق على الأجانب الأوروبيين وهي من كلمة «guerrier» محارب حيث ليس لنا تاريخ مع أوروبّا إلاّ الحرب.

وَالْعُنْفُ حَلَّ مَحَلَّ الرِّفْقِ فِي غَضَبٍ وَجَاهَـرُوا عَـلَـنًا بِكُلِّ مَسْتُورِ
هَاجَ الْبُغَاةُ وَ رَامُوا كَسْرَ شَوْكَـتِهَا كَأَنَّمَا قَدْ خَشَوْا مِنْ سَطْوِ مَذْحُورِ
وَأَشْعَـلُـوا نَارَهَا وَ الْحَرْبُ جَارِفَةٌ فِي سَيْرِهَا لاَ تَـرَى حَقًّا لِمَبْرُورِ
وَانْهَـارَ مِنْ خِـيرَةِ الأَبْـنَاءِ أَرْبَعَةٌ فِي سَطْوَةِ الْقَهْرِ وَ التَّعْذِيبِ وَالزُّورِ
إِثْنَينِ قَدْ جَنْدَلُوا[3]،وَالْبَابُ[4]يَشْهَدُ أَنْ قَدْ أَسْـرَفُوا وَ أَتَوْا فِعْلَ الجَبَابِيرِ
وَوَاحِدًا غَـدَرُوا[5] فَانْهَارَ وَاحْتَفَرَتْ أَظْفَارُهُ أَثَـرًا فِي الصَّخْرِ وَالْجِيرِ
وَوَاحِدًا جَـرْجَرُوهُ[6] خَلْفَ مَرْكَبَةٍ تَجْرِي بِهِ فَغَدَاصِنْوًا لِـ«هِكْتُورِ»[7]
فَأَسْبَلَتْ فَاحِمَ الأَثْـوَابِ مِنْ ثَكَلٍ أَنَّتْ،وَصَاحَتْ،وَدَقَّتْ صَدْرَ مَوْتُورِ
مَا أَسْفَرَ الصُّبْحُ حَتَّى هَبَّ ثَائِـرُهَا فِي غَضْبَةِ الأُسْدِ إِذْ غِيظَتْ بِتَحْقِيرِ
يَسْعَوْنَ فِي حَرَدٍ وَ الْفِكْرُ مُشْتَـغِلٌ بِالرَّدِّ فِي دِقَّـةِ الشُّمِّ الذَّوَاكِيرِ
وَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ فِي السِّرِّ وَاقْتَـنَعُوا مِنْ بَعْدِ أَنْ قَلَّـبُوا وُجُـوهَ تَفْكِيرِ
أَنَّ الْخَلاَصَ رَهِينُ الصَّبْرِ فِي ثِـقَةٍ بِمَنْهَجِ الْقَـادَةِ الْغُرِّ النَّحَارِيرِ
«أَكُونُ أَوْ لاَ أَكُونُ» تِلْكَ مَسْـأَلَةٌ قَدْ خَاضَهَا قَبْلُ أَبْطَالُ «شِكْسْبِيرِ»
وَالآنَ «يَهْنِفُ مَنْ يَبْقَى لآخِـرِهَا» لاَ بُدَّ لِلْـقَيْـدِ مِنْ فَكٍّ وَتَكْسِيرِ

---

(3) هما أحمد الغندري وعبد السلام تريمش. (4) الباب هو باب السور أو باب البحر كان أمام البلدية وهو أحد أبواب المدينة الأصلية. (5) هو مصطفى بن حسين بن جنات (6) هو الحاج سعيد المرشاوي، وقد خرجت به مركبة الجيب من « مركز الجندرمة» مركز حرس المرور الآن أمام المستشفى، وجرّته بـ « طريق الكورنيش» ، وانفلقت رأسه في «دويرة زهرة » قرب «برج القلب» (7) «هكتور» هو فارس طروادة وسيّدها الذي قاوم اليونانيين وقُتل في ساحة الشرف وجُرّت جثته جرّا وراء الْمَركبة كما وقع جَرّ «الحاج سعيد المرشاوي» حيًّا وراء سيّارة «جيب» حتى مات وهذا أفظع ممّا وقع لـ«هكتور».

فَلَمْ يَكُنْ أَمْرُهُمْ فِي صَبْــرِهِمْ وَهَنًا بَلْ صَـــرَّةَ الْفَوْزِ مِنْ قَبْلِ التَّبَاشِيرِ
وَقَامَ مِنْ سَعْدِهَا مَا كَانَ مُنْـــكَفِئًا وَشَعَّ فِي جَـــوِّهَا عَبْقٌ مِنَ النُّورِ
هَذِي«الْمُنَسْتِيرُ»فِي الْحَقِّ مَلاَحِمُهَا فَاقَتْ بِرَوْعَــتِهَا«عِلْيُونَ هُومِير»[8]
لَكِنَّهَا لَمْ تَــقَعْ فِي فَخِّ غَــادِرِهَا بَلْ أَخْرَجَتْ غَازِيًا فِي حُسْنِ تَدْبِيرِ
أَلْقَتْ بِسَبْعِ حُصَــيَّاتٍ وَرَاءَهُ كَيْ لاَ يَرْتَــــئِي عَوْدَةً مِنْ بَعْدِ تَهْجِيرِ
وَأُلْبِــسَتْ حُلَّــةً زَادَتْ مَفَاخِرَهَا مِنْ بَعْدِ إِعْسَارِهَا فِي الأَعْصُرِ الْقُورِ
وَهَذِهِ نُــبَــذٌ مِنْ بَعْضِ مَا تَرَكُوا يُعْـــزَى مُبَيِّـــنُهَا لِكُلِّ تَقْصِيرِ
قُمْنَا بِتَسْجِيلِهَا خَوْفَ الدُّثُـــورِ فَمَا تُغْنِي الْمَعَـــالِمُ مِنْ دُونِ الْمَحَابِيرِ
لاَ! الْبَابُ يَشْــهَدُ إِنَّ الْكُلَّ مُنْدَثِرٌ وَاللهُ وَحْــــدَهُ يَبْقَى دُونَ تَغْيِيرِ



(8) «عليون هومير» Illion de Homère وهي «طروادة» التي كتب فيها الشاعر «هوميروس» إلياذته.

خاتمة

فِي حُبِّ مَنْ تَيَّمَتْ قَلْبِي بِنُضْـــرَتِهَا ... لَمْ أَجْـــنِ إِلاَّ خَيَالاَتِ السَّمَادِيرِ

فِي قُرْبِهَا نَصَـــبٌ، فِي بُعْدِهَا تَعَـــبٌ ... فِي حُبِّهَا عَجَـــبٌ فَوْقَ التَّـــعَابِيرِ

عُمْرِي انْقَضَى وَمَضَى لَمْ أَجْنِ فِيهِ رِضَا ... غَيْرَ الْحَـــنِينِ إِذَا جَنَّتْ دَيَاجِيرِي

وَالْحُبُّ لَوْ وَصَفَ الْعُـــشَّاقُ مَا بَلَغُوا ... بَعْضَ الَّذِي قَدْ سَبَا لُبِّي وَتَفْـــكِيرِي

لَوْلاَ الأُولَى سَبَـــقُوا قَدْ شَاعَ ذِكْرُهُمُ ... فِي الْحُبِّ، كُنْتُ أَنَـــا أَوْلَى الْمَذَاكِيرِ

مَهْمَا يَكُنْ لاَعِـــجُ الأَشْـــوَاقِ مُتَّقِدًا ... لاَ يَعْتَـــصِي أَبَـــدًا عَنْ حُسْنِ تَصْوِيرِ

أَمَّا حَبِيبَةُ قَلْـــبِي فَالْهَـــوَى نَشَـــقٌ ... مِنْ رِيحِـــهَا قَـــدْ سَمَاعَنْ كُلِّ تَقْدِيرِ

فَالأُفْقُ يَمْلَؤُهُ سِحْـــرٌ إِذَا عَبَـــقَتْ ... أُغْنِيَّةٌ بِشَـــذًى مِنْ شَـــدْوِ عُصْفُورِ

أَوْ رَفَّةٌ مِنْ جَنَـــاحٍ وَقَّعَتْ نَغَـــمًا ... بَاتَتْ تُـــرَدِّدُهُ أَوْتَـــارُ طُنْـــبُورِ

أَوْ مَوْجَةٌ عَزَفَتْ لَحْـــنَ الزَّمَانِ عَلَى ... قِيثَارَةِ الرَّمْلِ فِي شَاطِي «الْمُنَسْتِيرِ»

تَرْوِي حَكَايَا قُرُونِ الْمَجْدِ إِذْ عَبَرَتْ ... مِنْ سِحْرِهَا قَدْ بَدَتْ مِثْلَ الأَسَاطِيرِ

يُنْبِيكَ عَنْ صِحَّةِ الأَخْـــبَارِ حَاضِرُهَا ... يَحْكِيهِ فِي رَوْعَةٍ مِنْ غَيْـــرِ تَزْوِيرِ

اسْمُ«الْمُنَسْتِيرِ» يَأْتِي الْأُذْنَ يَجْعَـــلُهَا ... تَقُولُ لِلْهَمِّ وَالأَحْزَانِ :«أَنْ طِيرِي!»

كَمْ مَرَّةٍ رَاعَنِي نَجْـــلِي بِصَيْـــحَتِهِ ... فَقُلْـــتُ فِي عَجَلٍ مِنْ دُونِ تَفْكِيرِ:

«هَذَا الْهُتَافُ لِمَنْ؟» فَقَالَ مُبْتَسِمًا: ... «لِلإِتِّـــحَادِ الرِّيَاضِيِّ الْمُنَسْتِيرِي»

جَمْعِيَّةٌرَفَـــعَتْ رَأْسَ الـــرِّيَاضَةِ فِي ... هَذِي الـــرُّبُوعِ ، وَنَالَتْ كُلَّ تَقْدِيرِ.

أَلُومُهُ وَ أَنَا فِي دَاخِـــلِي جَـــذِلٌ ... فَالإِسْمُ فِي جَرْسِهِ صَوْتُ الشَّحَارِيرِ

فِي وَصْلَةٍ مِنْ تَلِيدِ الْفَنِّ مَاانْقَطَعَتْ ... بَاتَتْ تُوَثِّقُهَا جَمْعِيَّةُ الْخِيرِ

«جَمْعِيَّةٌ لِصِيَانَةِ الْمَدِينَةِ» قَدْ ... آلَتْ عَلَى نَفْسِهَا إِحْسَانَ تَدْبِيرِ

بِهَا أَسَاتِذَةٌ بِالْحَزْمِ قَدْ وُسِمُوا ... مِنْ وَقْتِهِمْ وَهَبُوا لِلأَهْلِ وَالْغِيرِ

فَكَانَ مَقْصُودُهُمْ نَشْرُ مَفَاخِرِهَا ... مِنْ دَارِسٍ لَمْ يُنَلْ قَبْلاً بِتَحْفِيرِ

وَتَالِدٍ وَثَّقُوا أَشْتَاتَهُ فَبَدَا ... كَالْفَجْرِ فِي طَيِّهِ سَوَاطِعُ النُّورِ

وَطَارِفٍ حَضَنُوا كَيْلاَ يَضِيعَ فَفَا ... حَتْ مِنْ عَوَابِقِهِ أَحْلَى التَّعَاطِيرِ

فَغَيَّرُوا وَجْهَهَا فِي بَعْثِ مُنْدَثِرٍ ... وَبَارَكَتْ سَعْيَهُمْ كُلُّ الْجَمَاهِيرِ

فِي نَشْرِ أَمْجَادِهَا سَارَتْ إِذَاعَتُهَا ... مِنْ ضَبْطِ بَرْمَجَةٍ فِي حُسْنِ تَحْرِيرِ

تَغْزُو الْمَسَامِعَ مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ فَلاَ ... يَشْكُونَ مِنْ ثِقَلٍ أَوْ عَوْدِ تَكْرِيرِ

مَسْرَحُهَا«البَعْثُ» لِلأَمْجَادِ مُدَّخِرٌ ... كَمْ حَازَ مِنْ شَرَفٍ فِيهِ وَ تَقْدِيرِ

الْفَنُّ دَيْدَنُهُ يَسْعَى بِلاَ حَرَجٍ ... مُجَدِّدًا وَاعِيًا بِكُلِّ تَغْيِيرِ

يَا «مَجْلِسًا بَلَدِيًّا» حُزْتَ مَفْخَرَةً ... فِي وَضْعِ تَهْيِئَةٍ أَوْ شَرْعِ تَعْصِيرِ

ابْنِ الْحَضَارَةَ فَالأَجْيَالُ قَدْ فَخَرَتْ ... بِفِعْلِ أَجْدَادِهَا فِي الأَعْصُرِالْقُورِ

فَذَاكَ تَأْصِيلُهَا ، وَذَاكَ مُنْطَلَقٌ ... لِقَفْزَةِ الْعَصْرِ فِي تَعْمِيقِ تَجْذِيرِ

عَرِّجْ بِهَا صُعُدًا نَحْوَ الْعُلاَ فَلَقَدْ ... نِلْتَ الرِّضَا،فَاجْتَهِدْ مِنْ دُونَ تَقْصِيرِ

وَادْخُلْ بِهَا قَرْنَ تَحْدِيثٍ بِلاَ مَلَقٍ ... جَدِّدْ بِهِ فَخْرَهَا فِي عَهْدِ تَغْيِيرِ

وَاسْلُكْ بِهَا دَرْبَ مَنْ لَمْ يَرْكَنُوا أَبَدًا ... لِلْعَجْزِ فِي سَيْرِهِمْ شَأْنَ الْمَغَاوِيرِ

وَابْنِ الْغَدَالْمُشْرِقَ الزَّاهِي بِمَاجَمَعَتْ ... مِنْ نُبْلِ مَقْصَدِهَا وَحُسْنِ تَسْيِيرِ

فَالسِّرُّ يَكْمُنُ فِي حُبِّ التَّمَيُّزِ لاَ ... تَقْلِيدِ مَنْ سَبَقُوا مِنْ دُونِ تَفْكِيرِ

وَذَاكَ مَا سَـــحَــــرَ الزُّوَّارَ فَانْجَذَبُوا ... بِطِلْـــسَمِ الْحُسْنِ مِنْ شُغْلِ السَّوَاحِيرِ

لاَ خَابَ مَنْ تَـــرَكَ الْفَـــالاَزَ مُنْتَزَهًا ... لَمْ يَعْـــدُهُ الرُّشْــدُ فِي أَشْغَالِ تَعْمِيرِ

وَذَاكَ الَّذِي شَقَّ بِالرَّتْلِ الْخَفِيفِ شِعَا ... بًا فَانْجَــلَتْ عَنْ كُـنُــوزٍمِنْ مَآثِيرِ

جَوُّ الْمُنَسْتِيرِ يَسْــتَهْــوِيكَ فِي نَهَمٍ ... كَالشُّــرْبِ عَنْ عَطَشٍ مِنْ رَكْوَةِالْبِيرِ

سَاحَاتُهَا قَدْ غَدَتْ تُغْــرِيكَ فِي أَلَقٍ ... شَــعَّتْ وَزَانَتْ بِأَزْهَارٍ وَتَشْجِــيرِ

عِنْدَ الْغُرُوبِ تَرَى جَــلاَلَ بَهْجَــتِهَا ... وَيَسْتَــبِيــكَ اجْتِــمَاعُ اللَّيْلِ بِالنُّورِ

هَذِي رِيَاضٌ بِهَا الأَشْجَارُ قَدْ بَسَقَتْ ... أَغْصَــانُهَا قَدْ أَوَتْ شَتَّى الْعَصَافِيرِ

عِنْدَ الأَصِيلِ تَرَى فِي كُـــلِّ نَاحِيَةٍ ... جَوْقًا يُقَـــامُ عَلَى غُصْنٍ مِنَ الْحُورِ

مُسْتَرْسِلاً فِي نَشــيدِ السَّعْدِ مُدَّكِرًا ... أَحْلَى الأَمَــاسِي مَعَ الْغُرِّ الْمَعَاطِيرِ

نَوَارِسُ الْبَحْــرِ تُمْسِي عِنْدَ مَوْقِــعِهَا ... بِـ«ـغَارِ قَـــطٍّ»[1] كَحُرَّاسٍ نَوَاطِيرِ

لاَ! لَيْسَ مِنْ عَجَبٍ فِي نَوْرَسٍ حَرَسٍ ... فِي بَلْـــدَةٍ رَابَطَتْ طُولَ الأَعَاصِيرِ

أَلَمْ يَقُـــمْ هَــاهُنَا «بُرْجٌ»[2] أَقَامَ بِهِ ... بَعْضُ النَّوَاظِيرِمِنْ أَمْثَالِ «مَنْصُورِ»[3]

---

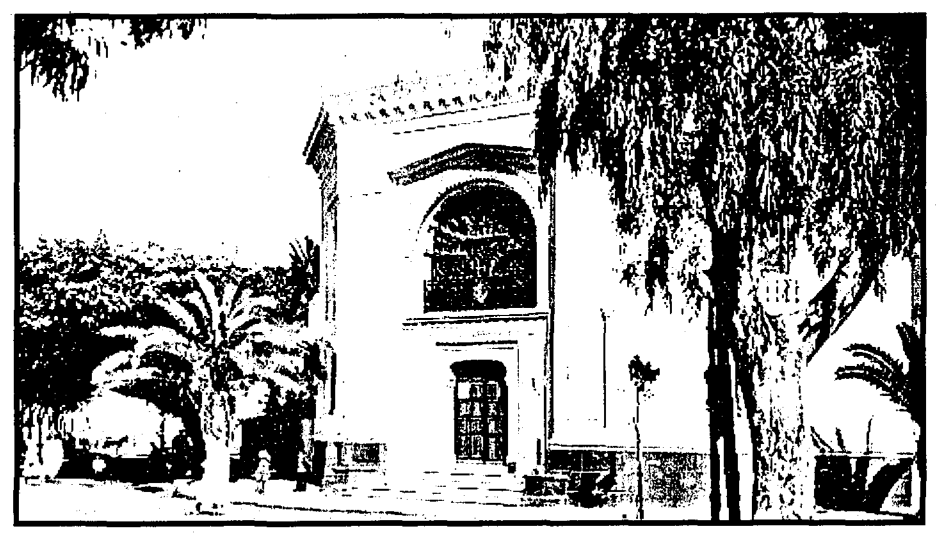
(1) «غار الـــقط» هو الغار الذي بني على ضفافه «مقهى الفريك» الآن. (2) هو «برج سيدي منصور» ولعله «برج خديجة» الذي ما زالت أسسه قائمة لحد كتابة هذه الأسطر بساحة 3 أوت حاليًا على« غارخديجة» وقد هدم أيام الإستعمار لإنشاء مسلخ، ثم لَم يتم هناك بل تَم بالقرب منه لأنه كان لا يتّسع لِهذا النشاط وهذا ما ثبت في مَحاضر جلسات الْمجلس البلدي، خلافا لِمن توهم فجعله «دارالفريك» على«غارالكحلية» والتي مازالت أسسهاظاهرة إلى الآن، و«الكحلية» نفق تحت الأرض نُقِر في الصخر و يظهرأنه كان حَمّاما بَحريّا «لِحريم الفريك»، غير أن البعض توهم أنه كان منعزلا لبعض الرهبان وهذا بعيد حيث إن غرفه لا تسمح بأي نشاط تعبّدي مسيحي أو إسلامي. ولاعجب أن يكون فينيقي الأصل جنائزي المقصد إذ به أحواض تسمّى«الماجل الكبيروالماجل الصغير» جعلت لتحنيط الموتى قبل وضعهافي النواويس على عادة شعوب الشرق الأوسط (3) **هو «منصور بيزيد الْمرابط »**الذي سبق ذكره في المقدمة.

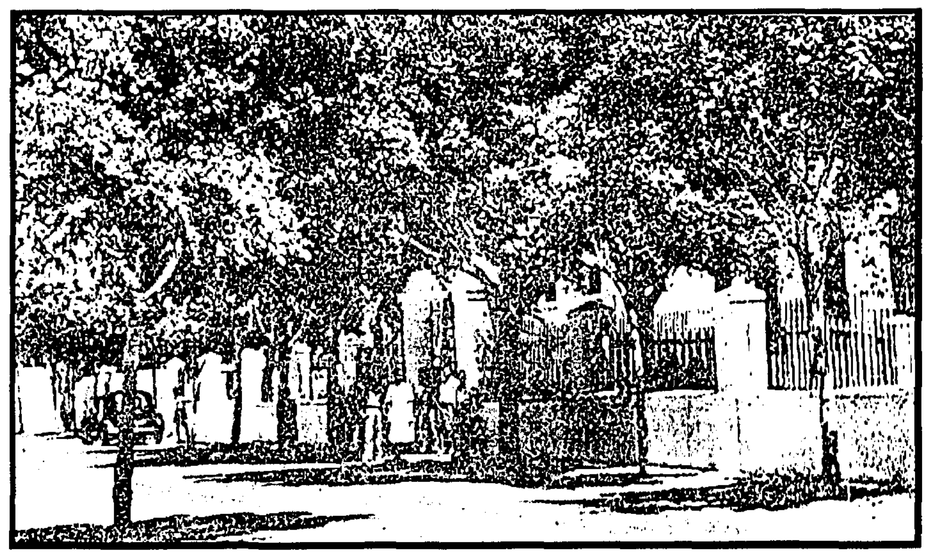
وَهَاهُنا جَاشَ صَدْرٌ بالْحَنِينِ فَقَا ... لَ الشِّعْرَ مُسْتَلْهِمًا سِرَّ الْمَغَاوِيرِ

أَدِفْؤُهَا مَا سَبَاهُ أَمْ نَسَائِمُهَا ... أَمْ رَصْدُ سَاحِرَةٍ فِي عَيْنِ مَسْحُورِ؟

إِنِّي عَشِقْتُ الَّتِي مَا زَالَ يَأْسِرُنِي ... فِي عِشْقِهَا دَنَفٌ رَغْمَ التَّبَاخِيرِ

إِنْ كُنْتُ مُتَّهَمًا فِي عِشْقِ غَانِيَةٍ ... فَإِنَّهَا لَمْ تَكُنْ غَيْرَ «الْمُنَسْتِيرِ».





فِي وَقْفَةِ الْعِشْقِ وَالإِعْجَابِ هَامَ أَبِي   وَسَرَّحَ الطَّرْفَ فِي عُرْسِ الْمُنَسْتِيرِ

هَلْ بَطْلَمُوسُ رَأَى فِي مِصْرَ مِثْلَ أَبِي

هَذَا الْجَلاَلَ مِنَ الأَجْــــوَازِ وَالْغُورِ؟



الفهرس



فهرس

سيبويه
دار سيبويه للنشر والتوزيع

تم سحب 2000 نسخة من هذا الكتاب في طبعة أولى 2006

ISBN 9973-130-00-0
8 باب الكرم المنستير 5000 تونس
الهاتف و الفاكس 00216.73465253
SIBAWAIH éditions@yahoo.fr
I M S
المطبعة العصرية بالساحل. صيادة



ISBN 978-9973-965-12-7

الثمن: 7.600 د.ت